

الدكتور عبد اللطيف حمزة

الأدب المصري

من قيام الدولة الأيوبية
إلى مجيئ الحملة الفرنسية



مكتبة دار الفكر العربي - القاهرة



دار الفكر العربي
القاهرة

الأدب المصري

من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية

الأدب المصري

من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية

تأليف

الدكتور عبد اللطيف حمزة

تقديم

الدكتور: عبد العزيز شرف



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

تقديم

الدكتور عبد اللطيف حمزة

والدراسة المنهجية لشخصية مصر

بقلم الدكتور: عبد العزيز شرف

هذا الكتاب عن «الأدب المصرى» لأستاذنا الدكتور عبد اللطيف حمزة؛ رحمه الله؛ يتم عمله فى كتابه: «الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكى الأول»؛ الذى نشر لأول مرة عام ١٩٤٧م. وشاغله فى الكتابين؛ ثم فى دراساته التالية؛ الأدبية ثم الصحفية؛ يتمثل فى دراسة الشخصية المصرية، وتحديد معالمها وخصائصها، وهل بقيت هذه المعالم واضحة فى كل زمان؟ وهل ثبتت هذه الشخصية للأحداث؟

يمثل هذا السؤال جوهر الدراسات التى تناولت الشخصية المصرية؛ والدراسات التى تناولت شخصية مصر؛ كما فعل الدكتور جمال حمدان رحمه الله؛ حين أكد صعوبة تركيز الشخصية الإقليمية فى معادلة موجزة؛ لا سيما إذا كانت غنية خصبة

كشخصية مصر. ولكن البعض كثيراً ما ردد أن مصر «أرض التناقضات»، ربما تحت تأثير التباين الشديد بين الفروق الاجتماعية الصارخة من ناحية، أو من ناحية أخرى بين خلود الآثار القديمة وتفاهة المسكن الفردى؛ أو بين الوادى والصحراء حين يتجاوران جنباً إلى جنب؛ ونظرة هؤلاء «نظرة ضيقة إن لم تكن سطحية لأنها لا تعرض إلا لجانب واحد من مركب غريض؛ ذلك أن حالة مصر نادرة بين الأقاليم والبلاد من حيث السمات والقسمات التى تجتمع فيها، وكثير من هذه السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك، لكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقاً فريداً فذاً حقيقةً. فهى بطريقة ما تكاد تنتمى إلى كل مكان دون أن تكون هناك تماماً. فهى بالجغرافيا تقع فى إفريقيا؛ ولكنها تمت إلى آسيا أيضاً بالتاريخ، وهى متوسطة دون مدارية بعروضها، ولكنها موسيمية بمبانيها وأصولها. وهى وإن كانت أصلاً موسمية فى مصدرها، فقد أصبحت موسمية دائمة أخيراً على ما فى ذلك من تناقض. هى فى الصحراء وليست منها، إنها واحة صحراوية، بل ليست بواحة وإنما شبه واحة هى».

ويخلص د. حمدان إلى أنها شخصية تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرية تصل بها إلى التجانس والوحدة بسبب النيل والصحراء، المركزية لضيق مساحة المعمور، تعادل الوضع والموقع في أحوال القوة وتخلف الوضع عن الموقع في أحوال الضعف، ملكة الحد الأوسط وتجعلها أمة وسطا بكل معنى الوسط الذهبي - ولكن ليس أمة نصفاً وسط في الموقع والدور التاريخي والحضارى، فى الموارد والطاقة، فى السياسة والحرب، فى النظرة والتفكير.. ولعل فى هذه الموهبة الطبيعية سر بقائها وحيويتها على العصور ورغممها. إن مصر جغرافياً وتاريخياً تطبق عملى لمعادلة هيجل: تجمع بين «التقرير» و«النقيض» فى «تركيب» متزن أصيل. وهى «فلتة جغرافية لا تتكرر» على حد تعبير د. حمدان.

وكانت دراسات الدكتور عبداللطيف حمزة فى أربعينات القرن الماضى (العشرين)؛ تتوجه صوب النصوص الأدبية فى العصرين الأيوبي والمملوكي؛ ومحورها دراسة هذه الشخصية المصرية؛ فعنى بدراسة البيئة، ودراسة الأجناس التى طرأت على مصر واشتركت فى

تكوين «الأمة المصرية، كما درس الظروف السياسية التي تعاورت على هذه الأمة؛ وخلص من ذلك كله؛ إلى أن الطبيعة المصرية قد تأثرت بكل هذه الظروف وأمثالها؛ وهى التى فى جوّها «تكونت الأخلاق المصرية العامة والأخلاق المصرية الخاصة».

ويتصدى د. حمزة لهذه الدراسة الرائدة، داعياً إلى «تضافر الجهود الكثيرة؛ وتعاون العلوم لرسم خطوط رئيسية تميز الشخصية المصرية» وهى - كما يقول رحمه الله - شخصية «ذات تاريخ طويل وقديم، لا نبالغ إذا قلنا إنه أطول تاريخ وأقدمه» :

«أجل - ينبغى أن تتضافر جهود كثيرة فى تصوير شخصية ما لأمة من الأمم؛ فيتعاون فى ذلك المؤرخون والجغرافيون وعلماء الآثار وعلماء الاجتماع وعلماء اللغات وغيرهم» ؛ وقد أجيبت هذه الدعوة الرائدة؛ وحسبنا أن نذكر من ثمارها تلك الدراسات القيمة التى تناول فيها د. جمال حمدان شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان؛ وغيرها من الدراسات التى ما تزال تتوالى حتى الآن.

ثم يحدد د. حمزة دور الباحث الأدبي؛ فيذهب إلى أنه يفيد من بحوث هؤلاء العلماء كلهم؛ ليقول كلمته في موضوع الشخصية المصرية بعدهم.

ثم يتساءل - عام ١٩٤٧م - : .. ولكن هل معنى هذا أن يبقى الباحث الأدبي مكتوف اليدين حتى يجود عليه أولئك العلماء؛ كل بكلمته الأخيرة وأبحاثه الحاسمة في موضوع كهذا، ربما لا يعنى المرء فيه بالتفاصيل، أو ربما اكتفى فيه بما قاله العلماء فعلاً في هذا السبيل. وإن كان الذى قالوه لا يشفى غليلاً ولا يحسم نزاعاً ولا يقطع بالرأى الأخير فى شأن كهذا الشأن؟

يذهب د. حمزة بعد طرح السؤال؛ إلى أن الباحث الأدبي فى مقدوره أن يقول كلمته الأولى فى هذا الموضوع؛ فى ضوء مطالعته فى شتى هذه العلوم؛ وقد خص منها ثلاثة هى: علم الآثار؛ وعلم التاريخ، وعلم الجغرافيا الجنسية: «وليس يضير الباحث الأدبي فيما بعد أن يجيء كلامه مخالفاً للنتائج التى سوف يصل إليها المشتغلون بهذه العلوم فى المستقبل؛ بل يجب عليه فى هذه الحالة إما أن يؤيد كلامه بكلامهم وإما أن يصلح خطاه بصوابهم، وإما أن يجمع بين الرأيين».

وفى مقدمة كتابه عن: «الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكى الأول» ١٩٤٧م، بشر بهذا الكتاب الذى يعاد طبعه عن «الأدب المصرى» الإسلامى الخالص؛ ورأى فيه أموراً أو خصائص، أهمها ثلاث:

الأولى: أنه كان أدب القوة والعاطفة.

والثانية: أنه كان أدب السخرية والفكاهة والملح اللفظية المتظرفة.

والثالثة: أنه كان أدب الزينة اللفظية بالمعنى المعروف فى كتب البلاغة إذ ذاك. فأما قوة الأدب المصرى من حيث العاطفة فمصدرها: الحوادث السياسية التى سيطرت على الحياة المصرية وأوجبت على مصر أن تكون زعيمة العالم الإسلامى فى الحربين الصليبية والمغولية. يقول د. حمزة:

«ولقد كان الأدب المصرى يومئذ فياضاً بمعانى الحماسة والقوة، والعواطف الدينية الحارة.

وأما فكاهة الأدب المصرى وميله إلى السخرية فقد ظهرت فى الشعر والنثر ظهوراً واضحاً، بحيث لا نكاد نلتقى بشاعر أو كاتب

مصرى عريق فى المصرية إلا وتجد له فى التعبير عن المرح المصرى قدماً راسخة؛ ويدأ طولى؛ وأما الزينة اللفظية فقد كلف المصريون بها كلفاً عظيماً. وطراً على مصر رجل من فلسطين هو القاضى الفاضل، فتعلم هذه الطريقة من طرق التعبير فى مصر، ثم ازداد مع الأيام تعلقاً بها، وتيسر له فيما بعد أن يكون زعيماً سياسياً وأديباً كبيراً فى مصر. وأن ينشر مذهبه الفنى، فانتشر انتشاراً كبيراً؛ وتحمس له الكثرة من أهل مصر؛ وإن احتفظ بعضهم يومئذ بشيء من القصد فى استخدام الزينة اللفظية التى أسرف فيها القوم.

وفى هذا الكتاب عن «الحركة الأدبية فى مصر»؛ يناقش الأسباب التى أدت إلى إسراف الأدب المصرى الوسيط فى استخدام الزينة اللفظية، كما يرى القارئ الكريم فى فصول هذا الكتاب؛ من هذه الأسباب: ديوان الإنشاء؛ والحضارة الفاطمية؛ وذبوع الثقافة الدينية فى تلك العصور، وسيطرتها على أذهان العلماء. والقرآن هو السبب الأول فى نهضة النحو واللغة والبلاغة وغيرها.

ويخلص من ذلك كله إلى أن «ثقافة الأدباء الدينية، فى ذلك الوقت؛ كانت من مصلحة الأدب المصرى إلى حد بعيد. وبقيت هذه الثقافة الدينية صالحة للأدب حتى أتى الوقت الذى وجدنا فيه

القوالب العربية نفسها قد جمدت، والأساليب الأدبية أصابها نوع من التحجر. وذلك بسبب عجز الأدباء المتأخرين عن الاستفادة من أسلوب القرآن الكريم، ويسبب تأخرهم في تحصيل الثقافات التي تعينهم على بلوغ هذه الغاية.

كما يخلص إلى أن تدين المصريين كان له «أثر عظيم في نزاهتهم الخلقية التي ظهرت بوضوح في ثروتهم الأدبية؛ كما نرى في هذا الكتاب «ذلك أن الأدب المصري لم يكن في تلك الفترة أدباً ماجناً بالقياس إلى غيره في بعض الأقاليم.. وإنما كان الأدب المصري في ذلك الوقت «عفاً، نزيه اللفظ في جملته. آية ذلك أن مصر لم يكن بها في هذه العصور شاعر كأبي حامد الأنطاكي المعروف باسم «أبي الرقعمق» وهو شاعر بلغ من المجون حداً سلكه في زمرة السفهاء لا الظرفاء».

ويذهب د. حمزة إلى أن مصر - «من أجل أنها تميل إلى القديم - لم يستمر فيها المذهب الفاطمي الجديد» ولكنه يرى للعصر الفاطمي، أثراً ملموساً في هذه النهضة الكبرى في الأدب؛ وفي حركة الفكر؛ فقد تصدى الكثيرون للرد على الفاطميين؛ مثل: إخوان الصفا، والمعتزلة؛ والإثناعشرية؛ فضلاً عن الفلاسفة

—١—

والشعر وغيرهم. ومن هذا القبيل ما دار من الرسائل بين أبى العلاء المعرى فى الشام، وداعى الدعاة بمصر؛ ومن استقرائه للطبيعة المصرية؛ يذهب د. حمزة؛ إلى أنها طبيعة «تحب القديم؛ وتؤثر فى الوقت نفسه السهولة والوضوح». ويرجح أن المصريين آثروا - بعد مجىء صلاح الدين - الرجوع للمذهب السنى لهاتين الصفتين فقط من صفات الشخصية المصرية. ويقول: «يخيل إلينا أنه لو لم يأت صلاح الدين لإعادة المصريين إلى مذهبهم الأول، لعادوا إليه من تلقاء أنفسهم، وإن استغرقت هذه العودة زمناً أطول بكثير من الزمن الذى قضاه صلاح الدين فى إرجاعهم إلى هذا المذهب».

إن بحوث أستاذنا د. عبداللطيف حمزة؛ فى أربعينات القرن العشرين؛ تعتبر بحق مثلاً رفيعاً للبحوث الأدبية؛ التى تعرضت لها المدرسة الأولى من مدارس البحث فى الأدب المصرى بجامعة «فؤاد» (جامعة القاهرة)؛ فهكذا - كما يقول - «بدأ تلاميذ هذه المدرسة بحوثهم فى هذه الناحية؛ وهكذا كان تفكيرهم فيها منذ اقتنعوا بوجوب النظر فى الأدب الإسلامى من هذه الزاوية».

وفى تقديمه للطبعة الثانية كتاب «الحركة الفكرية فى مصر»
 يقرن د. جابر عصفور بين دعوة الطليعة لمفهوم الأدب القومى؛
 والتي تظهر بوضوح فى كتابات د. محمد حسين هيكل - وبين
 إنشاء كرسى جديد فى قسم اللغة العربية للأدب المصرى فى
 العهد الإسلامى بالجامعة المصرية، وأصبح أحمد أمين أول أستاذ
 يشغل هذا الكرسى؛ إلى أن شغله أمين الخولى سنة ١٩٤٣، وتولى
 تدريس الأدب المصرى الذى أصدر كتابه عنه فى السنة نفسها.
 ويذهب د. جابر عصفور إلى أن صدور كتاب د. عبداللطيف عن
 الحركة الفكرية فى مصر؛ كان حلقة من «حلقات سلسلة
 متكاملة، متصلة، متصاعدة، فى عملية تأصيل «مفهوم الأدب
 القومى».

أما كتابه التالى الذى يصدر فى طبعته الثانية اليوم عن «الهيئة
 المصرية العامة للكتاب»؛ فيتناول فيه الأدب المصرى؛ ليتم عمله
 فى كتاب «الحركة الفكرية»؛ يدفعه نفس الدافع لتأصيل مفهوم
 الشخصية المصرية من خلال النصوص الأدبية؛ على نحو يجعله
 أقرب إلى فكرة «التنوع» فى «الوحدة»؛ والتي صدر عنها فى
 دراساته الأخرى: الأدبية والصحفية.

— ٢ —

وهى الدراسات التى تعلمنا منها - وما نزال - كيف نستكمل
اكتشاف وطننا المصرى، روحياً، من خلال الدلالات الروحية
والنفسية فى النصوص الأدبية؛ رحم الله أستاذنا د. عبداللطيف
حمز، وبارك الله فى كريمته الأدبية د. جيلان حمزة؛ التى عنيت
بجمع تراثه الأصيل؛ وتقديمه مجدداً للقارئ الكريم فى كل
مكان.

بسم الرحمن الرحيم

المقدمة

ليس خيرا للشباب العربي من أن يعرف تاريخ الوطن العربي معرفة جيدة . وليس خيرا لهذا الشباب من أن يتعرف إلى كل جزء من أجزاء هذا الوطن على حدة ؛ فيعلم شيئا عن تاريخ مصر ، وشيئا عن تاريخ سوريا ، وشيئا عن تاريخ العراق . ثم يضم أشقات هذه المعلومات لتتألف له من ذلك فكرة صحيحة عن الوطن العربي كله .

من أجل ذلك سررت حين سئلت أن أضع كتابا في تاريخ الأدب المصري منذ قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية . وهى مدة طويلة تقرب من ستة قرون ونصف قرن . تعرضت مصر فى أثنائها لخطوب جسيمة ، وتقلبات عظيمة ، وذلك فى كل من الميدان السياسى ، والميدان الاجتماعى ، والميدان الأدبى الفكرى فى نهاية الأمر .

وليس شك فى أن الميدان الأخير من هذه الميادين هو المقصود بهذا المؤلف الذى بين يديك . ولهذا جعلته ثلاثة كتب على النحو الذى يلى :

أولها كتاب فى الحياة السياسية والعلمية والروحية لمصر فى تلك الفترة . وضحت فيه عوامل القوة والضعف فى الدول التى تعاقبت على مصر . وتحدثت فيه عن دواعى النهضة والركود العلمى والأدبى فى تلك

العصور ، مشيرا مع هذا كله إلى البيئات والمراكز العلمية المختلفة : مثل (الجامع) و (دار الحكمة) في العهد الفاطمي ، ومثل (المدرسة) و (الخانقاه) في العهدين الأيوبي والمملوكي . أما (الأزهر) فهو المؤسسة الفاطمية الكبرى التي تولت بنفسها صيانة العلم الإسلامي في العصور الثلاثة التي أرخنا لها بوجه عام ، والعصر العثماني منها بوجه خاص .

وثانها كتاب في فن الشعر ، أوضحت فيه أولا كيف كان من ولاة العصر الأيوبي وحكامه علماء وشعراء . وفي هذا ما فيه من تشجيع للحركة الأدبية والعلمية . ثم وصفت حركة الشعر في عهد صلاح الدين وخلفائه من بعده ، وذلك في أثناء الحروب الصليبية . ثم انتقلت من ذلك إلى الكلام عن الشعر الصوفي بعد الفراغ من الشعر السياسي . وأخيرا تعرضت لأساليب الشعر المصري ذاته ، وفرقت في ذلك بين مذهبين من مذاهبه ، وهما مذهب البديع ويمثله القاضي الفاضل خير تمثيل ، ومذهب المعاني ويمثله البهاء زهير خير تمثيل . ولكل من هذين المذهبين تلاميذ وأتباع في كل عصر من العصور الثلاثة التي أرخنا لها ، أشدنا بهم ، ونقدنا شعرهم ، وكونا لأنفسنا رأيا في تتابعهم الشعري . ثالثها كتاب في فن الكتابة ، وهي أنواع : أولها الكتابة الديوانية ، وفيها كان البديع هو الغالب على جميع الرسائل . وجاء القاضي الفاضل فخرت على يديه الكتابة الديوانية في هذا البديع إلى أذنيها ، وتبعه جميع الكتاب الديوانيين في هذه الطريقة . ثم الكتابة الهزلية وهي الكتابة التي اصطنع فيها الكتاب شيئا من اللغة العامية ، كما اتضح لنا

ذلك فى كتاب (الفاشوس فى حكم قراقوش) فى العصر الأيوبى ،
وكتاب (هز القحوف) فى العصر العثمانى . ثم الكتابة التاريخية وفيها
تتبعنا حركة المؤرخين الذين ظهروا فى تلك العصور ، ووصفنا جهودهم
ووازننا بينها ما وسعنا الموازنة . وأخيرا كتبنا فصلا مستقلا عن
الأدب الشعبى فى مصر معتمدين فى ذلك على قصص ألف ليلة وليلة
وقصص الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس .

(وبعد) ، فأحب أن أنبه القارىء هنا إلى ثلاثة أمور :

أولها : أننى عنيت بالكتابة عن الأدب المصرى على أساس من
دراسة الشخصية المصرية ، وتتبع آثارها فى تلك العصور حتى تم نضوجها
وتبلورت فى عصر المماليك . كما أومأت إلى آثار هذه الشخصية المصرية
فى المجال السياسى ، والمجال العلمى ، وفى المجالات الأدبية على اختلافها ،
وفى التصوف ، وفى الأدب الشعبى آخر الأمر .

ثانيها : أتى حرصت فى أثناء ذلك كل الحرص على أن أحتفظ
لكل عصر من العصور الثلاثة التى أرخت لها بالطابع الذى يميزه .
والأساليب الشائعة فيه ، والأخبار الدالة عليه . خذ لذلك مثلين هما :
أولهما — الفصول التى تتعلق فى هذا الكتاب بالحروب الصليبية . وفيها
وصف للصليبيين بأنهم كفار ملعونون . وثانيهما — العبارات التى
وصف بها المصريون غيرهم من الشعوب .

فى المثل الأول وصف قد يؤذى نفوس المسيحيين ؛ كما تتأذى
نفوس المسلمين بما يقرءونه عن أسلافهم فى كتب الصليبيين . وفى المثل

— ٨ —

الثاني وصف للمغاربة بأوصاف لا يرضى عنها أحد في العصر الحديث .
ونحن نعرف عن هؤلاء المغاربة أنهم كانوا محل تقدير كبير يوم كانت
الخلافة الفاطمية هي صاحبة السلطان والنفوذ . فلما جاءت السلطنة
الأيوبية تنير الحال عن ذلك .

في هذه الحالات وأمثالها ليس بد للقارىء من أن يحمل هذه
العبارات على ظروف زمانها ، ويفهم مرماها في الأجواء التي
أحاطت بها .

ثالثها : أننى أوجزت القول إيجازاً في وصف الحياة العلمية نظراً
إلى أنه سبق لى أن وضعت كتاباً بعنوان « الحركة الفكرية في مصر
في العصرين ، الأيوبي والمملوكي » . وهو كتاب كبير يقع في نحو أربعائة
صفحة ، ومن أجل ذلك عنيت عناية خاصة في الكتاب الذى بين يديك
بالعصر العثماني من الناحية العلمية عناية تعوض بعض النقص في الكتاب
الذى أشرت إليه ،

والله نسأل أن يحقق لنا كل ما نتمناه للوطن العربي كله من عز
ورفعة ومجد ورفاهية . والله تعالى ولى التوفيق .

عبد اللطيف حمزة

الكتاب الأول

في الحياة السياسية والعلمية والروحية
في مصر

من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية

الفصل الأول

الشخصية السياسية

تمهيد

كانت مصر في القرنين الأول والثاني للهجرة باهتة اللون غامضة الشخصية . وليس في هذا شيء من الغرابة . فقد كانت هذه البلاد العريقة في الحضارة ، القديمة في الديانة حديثة عهد بالإسلام ، تابعة تبعية مباشرة للخلافة : كانت تابعة لعمر بن الخطاب في المدينة ، ثم لبني أمية في دمشق ثم لبني العباس في بغداد . وكانت بغداد هذه تستمد قوتها من الخلفاء العباسيين الذين لم يألوا جهدا في تشجيع العلم والحضارة . حتى خلقوا منها مركزا له مكانة ممتازة في جميع العالم الإسلامي . وطغى هذا المركز على كافة المراكز الإسلامية المعروفة . ثم جاء دور هذه المراكز المعروفة التي أعقبت بغداد في الظهور . وكان من أهمها مصر وقرطبة . نعم ، أتى على كل منهما دور التفوق في العلم والحضارة ، إلا أنه قبل مجيء هذا الدور كان من العسير على الباحثين في الواقع أن يكشفوا عن الشخصية الإقليمية لمصر أو الأندلس ، كل على حدة .

غير أنه منذ منتصف القرن الثالث الهجري تقريبا استطاعت دول جديدة أن تحكم مصر حكما مستقلا عن الخلافة . وتعاقت هذه الدول

على الحكم وأتاحت لمصر فرصة لإظهار شخصيتها . فظهرت الدولة الطولونية ، فالأخشيديّة ثم الخلافة الفاطمية . فالسلطنة الأيوبية ، فدولة المماليك البحرية ، فدولة المماليك البرجية ، وهذه الأخيرة هي التي غلب عليها الأتراك العثمانيون . وهؤلاء هم الذين أضاعوا استقلال البلاد المصرية ، وجعلوها تابعة تبعية مباشرة للدولة العثمانية . فإذا كانت الدولة الطولونية قد حكمت مصر منذ سنة ٢٥٤ للهجرة ، وكان الفتح العثماني قد وقع في عام ٩٢٣ للهجرة ، فعنى ذلك أن مصر تمتعت باستقلالها نحواً من سبعة قرون . وهي مسافة زمنية كبيرة ، أتاحت لمصر فرصة كافية لتلعب دوراً هاماً على مسرح الحياة الإسلامية الجديدة ، وأثبتت للعالم الإسلامي أنها ذات شخصية عظيمة لا تقل في عظمتها عن شخصية مصر في عهد الفراعنة ، بشرط أن يحسب التاريخ حساباً كبيراً لهذا الدين الجديد ، وهو الإسلام ، كما يحسب التاريخ حساباً لهذا العنصر الجديد الذي امتزج بالمصريين ، وهو العرب .

أما الإسلام فقد جاء يدعو إلى (أخوة إسلامية) لا تعرف التفرقة بين الأقطار التي انضوت تحت رايتها . ومن ثم كان من العبث أن نحاول فهم التاريخ الوسيط لمصر وغيرها من الأقطار الإسلامية على ضوء الوطنية أو الإقليمية ، أو القومية العربية . إذ من الخير لنا وللتاريخ أن ننظر إلى المصريين وغيرهم من الشعوب الإسلامية نظرة تتفق وهذه الأخوة التي دعا إليها هذا الدين ، وجعلها أساساً روحياً وسياسياً للعالم الإسلامي من أوله إلى آخره .

ولكن ما الأثر الذى تركه هذا الروح الإسلامى الجديد فى الحكم
المصرى والعقل المصرى ؟

أما أثره فى الحكم المصرى فواضح من أن مصر كانت لاتعترض على
الحاكم الأجنبى متى كان هذا الحاكم يعتنق الديانة الإسلامية . ومن أجل
هذا لم يجد المصريون غضاظة على أنفسهم فى قبول الطولونيين ، فالأخشيديين
فالفاطميين فالأكراد من بنى أيوب ، ثم المماليك .

وأما أثره فى العقل المصرى فواضح من أن مصر بحكم مركزها
من العالم الإسلامى أولا ، وبحكم مركزها الجغرافى ثانيا أصبحت محطاً
للكثيرين من علماء المسلمين على اختلاف أقطارهم ، بحيث كانت الرحلة
إلى مصر فى طلب المال أو العلم أكثر من الرحلة إلى غيرها من البلاد
الإسلامية الأخرى لمثل هذه الأغراض .

من أجل ذلك نستعرض تراجم الرجال فى العصور الوسطى فنرى
فلانا المصرى المقدسى ، وفلانا المغربى الإسكندرى ، وفلانا الشامى
المصرى وهكذا ، وقل أن نعث فى هذه التراجم على رجل يكتفى
بوصف أنه مغربى ، أو عراقى أو شامى ، أو مصرى ، أو مقدسى
أو حجازى .

لا شك إذن أنه كان لهذه الأخوة الإسلامية التى يمكن تسميتها
« بالقومية الإسلامية » كما كان للموقع الجغرافى الذى امتازت به البلاد
المصرية أثر لا سبيل إلى إنكاره فى العقل وفى الذوق معاً . من أجل
ذلك نجد أن مصر قد لعبت فى الإسلام نفس الدور الذى كانت تلعبه
فى عهود اليونان والرومان ، مع فارق واحد لا مناص من ذكره ؛ وهو

أن مصر في العهدين اليوناني والروماني لم تكن مستقلة ، وأنها كانت في
العهود الإسلامية التي أشرنا إليها دولة ذات سيادة وزعامة صحيحة
على العالم الإسلامي كله . وإن كانت قد دفعت الثمن غالياً للحصول على هذه
الزعامة الأخيرة . وذلك بما ضحت في محاربة الصليبيين ، وبما صدت
من هجمات المغول المعتدين ، وبما قامت به من إحياء الخلافة العباسية
بالقاهرة . وإن كان الخليفة إذ ذاك شخصاً ليس له من الخلافة
غير الاسم .

هكذا كان فيضان الشخصية المصرية على ما جاورها من الأقاليم
الإسلامية . فصر كلها أحست شيئاً من القوة الفعلية ، اتجهت بأنظارها
إلى ما جاورها من الأقطار الإسلامية فبسطت عليها شيئاً من النفوذ
السياسي أو الروحي أو الثقافي . وقد كان ذلك يتم في العصور الوسطى
بطريق القهر أو العنف ، ولكن ذلك أصبح يتم في العصور الحديثة
بطريقة أخرى ؛ هي طريقة الوحدة أو الألفة . والنتيجة واحدة في
الحالتين ؛ وهي أن مصر كانت لا تشعر بكيانها ، ولا تثق بوجودها ،
ولا تستكمل مقوماتها ، إلا إذا انضمت إليها هذه الأقطار العربية
المجاورة . بل إن هذه الأقطار المجاورة كانت هي الأخرى تستشعر القوة
الحقيقية والوجود الحقيقي بانضمامها لاختها الكبرى مصر . وبذلك
تأمين هذه الأقطار المجاورة جميع الأخطار التي تتعرض لها من العدو
الأجنبي . ومصر في أثناء ذلك كله تدرك بأن عليها واجباً لا يمكنها أن
تتخلى عنه بحال ما . وهذا الواجب هو حماية العالم الإسلامي من
الأخطار التي تهدده . وهذا الواجب أيضاً هو المشاركة القوية في بناء

الحضارة الإسلامية بجميع مقوماتها من علم وفن ، وأدب ودين وخلق .
وهذا الواجب مرة ثالثة هو القيام بدور « الوسيط الثقافى » بين
العصور المختلفة : والشعوب المختلفة . وهل لقطر آخر ما لهذا القطر
المصرى من موقع جغرافى يساعده على القيام بهذه الوساطة ؟ ولكن :

بم قويت مصر الأيوبية ومصر المملوكية ؟

استقامت لمصر فى الفترة التى تؤرخ شخصية سياسية فى منتهى القوة :
وكانت لذلك أسباب كثيرة أشرنا إلى بعضها . ولا بأس من تلخيصها
فيما يلى :

أولاً — قيام دولة فتيية هى الدولة الأيوبية قضت على الخلافة
الفاطمية التى بلغت من الضعف حداً أصبحت به عاجزة عن القيام بهذه
المهمة الدينية السياسية الخطيرة — وهى طرد الصليبيين ، وإعادة
الإمارات الصليبية إلى الراية الإسلامية .

ثانياً : — ضعف الخلافة العباسية فى بغداد ، وتعرض الحضارة
الإسلامية بسبب ذلك للضياع .

ثالثاً : — نجاح الدولة الأيوبية فى زحزحة الصليبيين ، وإجبارهم
على ترك الدول اللاتينية الصغيرة التى سبق لهم أن أقاموها فى الشرق ،
وكانت بمثابة رقعة سوداء فى ثوب ناصع البياض كان لابد للشرق العربى
من أن يتخلص منها .

رابعاً : — نجاح المماليك في صد تيار المغول الذين قوضوا بغداد ، وعرضوا الحضارة الإسلامية كلها — كما قلنا — للضياع . كل ذلك فضلاً عن كون المماليك وفقوا توفيقاً عظيماً في مكافحة الصليبيين ، وطردها البقية الباقية منهم نهائياً من الساحل .

خامساً : — محاولة المماليك إحياء الخلافة العباسية في القاهرة وجلبهم الخلفاء العباسيين إليها للإقامة بها . وبذلك اكتسب السلاطين المماليك صفة شرعية كبيرة خلقت لهم منزلة لا يصبو إليها غيرهم من ملوك الإسلام في ذلك الزمان . كما خلقت لمدينة القاهرة صورة في أذهان الناس أزرت — أو كادت تزرى — يومئذ بصورة بغداد وبغيرها من العواصم الإسلامية الأخرى .

تأثر الأدب المصرى بكل سبب من هذه الأسباب . فسقوط دولة وقيام أخرى ، ونجاح المسلمين في حروبهم ضد الصليبيين ، وضد المغول وإنقاذ الحضارة الإسلامية من هذا الخطر العظيم ، وإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بعد أن كادت تزول من الوجود بفعل أولئك المغول . كل هذه الأمور كانت أحداثاً جساماً في تاريخ العرب والإسلام وتاريخ مصر بوجه خاص ، بل كانت أعظم الأحداث على الإطلاق في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصور الوسطى . فكان من الطبيعي أن يترك كل واحد منها ظله واضحاً في الأدب الإسلامى عامة ، والأدب المصرى بنوع أنخص .

لم ضعفت مصر العثمانية ؟

بقى المجد السياسى والمجد الأدبى لمصر على هذا النحو طوال الدولتين
يومية والمملوكية ، حتى آن لشمس هذا المجد أن تغرب ، ولئارها
تخمد . وذلك على أيدي الأتراك العثمانيين الذين ملكوا الديار المصرية
عام ٩٢٣ هجرية ، والعثمانيون جيل من الأجيال التركية المتشعبة
الجنس المغولى . ومعنى ذلك أن هذه النكبة التى نجت منها البلاد
سلامية على أيدي المماليك ، عادت فأصابت هذه البلاد الإسلامية من
يد بوقوعها فريسة لشعبة من تلك الأجناس المغولية ، وهم العثمانيون
بن غلبوا المماليك ، وبدءوا بذلك عهداً من عهود الظلام دام فى هذه
د الإسلامية نحو ثلاثة قرون ، لم تستيقظ منه مصر إلا على أصوات
ة الفرنسية ؛ وهى الحملة التى شنها القائد الفرنسى بوناپرت على مصر ،
ئت بها صفحة جديدة من صفحات هذا الشرق .

لكن ما الأسباب التى أفضت بمصر إلى هذا الضعف باستثناء
ب الرئيسى منها ، وهو ضياع استقلالها وزوال سيادتها على يد
ك ؟

هنا يحدثنا التاريخ عن أمور كثيرة اصطلحت كلها على إصابة مصر
الضعف الذى ترك أسوأ الأثر فى بقاء شخصيتها على ما كانت عليه
القوة والفيض .

بدأ الحكم العثمانى فى عام ٩٢٣ هـ ، واستمر إلى عام ١٢١٣ هـ .

أى أنه دام ثلاثة قرون تقريباً خضعت مصر فيها لنظام بديد من نظم الحكم وضعه السلطان سليم الأول . وكان هذا النظام يتألف من سلطات ثلاث وهى :

(سلطة الوالى) ويقوم على تنفيذ أوامر السلطان العثمانى كما رسمها له .

(وسلطة الجيش) وقد تركه السلطان لحماية البلاد وبقائها تحت سيطرة الدولة العثمانية فى كل وقت .

(وسلطة المالىك) وقد نصبهم السلطان حكماً على المديرىات أو « السناجق » وأطلق عليهم اسم « البيكوات » .

غير أن الفتن والمشاحنات ظلت قائمة بين هذه السلطات الثلاث . وكان ذلك أول سبب من أسباب الانهيار الذى أصاب الشخصية السياسية لمصر إذ ذاك .

وأما ثانى الأسباب المؤدية إلى هذا الانهيار ، فهو بقاء المالىك أنفسهم بمعزل عن الشعب المصرى ، ومغالاتهم فى ابتزاز الأموال الطائلة من جيوب الفلاحين المساكين الذين ظلوا يعانون كثيراً من ثقل الضرائب المشروعة حيناً ، وغير المشروعة حيناً ، حتى أفلسوا ودخل عليهم الفقر والعوز من أبواب متفرقة ، وأصبحوا فى حالة سيئة .

أجل ، كان من المالىك قوم أسخياء يمنحون الفلاحين وغيرهم من

أفراد الشعب الجائع شيئاً من الرعاية . ولكن هذه الحال لم تزد الممالك أنفسهم إلا شعوراً بأنهم السادة . كما لم تزد المصريين أنفسهم إلا شعوراً بأنهم « العبيد » . وتلك حالة نفسية لا تورث الشعب إلا ضعفاً في الشخصية ، وتقوراً من الاشتراك في بناء الوطن المصرى بنصيب ما — قل أو كثير .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد . بل وجدنا أن أول عمل بدأ به السلطان (سليم الأول) حكمه إذ ذاك أنه جمع أمهر الصناع في ربوع مصر — وكان عددهم يربى على الآلاف — وبعث بهم جميعاً إلى تركيا لينهضوا هناك بشتى الصناعات التى حرم منها المصريين بالقوة .

على أن الكساد الصناعى سار معه جنباً إلى جنب كساد آخر فى شؤون الزراعة والتجارة . وزاد الطين بلة وقوع الأوبئة والمجاعات التى توالى على مصر سنين عديدة . نخص بالذكر منها سنوات ١٦٠٣ ، ١٦١٩ ، ١٦٢١ ، ١٦٢٥ ، ١٦٤٥ للميلاد . وفى الوباء الأخير بنوع خاص خربت من القرى المصرية أكثر من مائتى قرية بادت كلها عن آخرها ، وزالت زوالاً من رقعة مصر كأن لم تكن بالأمس !

ومع هذا وذاك فقد كانت تلك الكوارث الشداد بما يمكن احتمالها بشكل من الأشكال لولا أن مصر منيت فى ذلك العصر بكارثة الكوارث ومصيبة المصائب ، ونعنى بها تحويل التجارة الهندية من مصر والشام والبحر الأبيض المتوسط إلى طريق المحيط الأطلنطى وجنوب أفريقيا . حدث ذلك على أيدي البرتغال أواخر العهد المملوكى الثانى — أعنى

في أيام السلطان الغورى — ولكن آثاره السيئة ظهرت بجلاء تحت الحكم العثماني الذي شاءت المقادير أن يكون مقرونا بكل هذه المحن التي أشرنا إليها .

كل ذلك والجنود الذين تتألف منهم الحامية التركية يشغبون على الوالي مرة ، وعلى المماليك الذين عينهم السلطان حكاماً على السناجق مرة أخرى .

وبقي هؤلاء الجند يشتغلون بجميع السلطة في أيديهم حتى جعلوا من الولاية ألعبوبة لهم . وصارت كل طائفة من الجند تستولي على جملة من التجار أو المزارعين أو الفلاحين ، وغيرهم من طبقات العمال فيقتسمون معهم الأرباح . وفي نظير ذلك يحمونهم من أداء الحقوق التي عليهم للحكومة !

على هذا النحو بقيت مصر ككرة تتلقفها السلطات الثلاث يضرب بعضها بعضاً ، ويأتمر بعضها ببعض .

فمرة تشتبك الحامية بالمماليك ، ويفيد من ذلك الوالي . وأخرى تشغب الحامية على الوالي ، وينتفع بذلك المماليك وهكذا . أما الشعب نفسه فهو هذه الكرة التي تتقاذفها السلطات الثلاث ! !

وبقي الأمر على هذا النحو حتى قوى شأن مملوك كبير من المماليك المصريين . هو « على بك الكبير » . وكان قد سعى بذكائه وجرأته حتى أصبح يلقب « بشيخ البلد » وهو اسم لزعيم المماليك وحاكم القاهرة في وقت معا .

واستطاع على بك الكبير أن يثير في نفوس المماليك شعورا بالنخوة المصرية ، وأن يذكرهم بمجد المماليك البحرية والمماليك البرجية . وهذه الطريقة نقرهم من الباب العالي ومن الأتراك . فاجتمع رأيهم على خلع الباشا أو الوالى ، وطرده من مصر ، وإعلان استقلال البلاد عن الدولة العثمانية .

كان ذلك سنة ١١٨٣ هـ - ١٧٦٩ م والدولة العثمانية يومئذ فى حرب ضد روسيا . فانتهاز على بك الكبير هذه الفرصة أيضا وفتح بلاد الحجاز والشام وضمهما إلى مصر .

غير أن هذا الانتعاش البسيط على يد هذا المملوك لم يدم إلا ريثما استقرت الأمور فى اثنين آخرين من المماليك هما « مراد بك » و « ابراهيم بك » . وكانا قد اتفقا على أن يقتسما بينهما شياخة البلد . ثم عادا إلى خلافهما القديم وهو الخلاف الذى لفت إليهما أنظار الأوروبيين ، ومن أجله أتى القائد الفرنسى (بوناپرت) فى حملته المشهورة على مصر .



الفصل الثاني

الشخصية العلمية

دخل الفاطميون مصر ومعهم دعوة جديدة حرصوا على نشرها في البلاد المصرية ، وهي الدعوة الفاطمية التي أطلقوا عليها اسم « الدعوة الهادية » و « دعوة الحق » .

وكان من مراكز هذه الدعوة إذ ذاك قصر الخلافة من جهة ، والجوامع الكبرى التي من أهمها « الجامع الأزهر » من جهة ثانية . وكان للفاطميين - فضلا - عن كل ذلك عناية كبيرة (بالمكتبات) يلحقونها بقصر الخلافة نفسه ، ويلحقون بهذه المكتبات بجامع علمية كالجميع الذي أنشأه الوزير يعقوب ابن كلس ، وجعل نفقته ألف دينار في كل شهر .

وأخيرا سمعنا « بدار العلم » أو « دار الحكمة » ، وهي الدار التي أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ الهجرية . فأزريت هذه الدار بشهرة المراكز العلمية التي سبق ذكرها ، وغدلت شهرتها حتى شرف تلك المراكز ، ووصل الخليفة بها مكتبة ذات ردهة كبيرة للمدالعة . وكان بالمكتبة حجرة كبيرة للاجتماعات والمباحثات . وقد ترك أمر هذه الدار وملكقاتها لرعاية رجل من أكبر رجالات الدولة - هو داعي الدعاة -

الذى كان عليه أن يلقي دروسه في دار الحكمة يومى الإثنين والخميس من كل أسبوع ، ويأتى لسماعه العلماء والدعاة . وكان للنساء في هذه الحلقات العلمية مكان خاص بهن .

ويبدو أن الأغراض التى أنشئت من أجلها دار الحكمة ثلاثة ، جملتها :

الأول : استيعاب الكتب والمطالعات والمحاضرات .
والثاني : تشييف القضاة بعد أن يتموا دراستهم في الجامع الأزهر .
والثالث : تعليم الدعاة الذين كان عليهم أن يتلقوا دروس النحو المنطق والفلسفة والنجوم في الجامع الأزهر . ثم يغادرونه بعد ذلك دار الحكمة ليتعموا تعليمهم هناك .

• • •

وبينما كانت (دار الحكمة) ونهرها من المراكز العلمية الهامة ومبعمها في العهد الفاطمى على هذا النحو إذا بمؤسسة أخرى كانت ، نمت وترعرعت في الأوساط السنية في الشرق الإسلامى . وهذه مؤسسة الجديدة هى (المدرسة) .

والمدرسة بناء في وسطه صحن كبير مربع الشكل . وفي كل جانب الجوانب الأربعة لهذا الصحن إيوان مقبب . ويراعى في بناء المدرسة بما أن تكون على سمت القبلة . ولكل مدرسة محراب . ومن هنا تخرج المدرسة في الواقع عن كونها مسجدا أو جامعا .

بل أصبح من الصعب التفريق فيما بعد بين الجامع والمدرسة . ورسم مدرسة العام على شكل صليب . ولكنها تبدو من قريب أنها على

شكل مربع . وذلك لأن مساكن الأساتذة والطلبة تملأ فراغ المثلثات الأربعة التي يحدتها الشكل المساب .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى انتشرت المدارس المنسوبة إلى الوزير (نظام الملك) في كل من بغداد ونيسابور والموصل والبصرة .

ثم في القرن السادس الهجرى تحمس لبناء المدارس السلطان صلاح الدين الأيوبي ، بناها بدمشق وكان قد سبقه إلى بنائها نور الدين محمود بدمشق .

والمهم هنا أن إنشاء المدارس والإكثار منها كان جزءاً من الخطة التي وضعها صلاح الدين لإزالة الدولة الفاطمية ، وإثارة الشعور الديني ضد الأوربيين في الحروب الصليبية .

ومعنى ذلك أنه بينما كانت الجنود تقاتل الفرنج في الميدان إذا بالعلماء والفقهاء يهيشون النفوس ويغزون الأذهان ويفتحون البلاد المصرية فتحاً مذهبياً لإحلال المذهب السني محل المذهب الشيعي ، ولبث الروح الديني الذي كان لابد منه لدفع الخطر الصليبي :

وهكذا كان العمل الذي تقوم به المدرسة عملاً ذا شقين : أحدهما يتجه إلى داخل البلاد لإعادتها إلى المذهب السني الذي أراد القضاء عليه رجال الدولة الفاطمية . والآخر يتجه إلى ميدان القتال لتقوية الروح المعنوية التي لا بد منها للمسلمين في محنة الحروب الصليبية .

(البيئات العلمية في العصرين الأيوبي والمملوكي)

إن نظرة واحدة إلى تلك المدارس التي ظهرت بمصر منذ أواخر العصر الفاطمي ترينا أن هذه المدارس توزعت على بيئات ثلاث هي :
(بيئة الإسكندرية) ومن مدارسها مدرسة ابن السلار ، وابن السلار هذا وزير كردى سنى كان يعمل في خدمة الدولة الفاطمية . وقد نشأت مودة قوية بينه وبين نور الدين محمود صاحب دمشق ، وصاحب اليد الطولى في مقاومة الفرنج . أنشئت هذه المدرسة عام ٥٤٦ هـ . وكان يقوم على إدارتها إمام عظيم من أئمة المسلمين وعالم كبير من علماء الحديث ، هو الحافظ السلفي (بكسر السين وفتح اللام) وقد أدركه صلاح الدين وكان يسعى إليه لسماعه واغتنام فرصة حياته على حد تعبيره إذ ذاك .

بيئة القاهرة) ومن أشهر المدارس التي أنشأها صلاح الدين في تلك البيئة مدرسة للشافعية بجوار الجامع العتيق عرفت بأسماء شتى : منها المدرسة الناصرية (نسبة إلى الملك الناصر صلاح الدين) . ومنها مدرسة ابن زين التجار (نسبة إلى العالم الشافعي الذي طالت مدته بهذه المدرسة ، ومنها المدرسة الشريفة وهكذا .

كما بنى صلاح الدين بالقاهرة مدرسة للمالكية هي المدرسة القمحية (نسبة إلى القمح الذي كانت تحصل عليه من ضيعه تزرعه بجهة الفيوم وقفها صلاح الدين على هذه المدرسة التي عرفت كذلك بدار الغزل) .

وبعد موت الخليفة العاضد وزوال الدولة الفاطمية نشط صلاح الدين في بناء طائفة أخرى من المدارس ومنها : مدرسة للفقهاء الحنفية

هى المدرسة السيوفيه . ومدرسة بجوار الإمام الشافعى . وأخرى بجوار
المشهد الحسينى . وأحصى المؤرخون مجموعة المدارس التى بنيت بالقاهرة
وضواحيها فى العهد الأيوبى فإذا بها خمس وعشرون مدرسة كان من
أهمها جميعا :

المدرسة الكاملية :

وكانت تسمى دار الحديث . وهى المدرسة التى أنشأها السلطان
الملك الكامل محمد من أعظم سلاطين بنى أيوب وقد فرغ من إنشائها
عام ٦٦٢ هـ . وتعتبر الدار الثانية فى الترتيب بين الدور التى تخصصت
فى الشرق الإسلامى لدراسة الحديث . أما الدار الأولى فهى التى بناها
نور الدين محمود بدمشق . وقد كان من أشهر تلك المدارس أيضا :

المدرسة الصالحية :

بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٣٩ هـ . وكانت أشبه شىء
بجامعة كبرى ذات كليات أربع تختص كل واحدة منها بمذهب من
المذاهب الأربعة المعروفة . وهى الحنفى والمالكي والشافعى والحنبل .

ثم المدرسة الفاضلية :

نسبة إلى القاضى الفاضل . بناها عام ٥٨٠ هـ . ولهذه المدرسة شهرة
فى التاريخ . ومرجع ذلك إلى المكتبة العظيمة التى ألحقها القاضى الفاضل
بهذه المدرسة وجمع فيها من كتب العصر الفاطمى وحده مائة ألف مجلد !
(بيئة قوص) . وأما البيئة الثالثة فيما عدا بيئة الإسكندرية وبيئة
القاهرة فهى بيئة قوص . ومن أشهر مدن هذه البيئة (أسنا) و (إدفو)

و (قنا) . وقد أحصى بعض العلماء بمجموع المدارس التي أنشئت بهذا الإقليم فإذا بها ست عشرة مدرسة بذلت كلها جهودا مفضية في تخليص البلاد المصرية من المذهب الذي أنت به الدولة الفاطمية والعودة بالبلاد إلى المذهب السني الذي تحمست له الدولتان الأيوبية والمملوكية .

ومضى سلاطين المماليك في هذه السياسة التعليمية التي سبقهم إليها سلاطين بني أيوب . فنافس بعضهم بعضا في بناء المدارس ، ومن أشهرها يومئذ على سبيل المثال :

مدرسة الظاهر بيبرس :

أسسها عام ٦٦٠ هـ ، بحجة يقال لها (بين القصرين) بالقاهرة ، وزودها بمكتبة هائلة ، وجعلها تعنى بسائر العلوم ، ووقف عليها أوقافا عظيمة : ولما فرغ من بنائها سنة ٦٦٢ هـ دعا العلماء والفقهاء والقراء للاجتماع بها . فجلس أتباع المذهب الشافعي بالإيوان القبلي ، والحنفية بالإيوان البحري وأهل الحديث بالإيوان الشرقي ، والقراء بالإيوان الغربي . وعين لكل فريق منهم مدرسا خاصا . وعندما اكتمل جمعهم تناظروا في شتى المسائل ، ثم مدت لهم الأسبطة . وقام بعض الشعراء فأنشدوا شعرا أشادوا فيه بهذه المدرسة . ولما فرغوا من مجلسهم وهبهم السلطان الظاهر بيبرس كثيرا من المنح . وقد أسس الظاهر مدرسته هذه على نمط المدارس الأيوبية . ولم يكتف بيبرس بهذه المدرسة ، بل بنى بجوارها « مكتبا » يتعلم فيه الأيتام من أبناء المسلمين القراءة

والكتابة، ويحفظون فيه القرآن الكريم . وقرر لمن فيه الخبز كل يوم ،
والكساء في فصل الشتاء والصيف .

ولم تقف همة الظاهر بيبرس عند هذا الحد بل تعداه إلى العناية
بالجامع الأزهر نفسه ، فجدد في بنيانه ، ورده إلى الحال التي كان عليها
زمن الفاطميين ، وجعل منه مثابة للعلماء والفقهاء والمدرسين والباحثين .
وقصده الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي . وبذلك تمت للقاهرة
مكاتها العلمية والأدبية ، ونبغ كثيرون من الكتاب والأدباء والعلماء
ومن جملتهم محيي الدين بن عبد الظاهر صاحب كتاب « السيرة الظاهرية » ،
وابن خلكان صاحب كتاب « وفيات الأعيان » ، وابن واصل
صاحب « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » وغيرهم .

ثم أتت أسرة قلاوون بعد أسرة بيبرس فسارت على هذا النهج
وأكثر من بناء المدارس والجوامع والبيمارستانات وما إليها . فأنشأ
السلطان المنصور قلاوون في سنة ٦٨٨ هـ مدرسة وقبة ومارستانا في مكان
واحد ، هو المعروف في وقتنا هذا بمستشفى قلاوون . وقيل في سبب
بناء المارستان المذكور إن قلاوون لما ذهب لغزو الروم سنة ٦٧٥ هـ —
وذلك في عهد السلطان الظاهر بيبرس — أصابه وهو بدمشق مرض شديد
فعالجه الأطباء هناك بأدوية جلبوها له من مارستان الملك نور الدين
محمود ، فلما شفى قلاوون ذهب بنفسه لمشاهدة المارستان ، ونذر إن
هو اعتلى عرش مصر لينين مارستانا مثل مارستان نور الدين محمود !

وتوفي السلطان المنصور قلاوون وخلفه على عرش مصر ابنه
السلطان الملك الناصر محمد ، فجري على نسق أبيه في إنشاء المدارس .
وبني المدرسة الناصرية ومكانها الآن شارع النحاسين . وعين بها المدرسين

للبذاهب الأربعة . والحق بها مكتبة حافلة . وجدد الناصر بعد ذلك بناء
المارستان الكبير الذى بناه أبوه الملك المنصور قلاوون .

ثم أتت دولة المماليك البرجية فسارت على هذه السنة . وبنى كل
من السلطان برقوق والسلطان قايتباى والسلطان الغورى ، مدارس
ومساجد امتلأت بالأساتذة والمدرسين ، وزودت بالكتب الكثيرة من
شتى العلوم . وسارت النهضة العلمية فى طريقها حتى نهاية عصر المماليك .

الميول العلمية لسلطين الدولتين الأيوبية والمملوكية

لا بد من الإشارة بعد ذلك إلى بعض الميول العلمية لسلطين الدولتين
الأيوبيه والمملوكية ، ثم إلى الطريقة التى رعوها بها الحركة العلمية . وإن كنا
لا نستطيع الإفاضة فى هذا الموضوع خوف الإطالة . ولذا سنكتفى
بأمثلة من هذا التشجيع توضح فى الوقت نفسه بعض هذه الميول .

ولنبداً بالعصر الأيوبى وهنا لا نصادف ملكاً من ملوك هذه الدولة
الأيوبية أو أميراً من أمرائها قليل العناية بالعلم والاحتفاء بالأدب .
بل أو شك أن يكون كل واحد من هؤلاء إما شاعراً ، وإما فقيهاً ،
أو محدثاً ، أو نحويًا ، أو رجلاً ذا تصانيف علمية أدبية . لا نكاد
نستثنى من ملوك الأيوبية غير الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى
وصفه المؤرخون بأنه كان ذا طبيعة عسكرية لم تساعد كثيراً على أن
يكون ذا ميل إلى العلم أو الأدب . ومع هذا وذاك فإن هذا الرجل
لم تمنعه طبيعته هذه من بناء المدارس ، والإكثار من أماكن العلم
على النحو الذى سبقت الإشارة إليه .

أما السلطان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية ، والذي أفنى حياته في محاربة الصليبيين فلم تمنعه هذه الشواغل الكثيرة عن العناية بعلوم الدين . والسعى لتحصيلها بنفسه . فكان يذهب لسماع الدروس الدينية من الأئمة المشهورين كالحافظ السلفي والشيخ أبي طاهر ابن عوف . ولقد سمع صلاح الدين على هذا الأخير كتاب الموطأ لابن مالك . كما قرأ عليه الشيخ تاج الدين المسعودي دروساً كثيرة في الحديث وهكذا .

وأما الملك العادل أبو بكر أيوب أخو السلطان صلاح الدين فكان شديد الحب للعلماء والاهتمام بهم ، حتى قيل إن الإمام نجر الدين الرازي صنف له كتاباً سماه (تأسيس التقديس) كان الملك العادل كثير النظر فيه والرجوع إليه .

أما الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب فما حكي عنه أنه كان يعظم أهل السنة ، ويسعى إلى الاجتماع بالعلماء . وكانت عنده مسائل غريبة من فقه ونحو يختبرهم بها . فمن أجاب قدم وحظي عنده بالمنزلة الكبرى . وكانت تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم ينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريرهم ليسامروه ويحدثوه في العلم والأدب .

وكان الملك عيسى من أولاد الكامل محمد ملكاً على الشام . وكان مع شغله بالملك نحويًا كبيراً ولغويًا عظيمًا وفقيرًا مشهوراً . وانفرد بالمذهب الحنفي من دون . ملوك الأيوبية الذين يميلون إلى المذهب الشافعي فقرب إليه علماء المذهب الحنفي وشجعهم على التأليف فيه .

وأما سلاطين الماليك فهم تلاميذ بنى أيوب في تحميمهم للدين وتشجيعهم العلوم . كما كانوا تلاميذهم في السياسة والحروب مع فارق واسع فقط لا مناص من ذكره والتنبيه إليه . وخلاصة هذا الفرق أن ملوك بنى أيوب كان أكثرهم يشاركون مشاركة فعلية في الأدب والعلم ويشتغلون فيها كتباً كثيرة ؛ على حين أن سلاطين الماليك اكتفوا بتشجيع العلم وبالإغداق على أهله من المال والعطاء ما يضمن لهم البقاء .

الحياة العلمية في العصر العثماني

غير أنه بزوال العصر المملوكى بدولتيه البحرية والبرجية وبجيء الدولة العثمانية تغير وجه الحياة المصرية وتعطل سير العمل بهذه السنة الحثيدة وهى بناء المدرسة . وأصبح العلم محصوراً فى مكان واحد فقط على وجه التقريب وهو :

الآزهر :

ونحن نعلم أن الذى بنى هذا المسجد أو الجامعة هو جوهر الصقلي بعد عام واحد من الفتح الفاطمى . وفتح هذا الجامع للصلاة عام ٣٦١ للهجرة . ثم زاد كثير من الخلفاء الفاطميين فى بناء الأزهر شيئاً فشيئاً حتى جاء عهد العزيز بالله الفاطمى فجعل منه معهداً علمياً ضخماً . ثم جاء عهد الحاكم بأمر الله « ٣٨٦ — ٤٦١ هـ » فزاد أيضاً فى بناء هذا المسجد ، وحبس عليه أوقافاً كثيرة أخرى .

وزالت الدولة الفاطمية وتلتها الدولة الأيوبية . وكانت تخالفها في المذهب كما قلنا فلم يلق الأزهر من عناية الدولة الأيوبية ما لقيه من عناية الدولة الفاطمية . وانقضى نحو قرن من الزمان قبل أن يستعيد الجامع الأزهر عطف الولاة والحكام .

ثم جاء عهد الملك الظاهر بيبرس من سلاطين المماليك فزاد في بناء الأزهر ، وشجع التعليم به ، وأعاد الخطبة فيه . وحذا حذوه كثير من أمراء المماليك .

ثم فوجيء الشرق الإسلامي كله بغزوات المغول . وأصاب الإسلام من هذا الخطر شيء عظيم . وتعرضت الحضارة الإسلامية نفسها للزوال من هذا الوجود . فزاد عطف المماليك على الجامع الأزهر . واستطاعت هذه الجامعة الإسلامية الكبيرة إذ ذاك أن تحتفظ بالتراث الإسلامي بكل عناصره بعيداً عن خطر المغول . وأعاتتها أحوال مصر السياسية والمالية والجغرافية على تأدية هذه المهمة .

وسقطت منارة الأزهر في عهد السلطان برقوق فأقامها من ماله الخاص . . وأنشأ للجامع صهريجاً للمياه ، وأقام له مiazza .

ثم كان السلطان قايتباي أكثر الناس بعد ذلك رعاية للجامع الأزهر وأتى بعده قانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك فشيّد فيه المئذنة ذات البرجين . .

ثم في العهد العثماني جاء السلطان سليم الأول لزيارة الأزهر وللصلاة فيه ، وتصدق على فقراء المجاورين . وسار سلاطين آل عثمان هذه

السيرة . ولقى الجامع الأزهر منهم قدراً لا بأس به من الرعاية . ومن ذلك أنه أقيمت به زاوية خاصة بالمكفوفين سميت « زاوية العميان » بناها (عثمان كتنخدا) عام ١١٤٨ هـ .

ثم جاء عبد الرحمن كتنخدا بعد ذلك فكان من أكثر الناس إحساناً إلى الأزهر . بنى به مقصورة ومنبراً للخطابة . وأنشأ به مدرسة لتعليم الأيتام مبادئ القراءة والكتابة . وعمل به صهريجاً للمياه ، وشيده قبرا دفن فيه في النهاية .

مشيخة الأزهر :

ولم يكن للأزهر رئيس علمي إلا في عهد الدولة العثمانية . أى أن الولاة العثمانيين هم الذين خلّوا هذه الوظيفة المهمة ، وهى وظيفة « شيخ الأزهر » . وبها يعتبر رئيساً لشيوخ الأقسام الكثيرة التى تنقسم إليها هذه الجامعة .

وقد حفظ لنا الجبرقى فى تاريخه ثبثاً بأسماء شيوخ الأزهر لأكثر من قرنين من الزمان ، ابتداء من عام ١١٠٠ للهجرة . وأظهر لنا أن رعاية الوالى التركى كان لها أكبر الأثر دائماً فى انتخاب شيوخ الأزهر . وهم على التتالى : —

— محمد بن عبد الله الخرشى المالكى المتوفى سنة ١١٠١ هـ

— محمد النشرقى المالكى — المتوفى ١١٢٠ هـ

— احمد النفراوى (لا نعلم سنة وفاته)

— ٣٤ —

— عبد الباقي القليني .

وقد اختلف الشيخان الأخيران، اختلافا وقع بسببه شجار ع
بين الطلبة سقط فيه بعضهم جرحى وقتلوا .

— محمد شتن، المالكي المتوفى سنة ١١٣٣ هـ .

— ابراهيم بن موسى الفيومي المالكي المتوفى سنة ١١٣٧ هـ .

— عبد الله الشبراوي الشافعي المتوفى سنة ١١٧١ هـ .

— محمد بن سالم الخلوقي الشافعي المتوفى سنة ١١٨١ هـ .

— احمد بن عبد المنعم الدمنهوري المتوفى سنة ١١٩٠ هـ .

— عبد الرحمن بن محمد العريشي الحنفي المتوفى سنة ١٢٠٨ هـ .

— عبد الله الشراقوي الشافعي المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ .

وفي أيام هذا الأخير جاءت الحملة الفرنسية ، وارتاع لها المص
جميعاً على النحو الذي شرحه الجبرتي .

وهؤلاء جميعاً تعلموا في الأزهر . ثم تولوا التدريس بأنفسهم
وصلوا إلى هذه الدرجة .

السمات العلمية لكل عصر من هذه العصور التار

كان لكل عصر من العصور الثلاثة التي تؤرخ لها سمات علمية
عن سمات الآخر . ومن الخير أن نتعرف على هذه السمات حتى
إدراكنا لهذه الفترات التاريخية التي مرت بالبلاد :

سمات العصر الأيوبي

أما العصر الأيوبي فهو امتداد للعصرين الطولوني والأتشيدى : وذلك من حيث العلوم التى نهض بها المصريون فى هذين العصرين السابقين . وهى علوم الحديث والتفسير ، والقراءات والنحو والبلاغة . والنتيجة التى يصل إليها هى أن العصر الأيوبي أحرز فى كل علم من تلك العلوم تقدماً ملموساً ، وأن هذا التقدم تم على أيدي علماء كان لهم شأنهم وشهرتهم ومؤلفاتهم . (١)

وقد أعانهم على ذلك ما سبق أن ذكرناه من أن ملوك الأيوبية كانوا يميلون بطبعهم إلى العلم . بل كان منهم الفقيه والنحوى والكاتب والشاعر والمؤرخ . ولولا ذلك لما استطاع العصر الأيوبي أن يسير بالهضة العلمية هذه السيرة ، أو يقطع فى ميدان العلم مثل هذه المسافة . وبايجاز شديد كان العصر الأيوبي إرهاباً لعصر جديد ، هو العصر المملوكى . وفى هذا الأخير مضى العلم أشواطاً أخرى ، وجاء حادث المغول وهجومهم على العراق فزاد العلماء أنفسهم تحمساً للعلم ، ورغبة فى حفظه من

(١) سبق أن ذكرنا فى مقدمة الكتاب أننا تعمدنا الإيجاز فى وصف الحركة العلمية فى العصرين الأيوبي والمملوكى خاصة اعتماداً منا على كتاب آخر وضعناه منذ سنوات وذلك بعنوان :

(الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكى الأول)

وهو كتاب يقع فى ٣٨٨ صفحة . وقد تتبعنا فيه حركة العلماء المصريين فى كل علم من العلوم السابقة على حدة

يد غوائل الدهر . ومن ثم ظهرت الموسوعات التي من أجلها أطلق على :

العصر المملوكى عصر الموسوعات :

وكما حمت مصر بسيوفها بلاد الإسلام من خطر المغول الذى أشرنا إليه ، فكذلك حمت مصر بأقلامها تراث الإسلام من هذا الخطر الذى أوشك أن يقضى عليه .

ذلك أن مصر بعد هذه الكارثة فتحت أبوابها للاجئين إليها من العلماء والأدباء الفارين من وجه الخطر المغولى . وفى مصر أمن أولئك العلماء على نفوسهم ، وشجعهم سلاطين المماليك على القيام بواجبهم . فقاموا بجمع المواد التى تتألف منها الثقافة الإسلامية ، وذلك فى كتب كبيرة على شكل « موسوعات » أو « دوائر معارف إسلامية » . ومنها على سبيل المثال :

لسان العرب لابن منظور :

وهو معجم واسع المادة ، عظيم القدر ، جمع فيه مؤلفه بين كتب ستة وهى :

التهذيب للأزهري ، والصحاح للجوهري ، وحواشى ابن برى على هذا الأخير ، والمحكم لابن سيده ، والمختصر له أيضاً ، والنهاية لابن الأثير .

وبلغت مواد هذا المعجم اللغوى الكبير ثمانين ألف مادة ، وبذلك أصبح معجمه من أكبر المعاجم التى وصلت إلينا .

وأصبحت المادة التي تملأ صفحة واحدة في القاموس المحيط تملأ أربع صفحات في اللسان . ولذا بلغ هذا الكتاب عشرين جزءاً .

واستطرد ابن منظور في شرح المادة اللغوية على عادة أصحاب الموسوعات في زمانه . ومن ثم جاء كتابه في الحقيقة كتاب لغة ونحو وصرف وفقه وأدب وأخبار وأحاديث وتفسير في وقت معاً .

ثم من تلك الموسوعات على سبيل المثال أيضاً :

نهاية الأرب للنويرى :

وهو شهاب الدين النويرى . نسبة إلى نورة إحدى قرى بني سويف . ولد بها سنة ٦٧٧ هـ . ثم سافر إلى قوص وسمع من العلماء وكان ناظراً لديوان الجيش في عهد السلطان محمد بن قلاوون . وألف كتابه (نهاية الأرب) في ثلاثين جزءاً جعلها في ستة فنون :

الأول — في السماء والآثار العلوية

والثاني — في الإنسان وما يتعلق به

والثالث — في الحيوان الصامت

والرابع — في النبات

والخامس — في التاريخ

والسادس — في نظم الحكومة

ثم من الموسوعات التي ظهرت في عصر المماليك موسوعة بعنوان :

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار:

وصاحبها ابن فضل الله العمري . جعل موسوعته جغرافية في أكثرها . وهي في أربعة عشر جزءاً . وموضوعها « وصف الأرض وما اشتملت عليه برأ وبحراً » . وهي قسمان :

أولهما — في الأرض

وثانيهما — في سكان هذه الأرض

والقسم الأول منهما نوعان .

أولهما — المسالك .

وثانيهما — الممالك .

ثم من تلك الموسوعات التي شهدها العصر المملوكي .

كتاب صبح الأعشى:

ومؤلفه القلقشندي نسبة إلى قلقشندة من أعمال قليوب بالديار المصرية . وهو من أهم الكتب التي تعرضت لصناعة الإنشاء . وقد رتب مؤلفه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة .

ففي المقدمة ذكر فضل الكتابة والكتاب ، ووضح الفرق بين كاتب الإنشاء وكاتب المال ، وتكلم عن صفات الكتاب وآدابهم . وفي المقالة الأولى تحدث فيما يحتاج إليه الكاتب من النحو والصرف والبديع والبيان .

وفي المقالة الثانية — تحدث عن ثقافة الكاتب الجغرافية والتاريخية

وفي المقالة الثالثة — تحدث عن الورق وأنواعه وما يناسب كل نوع منها من الأقلام .

وفي المقالة الرابعة — تحدث عن البلاغة في اللفظ والمعنى وعن الشعر ونحو ذلك .

وفي المقالة الخامسة — تحدث عن الولايات كالحلافة والسلطنة وأرباب الوظائف الإدارية والدينية .

وفي الخاتمة ذكر أموراً تتعلق بديوان الانشاء كالبريد والحمام الزاجل ومراكب الثلج والمنارات .

ومات القلقشندي عام ٨٢١ هـ وعمره خمس وستون سنة .

العصر العثماني عصر الشروح والخواشي

وفي العصر العثماني طوت مصر صفحة التفوق في الأدب وفي العلم — أوكادت تطوى هذه الصفحة العظيمة من حياتها . فقد عاش الدارسون في هذا العصر العثماني على ما ورثوه من كتب العصرين المملوكي والأيوبي . وحصروا عمهم — كما قلنا — في شرح هذه الكتب القديمة . ثم تلتهم طبقة أخرى ركزت جهودها في شرح هذه الشروح التي وضعت لتيسير هذه الكتب القديمة . ثم جاءت طبقة ثالثة كتبت الخواشي والتقارير عن هذه الشروح وشروح الشروح وهكذا .

ولقد دعا ذلك عالماً من علماء العصر العثماني — واسمه ساجقي زادة —

المتوفى سنة ١١٥٤ هـ إلى وضع كتاب عنوانه « ترتيب العلوم » قال في مقدمته ما يلي :

« إنه نظراً لتكاثر الشروح وشرح الشروح والحواشي وحواشي الحواشي ، وتفرع العلوم وكثرتها أصبح أمرها عتبة في طريق طلاب العلم . إذ يلتبس عليهم فهم القضايا ، لأنهم يقرأون الحاشية أو الشرح قبل المتن . فألفت هذا الكتاب لترتيب العلوم ، بحيث يعرف الأصل من الفرع ... الخ » .

معنى ذلك أن مجال البحث العلمي في العصر العثماني بقي محصوراً في الحدود التي رسمها العلماء الذين عاشوا في ذلك العصر . ونعني بهذه الحدود الشروح وشرح الشروح وما إلى هذه المواد من الحواشي والتقارير ، أما التأليف العلمي والبحث ، أو التصنيف والبحث ، أو الإنشاء والابتكار والبحث فلم يكن له وجود في العصر العثماني . لا نكاد نستثنى من هذه القاعدة غير طائفة يسيرة من العلماء يتحتم علينا هنا أن نضرب المثل بأحدهم وهو :

السيد مرتضى الزبيدي :

وبه نختم الكلام عن الحركة العلمية . وقد كان الزبيدي حسنة من حسنات العصر العثماني . أو كان فلتة من فلتاته في الحقيقة . والزبيدي هذا هو أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرازق الشهير بمرتضى الحسيني الزبيدي . ولد (بزبيد) في اليمن سنة خمس وأربعين ومائة وألف . ونشأ بها . وارتحل في طلب العلم . فوصل إلى مكة والطائف . ولقي فيها العلماء والفضلاء والأمراء . وأكرمه هؤلاء جميعاً بدون استثناء .

ثم دخل مصر سنة سبع وستين ومائة وألف . وهو يومئذ في الثانية والعشرين من عمره . وسكن حياً من أحياء القاهرة يقال له « حى الصاغة » .

وحضر في مصر على شيوخ الوقت . ثم راج أمره ، وسار ذكره وعرف عند الخاص والعام . وسافر إلى الصعيد ثلاث مرات ، واجتمع هناك بالأعيان والكبراء والعلماء والأدباء . ثم قام برحلة أخرى إلى الوجه البحرى . فمر بمدن دمياط ورشيد والمنصورة وغيرها . واستقبله الناس في كل مدينة بمثل ما استقبل به في مدن الصعيد . وكتب الزبيدى في هذه الرحلات بعض محاضرات ومدائح قال عنها الجبرتى أنها لو جمعت في كتاب لكانت مجلداً ضخماً .

الزبيدى صاحب تاج العروس :

غير أن أعظم عمل قام به الزبيدى ونخلد ذكره في التاريخ هو شرحه القاموس المحيط للفيروزباده في أربعة عشر مجلداً أطلق عليها اسم (تاج العروس في شرح القاموس) . ونحن نعلم أن القاموس المحيط هذا عبارة عن أربعة مجلدات فقط فإذا جاء كتاب (تاج العروس) في أربعة عشر مجلداً فهو أشبه ما يكون بدائرة معارف في اللغة تشبه من قريب (لسان العرب) لابن منظور .

ولما أكمل الزبيدى كتابه هذا أولم وليمة حافلة جمع فيها طلبة العلم وشيوخ الوقت . وكان ذلك سنة إحدى وثمانين ومائة وألف . ثم أطلعهم على كتابه ، فاغتنبطوا به ، وشهدوا بفضله ورسوخه في اللغة إلى

هذا الحد . وكتبوا عليه تقاريطهم نثراً ونظماً . ومنها
قول أحدهم :

شرح الشريف المرتضى القاموساً وأضاف ما قد فاته قاموسنا
فقدت صحاح الجوهري وغيرها سحر المدائن حين ألقى موسى
فهو الفريد فلا يثنى جمعه إذ لا يحاك كمثلته تدليسا
ولسان نظمي عاجز عن مدحه قاله ينثر نظمه تقديسا
ويديم مولاي الشريف لعصرنا في كل قطر للهداة رئيسا
ومن نظموا في (تاج العروس) والد الجبرتي نفسه وكان قد
حضر الاحتفال الذي قرئت فيه هذه التقاريط .

ولما أنشأ (محمد بك أبو الذهب) جامعه المعروف بالقرب من
الأزهر عمل فيه خزانة كتب . واشترى جملة من الكتب وضعها بها .
وأخبره العلماء بتاج العروس ، وعرفوه بقدره ، فطلبه من مؤلفه ،
وعوضه عنه مائة ألف درهم فضة ، وجعله من كتب الخزانة .

كان المرتضى الزبيدي — فيما يقول الجبرتي — ببحراً في جميع
الفنون التي عرفها عصره . وكان حجة في علم الأنساب والأسانيد
وتجريح الحديث . وألف كتباً ورسائل ومنظومات وأراجيز
في كل ذلك .

وانتقل الزبيدي إلى منزل بسوية اللالكى تجاه جامع محرم افندي
سنة ١١٨٩ هـ . وكانت تلك الخطة عامرة بالكابر والأعيان . فأحدقوا
به ، وتحببوا إليه ، وهادوه وهو يظهر لهم الفنى والتعفف . ويعظمهم

ويفيدهم فوائد شتى . وكان يعرف اللغة التركية ، واللغة الفارسية وبعض لسان الكرج ، ثم شرع في إملاء الحديث على طريقة السلف في ذكر الأسانيد والرواية . ومن ذلك الوقت وهو يكثر من إعطاء الدروس وإقامة المجالس في شتى المساجد . وكان يحضر لسماعه مئات العلماء والأمراء والطلبة وغيرهم . وأقبلت عليه الدنيا ، وملاها علماً ومعرفة .

تأليف أخرى للزبيدي :

قام الزبيدي بتأليف كتب أخرى — عدا كتاب تاج العروس — كان من أهمها كتاب له في شرح (إحياء علوم الدين) للغزالي . وطار صيت هذا الكتاب الأخير حتى طلبه العلماء والفضلاء في كل مكان . وكاد يبلغ في شهرته كتاب تاج العروس .

ولم يكتف الزبيدي بهذين الكتابين حتى أضاف إليهما كتباً كثيرة أخرى من أهمها ما يلي :

- ١ — كتاب الجواهر المنيفة في شرح أصول مذهب أبي حنيفة .
- ٢ — كتاب حكمة الاشراف إلى كتاب الآفاق .
- ٣ — كتاب شرح الصدر في أسماء أهل بدر .

وهكذا استطاع هذا العالم البني الأصل المصري الإقامة ألاّ يحصل من العصر العثماني عصرأ خالياً من العلم . وإن كان علماً في الإطار الذي وصفناه من قبل . وهو إطار الشروح ، وشرح الشروح ونحو ذلك .

ولكن مهما قيل في هذه الشروح والخواشي فإنها دلت عند بعض العلماء كالزبيدي والصبان^(١) وغيرهما على علم غزير ، وحفظ كثير ، واستيعاب دقيق قل أن يكون له نظير في العصر الحديث .

وماتت زوجة الزبيدي سنة ١١٩٦ هـ — فحزن عليها حزناً عظيماً ، ونظم في رثائها مقطوعات شعرية كثيرة . كلها رقيقة . ومنها قوله :

سأبكي عليها ماحيت وإن أمت

ستبكي عظامي والأضالع في القبر

ولست بها مستبقياً فيض عبرة

ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر

ومن هذه المقطوعات :

خليلي مالا أنس أضنى مقطماً

وما لفؤادي ما يزال مروّماً

أمن غير الدهر المُمشت^٢ وحادث

الم^٣ برحلى أم تذكرت مصرعا

والا فراق من اليقة مهجتي

زبيدة ذات الحسن والعقل أجماً

(١) هو أبو العرفان الشيخ محمد بن علي الصبان أحصى له الجبرتي أكثر من عشرين شرحاً وحاشية . كلها في الفقه والنحو والتفسير والقراءات . وما زال طلبة الأزهر إلى أيامنا هذه يهفون طرفاً منها . وخاصة حاشية في النحو على ابن عقيل .

— ٤٥ —

مضت فضت عني بها كل لذة
تقر بها عيناى فانتقطعا معا
فن مبلغ عني بمكة أتى
بكيت فلم أترك لعيني مدمعاً .

ومن هذه المقطوعات :

أحاذل من يرزأ كرزئى لم يزل
كثيبا ويزهد بعده فى العواقب
أصابته يد البين المشت شمائل
وحاقت نظامى عاديات النوائب
قتاة الندى والجود والعلم والحيا
ولا يكشف الأخلاق غير التجارب



الفصل الثالث

الحياة الروحية

تقصد بالحياة الروحية لامة من الامم نوع العقيدة المذهبية التي تختارها هذه الامة في فترة من فترات تاريخها ، وما يمكن أن تتركه عقيدتها المذهبية من أثر في الحياتين العامة والخاصة . ونحن نعرف أن الفواطم كانوا شيعة ، وأن بني أيوب والمماليك والعثمانيين كانوا سنة ، وأن الفرق عظيم بين المذهبين ، وقد زاد من سعة هذا الفرق بينهما غلو الفاطميين في عقائدهم التي منها القول (بالعلم الباطن) ومنها القول (بعصمة الأئمة) ونحو ذلك من الأقوال . أما السنة فمذهبهم بسيط ومعروف ، وهو أدنى . في الواقع إلى الدين الصحيح على الصورة التي أوحى بها إلى صاحب الشريعة محمد صلوات الله عليه وسلامه .

على أن هذه العقيدة الساذجة التي أوصى بها صاحب الرسالة تعرضت لألوان من التغيير والتبديل بعدت به هذه العقيدة نفسها عن سادجتها الأولى ، ودخلت عليها الفلسفة من كل باب ، فعقدتها وجعلت منها شيئاً غريباً كل الغرابة على العقل السنى .

ونقرأ تاريخ مصر السياسى والاقتصادى من القرن السادس إلى القرن العاشر . فإذا مصر مجاهدة من الحروب الصليبية التي أفقدتها كثيراً من

المال والرجال» وردتها إلى لون من الحياة فيه شعور بالفقر، وإن كان فيه شعور بالكرامة والفخر. ولقد ضاعف شعور المصريين بالفاقة يومئذ مامنيت به يلاذهم من المجاعات الشديدة التي أشرنا إلى شيء منها. ومن شأن هذه الحالة الاقتصادية وأمثالها أن تخلق في الناس خشوعاً في حياتهم، واستعداداً للخضوع لدينهم، وأملاني نعيم الآخرة بدلاً من نعيم الآجلة.

في هذه الأجواء الشعورية التي تشير إليها قوى ميل المصريين إلى (التصوف). وشجعهم الولاة والحكام على هذا الميل. ووجدوا في تشجيعهم عليه تقرباً إلى الله تعالى من جهة، وتقوية للروح المعنوي الذي لا بد منه في محاربة المسلمين لأعدائهم من الصليبيين والمغول من جهة أخرى.

ولقد قيل في التصوف أنه محاولة الوصول إلى الذات الإلهية بطريق القلب لا العقل. والمتصوفة يطلقون على هذا الطريق اسم «سفر»، وعلى المسافر اسم «سالك»، وعلى المراحل التي يمر بها «مقامات»، وهي عندهم سبع مراحل تلي بعضها بعضاً، منها التوبة، فالورع، فالزهد فالفقر «بحيث لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء»، الخ.

ومصدر التصوف عند الباحثين هو ثورة الضمير لما يصيب الناس من مظالم لا تقتصر غالباً على ما يصدر عن الآخرين، وإنما تنصب أولاً على ظلم الإنسان نفسه. وتقترن هذه الثورة برغبة في الوصول إلى الله عن طريق تصفية القلب من كل شاغل مادي في هذه الحياة الدنيا.

الخانقاه في مصر

وكما اشتهرت الدولتان الأيوبيه والمملوكية ببناء المدارس لتعليم الفقه والحديث ، ولإذكاء الحماسة الدينية اللازمة للحروب ، فكذلك اشتهرت هاتان الدولتان ببناء أماكن للعبادة يقضى فيها المتصوفة كل أوقاتهم وتتفق الدولة عليهم في أثناء إقامتهم بهذه الأماكن ، واسمها « الخوانق » جمع خانقاه .

وكان من عمل الخانقاه إيواء الغرباء من المسلمين ، والسماح لهم ولاسهرم بالإقامة فيها . أما الصلاة فإنهم يؤدونها في قاعة عامة تسمى « بيت الجماعة » . أما صلاة الجمعة بنوع خاص فإنها لا تقام بالخوانق . ومن ثم كان على المتصوفة أن يغادروها في كل جمعة إلى أحد مساجد المدينة . وكان لخروجهم يوم الجمعة مشهد رائع يفرى الناس جميعاً بالنظر اليهم ، والتبرك بهم في طريقهم إلى المسجد .

قلنا إنه كان لهذه الخوانق جزء خاص من ميزانية الدولة ، وإن الدولة رأت في هذا العمل تقرباً من الله وزلفى . وكانت لا تسمح لنفسها بأن تأخذ من مال الخانقاه شيئاً ولو لمصلحة أخرى من المصالح العليا . لذلك أثر عن نور الدين محمود ملك دمشق أن أصحابه قالوا له يوماً : إن لك في بلادك إدارات كثيرة للفقهاء والفقراء والصوفية . فلو استعنت الآن بها لكان أمثل . فغضب نور الدين وقال : والله إنى لأرجو النصر إلا بأولئك . فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف أقطع صلات

قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطى . وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تخطى . وقد تصيب ؟
وبهذا المبدأ عمل صلاح الدين أسوة بأستاذه نور الدين . وجرى العمل على ذلك فى جميع العصور التى توارخ لها حتى بجي . الحملة الفرنسية .

والثابت فى التاريخ أن صلاح الدين أول من أحدث الخوانق بمصر . فبنى خانقاه « سعيد السعداء » وبنى سلاطين المماليك من بعده جملة من هذه الخوانق . ومنها :

الخانقاه البيبرية :

بناها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير سنة ٥٧٠ هـ . يقول المقرئى وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بدياناً وأوسعها مقداراً ، وأتقنها صنعة . والشباك الكبير الذى بها هو شباك دار الخلافة ببغداد وكانت الخلفاء تجلس فيه .

خانقاه سرياقوس :

بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون وكانت فى أيامه من أجمل ضواحي القاهرة . وقيل فى سبب إنشائها إن الناصر ركب كعاده للصيد ، وبينما هو فى الطريق إذ اقتابه أرم شديد كاد يتمضى عليه . ثم نزل عن فرسه ، ولكن الأرم تزايد عليه فنذر إن عافاه الله أن يبنى فى هذا الموضع مكاناً يتعبد فيه الناس لله تعالى .

خانقاه قوصون :

بُنيت سنة ٧٣٦ هـ . وأول من ولى مشيختها هو الإمام شمس الدين محمود الأصفهاني المشهور بتصانيفه الكثيرة .

خانقاه شيخو :

بناها الأمير شيخو سنة ٧٥٧ هـ . ورتب فيها أربعة دروس على المذاهب الأربعة ، ثم درساً للحديث ، ودرساً للقراءات . وشرط الأمير في شيخ الخانقاه أن يكون عارفاً بالتفسير والأصول وألا يكون قاضياً . وجعل هذا الشرط عاماً في جميع أرباب الوظائف بالخانقاه . والسبب في ذلك أن أتقياء المسلمين كانوا يتخرجون من وظائف القضاء ويتنافسون على وظائف التعليم .

المتصوفة في مصر

إن الناظر في أحوال المتصوفة الذين ظهروا بمصر في العصور التي تؤرخ لها يستطيع أن يميز فيهم بين طبقات ثلاث :

الأولى : — طبقة المتصوفة الفلاسفة . وعمر بن الفارض مثال واضح لرجال هذه الطبقة . ولذا سنتحدث عنه في فصل من فصول الكتاب عنوانه « الشعر الصوفي » .

الثانية : — طبقة المتصوفة الفقهاء . وهم على جانب عظيم من العلم ومن الهيبة في نفوس الخاصة والعامة . ومن الأمثلة على هذه الطبقة السيد عبد الرحيم القنائي (نسبة إلى قنا) وتلميذه أبو الحسن الصباغ .

والثالثة : — طبقة المتصوفة الدراويش . وحظ هذه الطبقة من العلم قليل ومن الفلسفة الدينية أقل . بل إن الفرق بين الدراويش ورجال الطبقة الأولى يأتي من أن التصوف يعتبر عند رجال الطبقة الأولى نزعة فلسفية . ويعتبر عند رجال الطبقة الثالثة دروشة أو عبادة عملية .

والمعروف أن لكل فرقة من فرق الدراويش طريقة خاصة بها . غير أن هذه الطرق تعددت حتى أحصى الباحثون منها ستاً وثلاثين طريقة . منها الطريقة الرفاعية ، والطريقة القادرية ، والطريقة البكتاشية ، والطريقة السنوسية . وهكذا .

ورجال هذه الطبقة من الدراويش ينظرون إلى علوم الشريعة على أنها قشور ، وإلى طريقتهم على أنها اللباب . وذلك فضلاً عن أنهم يؤمنون بالأولياء ، وبكرامات الأولياء ، وبخوارق العادات وبيعض الخرافات . والعبادة عندهم أذكاري يقومون بها ويؤدون بها بنظام خاص . ومن أوضح الأمثلة على الدراويش في مصر :

السيد أحمد البدوي (٥٩٦ هـ — ٦٧٥ هـ) :

وقد على مصر من بلاد المغرب . وحدث له في الثلاثين من عمره ما قيل إنه غير مجرى حياته رأساً على عقب . ذلك أنه قرأ القرآن ، ودرس شيئاً من الفقه الشافعي ، ثم عكف على العبادة واعتزل الناس وعاش في صمت وامتنع عن الزواج . وفي عام ٦٣٤ هـ رأى رؤيا في المنام أوحى إليه السفر إلى مصر . واختار لنفسه مدينة طنطا وبقي بهذه المدينة إحدى وأربعين سنة . ومات بها في الثامن عشر من

شهر ربيع الأول . والغريب أن هذا هو نفس التاريخ الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

على أن حياة السيد أحمد البدوي في مصر كانت كمياته ماثراً للعجب والدهشة من نواح شتى : منها أن الرجل كان يصعد إلى السطح كل يوم ، ويتدجج بعصره إلى الشمس ويتعاقب فيها مدة طويلة حتى تحمر عيناه وتصبح كل واحدة منهما كالجرة المشتعلة . ومنها أنه كان يمسك عن الطعام والشراب أربعين يوماً متوالية . وكان السيد أحمد البدوي يلبس ثوباً من الصوف الأحمر لا يبدله بثوب آخر حتى يبلى . وكان يضع على رأسه عمامة حمراء لا يغيرها حتى تبلى هي الأخرى .

وامتد سلطان هذا الدرويش في مصر حتى عمها من أولها إلى آخرها . وزاد في إيمان الناس به إذ ذاك طائفة من السكرامات يطول شرحها . ومن ثم فتنت العامة به فتنة عظيمة حتى إنه لو جمعهم على الخروج على ولى الأمر لفعلوا .

وتوارث الناس تقديس هذا الدرويش حتى كان عهدهم بدرويش آخر ظهر في العصر العثماني وهو :

الشعراني . (المتوفى سنة ٩٧٣ هـ) .

وبالغ الناس في احترام هذا الدرويش الأخير إلى درجة لا يقبلها العقل السليم ، وقد لا تتفق وكرامة علماء الدين . وشغل الشعراني نفسه مدة كبيرة بالكتابة عن السيد أحمد البدوي وفضائله وتعريف الأجيال اللاحقة به .

ولد الشعراني بقرية من قرى المنوفية . وحاش بمدينة الفسطاط حياته
الصوفية . وأصبح له شأن عظيم حسده عليه معاصروه . وانتصر له جماعة
من الوجهاء وذوى النفوذ . وأنشأ لنفسه مدرسة توافد عليها الطلاب
من كل صوب . وكثر مريدوه كثرة عظيمة . وكتب في شرح طريقته
أكثر من خمسين كتابا أهمها وأنظمها كتابه المسمى « اليواقيت
والجواهر في بيان عقائد الأكابر » .

على أن كل طريقة من الطرق التي أشرنا إليها كانت صالحة في وقتها .
وعلى الأخص في بداية ظهورها . ولكنها لا تلبث بعد ذلك أن تتعرض
للفساد والعطن . وبنوع خاص بعد أن يمضي عليها وعلى زعمائها من الوقت
ما يسمح للخلف بعد السلف بالانحراف عن الطريق السوى ، وبالعيب
بعقول العامة . وذلك ما قد حدث للأسف بالطبقة الثالثة من طبقات
المتصوفة ؛ وهى طبقة الدراويش التي قلنا إن حظها من العلم قليل ومن
التفكير أقل .

أتى على هؤلاء الدراويش حين من الدهر تركوا فيه تعاليم الدين
وابتدعوا لأنفسهم طريقة جديدة خالية من التقيد بقيد من قيود الدين .
حتى أصبحت هذه الطريقة الجديدة عبارة عن أذكار يجتمع لها العامة
يرقصون ويطربون ويأكلون ويشربون ويضيقون في الوقت نفسه
باقامة شعيرة واحدة من شعائر الدين ، لا شيء إلا لأنهم أصبحوا
يفهمون هذا الدين فهما غريبا لا يتصل بمذهب من المذاهب المعروفة

— ٥٤ —

في الإسلام من قريب أو بعيد . لقد كان التصوف بطرائقه المعروفة سبيلا إلى تقويم النفوس ، وتصفية القلوب ، وتغذية الأرواح ، وتنوير الأذهان ، والسمو بالفرد والجماعة إلى أرقى مراتب الإنسان . فأصبح التصوف أو الدروشة في العصور المتأخرة على التقيض من ذلك طريقا إلى الفساد والانحراف ، وبابا تدخل منه جميع البدع والخرافات .

وهكذا وجدنا التصوف في مصر يضمحل منذ أوائل القرن التاسع الهجري ، أو قبله بقليل . واستشرى الفساد في أواخر ذلك القرن وأوائل القرن العاشر . واقترن ذلك باضمحلال دولة المماليك وبداية عصر العثمانيين حتى كان كبار المتصوفة في ذلك الحين لا يقيمون الصلاة بدعوى أنهم إنما يقيمونها في الأماكن المقدسة من حيث لا يراهم الناس . ا



الكتاب السَّخِيحُ
فَرْفَتُ الشَّعْرِ

الفصل الأول

دواعي النهضة الأدبية في مصر

مر الأدب المصرى بأزهى عصوره أيام الحكم الفاطمى ، وهو الحكم الذى قضى عليه السلطان صلاح الدين الأيوبي . وكان لازدهار الأدب الفاطمى أسباب كثيرة من أهمها تشجيع الخلفاء المصريين ووزرائهم الأدب والأدباء بالمال فى وقت عجزت فيه الخلافة العباسية بعد أن شاخت كل العجز عن شيء من ذلك .

و ، تلك الأسباب الأعياد التى كان يعنى بها الفاطميون سواء منها الأعياد الإسلامية والأعياد المسيحية . وقد زادت هذه الأعياد فى مباحج الشعب المصرى وأشعرته بكرم الخلافة الفاطمية ،

ومنها — أى من تلك الأسباب — الدعوة الدينية التى أتت بها الدولة الفاطمية . فكما اعتمدت هذه الدولة فى تثبيت قواعدها على العلم ، فكذلك اعتمدت على تشجيع الشعراء والكتاب وأصحاب الأقلام وأرباب الألسن .

فلما كانت الدولة الأيوبية فدولة الممالك وجدنا لازدهار الأدب المصرى أسباباً شبيهة فى جملتها بالأسباب السابقة . ومنها :

أولاً — التحمس الدينى الذى اقترن بالحروب الصليبية ، ومن

أجله نما لون قوى من ألوان الشعر العربى هو الشعر السياسى أو شعر
القومية الإسلامية .

ثانياً — التشجيع الذى لقيه الأدب والعلم من ملوك بنى أيوب
وسلاطين المماليك ، واشتراك الكثيرين من أمراء الدولتين فى الحركتين
الأدبية والعلمية ، وتنافسهم فى تشجيع الأدباء والعلماء وحثهم جميعاً
على العمل بشتى الوسائل .

وسنعرض لشعر الحماسة فى فصل مستقل باسم الشعر السياسى .
وسنرى فيه كيف سائر الشعر المصرى جميع الأحداث التى وقعت فى
داخل مصر وخارجها .

أما الآن فنريد أن نذكر بعض مظاهر التشجيع الذى لقيه الأدب
على أيدي سلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية . ونكتفى بأمثلة
قليلة من ذلك .

والذى نراه أن أول ما شجع الأدب فى مصر تلك الميول الأدبية
الواضحة التى بدت من جانب الملوك الأيوبيين ، وبنوع خاص من جانب
المؤسس الأول لهذه الدولة وهو السلطان صلاح الدين الأيوبي .

ذكر التاريخ عن هذا الرجل العظيم ، أنه كان يميل إلى الفضائل
ويستحسن الأشعار الجيدة ، ويكثر من ترديدها فى مجالسة . ومن ذلك
أنه كان كثيراً ما ينشد قول أبي المنصور محمد بن الحسن الخيمرى :

وزارنى طيف من أهوى على حذر

من الوشاة ونور الصبح قد هتفا

— ٥٩ —

فكدت أوقظ من حولي به فرحا
وكاد يهتك ستر الحب في شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لي
نَسِيلَ المني فاستحالت غبطتي أسفا
وكان يعجبه قول الشاعر المعروف بابن المنعم وهو :
وما نخضب الناس البياض لقبحه
وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت
على الرسم من حزن عليه مثاله
فكان إذا قال « ولكن مات الشباب » يمسك بكريمته (يريد لحيته)
وينظر إليها ويقول : أي والله مات الشباب !
بل إن صلاح الدين كان له فوق حبه للشعر ورغبته في حفظه قدرة
كذلك على تذوقه ونقده . قيل إن العباد الأصفياء عرض عليه يوما ما
بضع أبيات في وصف الشمس منها قوله :
بدت بين أوراق الغصون كأنها
كرات نضار في لجين مطرق
فقال له السلطان : تشبيه الورد باللجين غير موفق ؛ لأن الورد
نفسه أخضر . قال العباد : كرات نضار بالزرد محقق . فقال لا بأس .
وعلى هذا النحو كنت تجد في كل بيئة من البيئات العربية التابعة

للدولة الأيوبية أو الدولة المملوكية أميرا ذا نزعة أدبية أو علمية واضحة كل الوضوح . وحول هذا الأمير كنت تجد جوا علميا أدبيا ينشط فيه العلماء والشعراء والكتاب والوعاظ والفقهاء . وكان الأمير نفسه كثيرا ما يشارك مشاركة قوية في هذا النشاط ويجعل له نصيبا كبيرا منه :
فهذه (حلب) كانت في يد الملك الظاهر بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين . ثم في أيدي أولاد الظاهر من بعده . وكان الشعراء والعلماء ملتفين حول كل ملك منهم - وهم ثلاثة في العصر الأيوبي خاصة .

أولهم — الظاهر غازي الملقب غياث الدين .

وثانيهم — العزيز محمد بن الظاهر غازي .

وثالثهم — الناصر يوسف بن العزيز .

فمن الملك الظاهر غياث الدين يقول المؤرخون « إنه كان مهيبا ذا سياسة وفطنة ، ودولة معمورة بالفضلاء والعلماء والأكابر . وكان في دولته من أرباب العلم القاضي بهاء الدين بن شداد » .

وكان الظاهر نفسه شاعرا ومن شعره :

ولما التقينا بعد بُعد تحسرت

دموعي إلى أن كدت بالدمع أغرق

فقلت لها يا عين هذا لقاءنا

فقلت ألسنا بعنده نتفرق ؟

وهذه (دمشق) كانت في يد الملك العادل أخى السلطان صلاح الدين -
ثم في أيدي أبناء العادل من بعده وأولهم الملك المعظم عيسى . وكان هذا

الآخر نحويًا لغويًا فقيها شاعرًا في وقت معًا . وكان حنفي المذهب . وبذلك انفرد من بين ملوك بني أيوب الذين كانوا جميعًا على مذهب الشافعي .
وقد أمر الفقهاء بأن يجرّدوا له مذهب أبي حنيفة دون المذاهب الأخرى المعروفة . فخرّده له في عشر مجلدات وسموه « التذكرة » فكان هذا الكتاب لا يفارقه سفرًا ولا حضرًا . وسأله بعض الأئمة في ذلك وقال له : إن أكبر مدرس في الشام لا يمكنه أن يحفظ أكثر من كتاب القدوري في الفقه وأنت مع شغلك بالملك تحفظ عشر مجلدات . وأنا أخشى أن يأخذ الناس عليك ذلك ويستبعدوه منك . فقال عيسى : ليس الاعتناء بالألفاظ . إنما الاعتناء بالمعاني . ولك أن تسألني عن جميع ما في هذه المجلدات من المسائل ، فإن قصرت كان الصواب لكم . وإلا فسلموا لي .

واشتهر المعظم فوق هذا بالشعر . وكان يصدر فيه عن طبيعة سهلة ، لا تكلف فيها . وعرف المعظم بهذه السهولة حتى كان الإنسان في زمانه إذا فعل فعلًا لا تكلف فيه قيل (إنه كان يفعل فعلًا معظميًا) !
ثم هذه (حمّاه) كانت في يد المظفر عمر بن شاهنشاه . وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين . ثم آلت إلى ولده المنصور محمد . وكان المنصور هذا شجاعًا عالمًا يحب العلماء . وكان في خدمته أكثر من مائتي معمم . ووضع كتبًا منها كتاب « طبقات الشعراء » وكان ينظم الشعر الجيد . وهذه (بعلبك) كانت في يد فروخشاه ، ثم في يد ابنه إبراهيم من بعده . وكان إبراهيم هذا أديبًا فاضلًا شاعرًا محسنًا . ويقال إنه أشعر بني أيوب ، وله ديوان شعر

ونُدع جميع هذه البيئات ونأتمه إلى (مصر) . فتجد فيها السلطان صلاح الدين مؤسس هذه الدولة . ثم ولده الأفضل وكان شاعرا له فضله في الشعر . وكان في صحبته الوزير الجزرى المعروف ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب (المثل السائر) .

ثم غلب على حكم مصر (الملك العادل) عم الأفضل . وكان محبا للشعراء ومن أشهر شعرائه (ابن عنين) . وخلف العادل في حكم مصر ولده (الملك الكامل) . وقد حكم مصر كما قلنا زهاء أربعين سنة . قضاهما في تشجيع العلم والأدب . ورويت عنه في ذلك أخبار أعادت إلى الأذهان أخبار الرشيد والمأمون وغيرهما من خلفاء بني العباس . وكانت تبنت عنده بالقلعة في كل ليلة جماعة من أهل العلم ، فينصب لهم أسرة يتامون عليها بجانب سريرهم ليسامروه . فنفقت العلوم والآداب عنده . وقصده أرباب الفضائل .

ونوادى الملك الكامل الأدبية أكثر من أن تحصى ، منها - على سبيل المثال - أن الكامل كان في ليلة من الليالي جالسا فدخل عليه شاعر من الشعراء اسمه (مظفر) فقال له الكامل : اجز يا مظفر : قد بلغ الشوق متناه .

قال مظفر :

وما درى العاذلون ما هو

فقال الكامل :

ولى حبيب رأى هوانى

— ٦٣ —

فقال مظفر :

وما تغيرت عن هواه

فقال الكامل :

رياضة النفس في احتمال

فقال مظفر :

وروضة الحسن من حلاه

فقال الكامل :

أسمر لدن القوام ألى

فقال مظفر :

يعشقه كل من يراه

فقال الكامل :

وريقه كله مسدام

فقال مظفر :

ختامها المسك من لماء

فقال الكامل :

ليلته كلها رقاد

فقال مظفر :

وليلتي كلها انتباه

فقال الكامل :

وما يرى أن أكون عبدا

— ٦٤ —

فقام مظفر على قدميه وقال :

بالمملك الكامل احتياه

العالم العامل الذى فى كل صلاتنا نراه^(١)

ليث وغيث وبدر تم ومنصب جل مرتقاه

وما دمننا بصدد الكلام عن الميول الأدبية التى بدت من بعض ملوك
الأيوية ، فلا غنى لنا كذلك عن الإشادة بذكر واحد منهم هو
(تاج الملوك بورى) وهو الأخ الأصغر للسلطان صلاح الدين الأيوبي .
وقد وصفه ابن خلكان بالفصاحة والشعر ، وذكر أن له ديوانا
ومنه قوله :

آه من ورد على خديك بالمسك منقط

بين أجفانك سلطان على ضعفى مسلط

قد تصبرت وإن برح بى الشوق وأفرط

فلعل الدهر يوما بالتلاقى منك يغلط !

ومن شعره يهتف بحب مصر :

شربت من الفرات ونيل مصر

أحب إلى من ماء الفرات

(١) هكذا جاء بالأصل والوزن فى رأينا غير مستقيم (المؤلف)

— ٦٥ —

ولى فى مصر من أصبوا إليه
ومن فى قربه أبدأ حياتى
فقلت وقد ذكرت زمان وصل
تمادى بعده روح الحياة
أرى ما أشتهيه يفر منى
وما لا أشتهيه إلى يأتى !

• • •

هذه أمثلة قليلة من حب السلاطين والملوك والأمراء للأدب
والآداب . وعلى نهجها سار الكثيرون من القادة والوزراء والعظماء
فى الدولتين الأيوبية والمملوكية . حتى لكان الأدب أصبح سمة من
سمات العظيم فى تلك العصور ، أو كأنه المتعة الفنية الوحيدة التى كان
الناس يستريحون بها من عناء الحياة فى عصور لم تعرف من الحياة
إلا معانى الحرب والقتال ، وفكرة الجهاد فى سبيل الله بطريقة
أو بأخرى .

أما التحامق أو المجون فكان قليل الظهور فى تلك العصور التى خيم
عليها كابوس الحرب الصليبية ، فضلا عن شرور أشد منها كالأوبئة
والجاعات وغيرها من المحن الأخرى .

الفصل الثاني

الشعر السياسي

أخذت الدولة الفاطمية في الضعف في الوقت الذي كانت فيه دولة ناشئة بالشام — هي دولة الأتابكة الذين منهم نور الدين محمود — تزداد قوتها شيئاً فشيئاً . وكانت الإمارات اللاتينية التي أقامها الصليبيون في الشرق تحيط بدولة نور الدين ، وتهدد سلامة هذه الدولة الفتية التي ملأت الغيرة الدينية قلوب حكامها ، وأشعلت الحماسة نفوسهم ، فباتوا ولا أمل لهم في حياتهم إلا التخلص من الصليبيين ، وطردهم نهائياً من ساحل البحر الأبيض المتوسط .

كل ذلك والوزراء المصريون في الدولة الفاطمية يخاضون بعضهم بعضاً في سبيل النفوذ والسلطان ، ويستعين بعضهم على بعض بنور الدين محمود تارة وبالصليبيين المجاورين له مرة أخرى . وكأن أولئك الوزراء المصريين لم يجدوا من العار لهم ولشرفهم ولدينهم أن يستعينوا في سبيل أغراضهم الشخصية بالفرنج الذين عبروا إليهم البحر وأخذوا منهم القدس !

ذلك كله ما يظهر بجلاء من سيرة رجل من أولئك الوزراء لا يذكر إلا ويذكر معه سقوط الدولة الفاطمية . وهذا الوزير المصري هو

(شاور) . وقد لعب هذا الرجل على مسرح السياسة المصرية دوراً في منتهى الخطورة . وكان في هذا كالألعاب بالنار أو الرجل الذى يمسك بيده سيفاً ذا حدين ولا بد أن يصيب أحد هذين الحدين منه مقتلاً في يوم ما .

وذلك ما قد حدث بالفعل . فقد دعا هذا الوزير كلا من الفرنج ونور الدين محمود للتدخل العاجل في شئون مصر . وكان كل منهما على أحر من الجمر في انتظار هذا الأمر حتى يسرع بالهجوم على مصر — في الظاهر — بحجة الدفاع عن شاور . وفي الحقيقة والباطن بحجة امتلاك هذه البلاد الغنية ذات الموقع الممتاز من الناحية الحربية .

وقد شامت الأقدار المواتية لنور الدين محمود أن تكتب له التوفيق في هذا التدخل المنشود . وانتهى الأمر بالقائد الذى أرسله إلى مصر وهو أسد الدين شيركوه أن ظفر هذا القائد لمصر بالوزارة المصرية من يد الخليفة العاضد . وكان نور الدين محمود قد بعث بهذا القائد الجرىء في حملات حربية متعاقبة على مصر . وكان بصحبته ابن أخيه يوسف صلاح الدين في كل مرة .

وشاع نبأ الوزارة الأسدية ، وكان له صدى كبير في دمشق وغيرها من المراكز الإسلامية ، فقد طرب الناس لهذه الأنباء طرباً يفوق الوصف . وابتسم الدهر يومئذ لنور الدين محمود عن هذين الأملين الكبيرين وهما :

زوال الدولة الفاطمية ، وطرد الصليبيين جملة من الأراضى
الإسلامية .

وتأثر الشعر تأثراً بعيد المدى بهذه الحادثة . ومن
ذلك ما بعث به الشاعر الكاتب عماد الدين الأصفهاني — كاتب
نور الدين محمود إلى أسد الدين شيركوه بمصر ينشئه بالوزارة
وهو قوله :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب
فتحت مصر وأرجو أن تصير بها
ميسرا فتح بيت القدس عن كسب .
أنت الذى هو فرد فى بسالته
والدين من عزمه فى جحفل لجب
من شر شاور أنقذت البلاد فكم
وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذى أطمع الإفرنج فى بلد
الإسلام حتى سعوا للقصد والطلب
ولإن ذلك عند الله محتسب
فى الحشر من أفضل الطاعات والقرب
وما غضبت لدين الله منتقيا
إلا لنيل رضى الرحمن بالفضب

— ٦٩ —

وفي نهاية هذه القصيدة يتعجل العباد الأصفهاني الحوادث ، ويحرض
أسد الدين شيركوه على الوثوب على الخلافة الفاطمية ، وأماتها
في أسرع وقت ممكن . وذلك حيث يقول :

رد الخلافة عباسية ودع الد
عى فيها يصادف شر منقلب
لا تقطن ذنب الأفعى وترسلها
فالحزم عندي قطع الرأس والذنب

والحق لقد كان في نية أسد الدين شيركوه أن يفعل ذلك لولا
أن حاجله القدر المحتوم ، فلم تدم وزارته أكثر من شهرين ، حتى مات
وخلفه في الوزارة المصرية ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي . ومنذ وزر
صلاح الدين للخليفة العاضد اتخذ لنفسه كاتباً واسع العلم ذكى الفؤاد هو
عبد الرحيم بن علي البيساني المعروف في التاريخ باسم (القاضي الفاضل) .
ففكر الرجلان معاً في إبطال الخطبة الفاطمية لتحل محلها الخطبة
لبنى العباس . وكتب لها النجاح في ذلك . ثم سرعان ما كتب القاضي
الفاضل (بشارة) إلى نور الدين محمود . ونظم العباد الأصفهاني شعراً
في ذلك له منه قوله :

قد خطبنا للمستضى بمصر
نائب المصطفى إمام العصر
وأشعنا بها شعار بني العباس
اس فاستبشرت وجوه النصر

— ٧٠ —

وتركنا الدعى يدعو ثبورا
وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخط
سبة للهاشمى فى أرض مصر
واغتدى الدين ثابت الركن فى مصر
ر محوط الحمى مصون الثغر
عرف الحق أهل مصر وكانوا
قبلة بين منكر ومقر
ما يقسام الإمام إلا بحسب
ما تحساز الحسناء إلا بمهر
خلفاء الهدى سرّاة بنى العبد
سأس والطيبون أهل الطهر
بهم الدين ظاهر مستقيم
ظاهر قوة قوى الظاهر
دام نـر الهدى بملك بنى العبد
سأس حتى يقوم يوم الحشر
وهكذا انتهت أيام الدولة الفاطمية . غير أن زوالها ترك فى نفوس
المصريين والمتتبعين بها أسفاً وحسرة . (ولعمارة اليمنى) لامية فى رثاء
الدولة الفاطمية لانكاد نعرف فى رثاء الدول أشد منها وقعاً ، ولا أبلغ
لفظاً ومعنى . ومنها :

— ٧١ —

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
 وجيده بعد حسن الحل بالعطل
 جدعت مارنك الأقي فأنفك لا
 ينفك ما بين قرع السن والخجل
 لهفي ولهف بني الآمال قاطبة
 على فجيعتها في أكرم الدول
 يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة
 لك الملامة إن قصرت في عذلي
 بالله زر ساحة القصرين وإبك معي
 عليهما لا على صفسين والجل
 وقل لأهليهما والله ما التحت
 فيكم قروحي ولا جرحي بمنديل

مررت بالقصر والأركان خالية
 من الوفود، وكانت قبلة القبل
 فلت عنها بوجهي خوف مستقد
 من الأعدى ووجه الود لم يمل
 والله ما فاز يوم الحشر مبغضكم
 ولا نجا من عذاب الله غيري ولي
 ولا رأي جنة الله التي خلقت
 من خان عهد الإمام العاضد بن علي

— ٧٢ —

أثمتى وهدأتى والذخيرة لى
إذا ارتهنت بما قدمت من على
والله ما زلت عن حبي لهم أبداً
ما أخر الله لى من مدة الأجل

ولم يكد الأمر يتم لصلاح الدين فى مصر حتى فكر جدياً فى الطريقة
التي يتغلب بها على الفرق المنبشثين فى الشرق . ولكن يظهر أن الوقت لم
يكن قد حان بعد للقيام بهذا العمل . فقد كان على صلاح الدين أن يبدأ
بتوحيد البلاد الإسلامية المحيطة بالصليبيين ، ومنها بلاد الشام التي مات
عنها نور الدين محمود، وتركها لغلام صغير التف حوله طائفة من الأمراء
الطامعين كانوا قد أوقعوا بينه وبين صلاح الدين . ولكن السلطان
صلاح الدين ما زال بهؤلاء الأمراء الطامعين حتى عزم على قصدهم
والتخلص منهم فى نهاية الأمر . فلما علموا بذلك فروا من وجهه ،
وتركوا له دمشق فدخلها بغير عناء ، ثم عاد إلى مصر ، فاستقبله الشعراء
ومنهم شاعر أتى من الموصل لهذه الغاية . وهذا الشاعر هو (الحسن
بن سعيد الشاتاني) . أنشد السلطان أبياتاً منها :

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا
فقم واملك الدنيا فانت بها أخرى
يمينك فيها الين واليسر فى اليسرى
فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى

ومن أولئك الشعراء العماد الأصفهاني . وكان قد انتقل من
خدمة نور الدين إلى خدمة صلاح الدين . فكان لا يمضي عليه يوم
إلا نظم فيه شعراً أو كتب نثراً . وبما قاله يومئذ يمدح السلطان ،
ويحثه على مواصلة الجهاد .

فديتك من ظالم منصف	وناهيك من باخل مسرف
أيُسْلِغُ دهرى قصدى وقد	قصدت بمصر ذرى يوسف
ويوسف مصر بغير التقى	وبذل الصنائع لم يوصف
فسر وافتح القدس واسفك به	دماء متى تجرها ينظف
وأهد إلى (الاسبتار) ^(١) البتار	وهد السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلاء	د يخلصك الله في الموقف !!

وفي أثناء ذلك كان على صلاح الدين أن يصطدم بالصلبيين من حين
إلى حين . والتقى بهم مرة على غير استعداد للقتال . فهزموه في جهة
(الرملة) واعتذر عنه الشعر عن هزيمته ومن ذلك .

قل للفرنجية الخذل رويدكو
بالتأر أو تخرج الشعرى من الحمل
ترقبوها من (الفوَّار) طالعة
خوارق الأرض تمحورونق الأصل

(١) يريد فرقة من أقوى فروع الفدائيين الصليبيين يقال لها (الاسبتارية) معروفة لنا
في تاريخ الحروب الصليبية كمعرفتنا بفرقة أخرى اسمها (الداوية) . والبتار السيوف
القاطعة . والجناس واضح في هذا البيت

حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم
أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتصق

مرت على إصبعيه لذة العسل ؟
والمعنى في هذه الآيات أن الشاعر يقول للفرنج — خذ لهم الله —
رويدكم أيها الفرنج فإن صلاح الدين سيثأر منكم عما قريب ولكم أن
تترقبوا جيوشه في جهة الفوار وهي تخرق الأرض وتملا الجوب بالفبار .
ثم يتجه الشاعر إلى صلاح الدين ويقول له ما أهون الجرح الذي أصبت به
من الفرنج إنه أشبه بلسعة النحل لا بد منها للحصول على الشهد . وهو هنا
النصر على الفرنج .

غير أن صلاح الدين هزم الفرنج بعد ذلك في موقعة أخرى كانت
أهم من الأولى شأننا وهي موقعة (مرج عيون) فوفد عليه الشعراء من
كل مكان يهنئونه بهذا النصر المبين . ومنهم الشاعر العراقي المشهور باسم
(التعاويذي) . وقد أنشده قوله :

إن كان دينك في الصباية ديني	فقف المطي برملى بيرين
ليت الضنين على الحب بوصله	لقى السباحة من صلاح الدين
ملك إذا علفت يد بزمامه	علقت بحبل في الحفاظ متين
كاد الأعادي أن يصيبك كيدها	لولم تسكدك برأيها المأفون
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم	بالنحس طائرهم بمرج عيون
وغادر السلطان مرج عيون . واتجه بجيشه نحو حصن من أقوى حصون	
الفرقة الصليبية المعروفة بالداوية . وهذا الحصن هو (بيت الأحزان)	

ومن أسمائه كذلك (حصن المخاض) . وكان هذا الحصن من أشد مامنى
به المسلمون فى ذلك الحين . ولكن صلاح الدين تمكن منه وانتصر
عليه وعاد إلى دمشق . وكان الشعراء فى انتظاره كالمعتاد . ومنهم الشاعر :
(أبو الحسن بن محمد المعروف بابن الساعاتى) وقد أنشد السلطان قوله :
وقفت على حصن المخاض وإنه

لموقف حق لا يوازيه موقف
وما رجعت أعلامك الصفر ساعة

إلى أن غدت أكبادها السود ترجف (١)
كبا من أعاليه صليب وبيعة
وشاد به دين حنيف ومصحف
أيسكن أوطان النبيين عصة
تمين لدى أيمانها وهى تحلف (٢)
نصحتكمو والنصح فى الدين واجب

ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف
وبيت يعقوب فى هذه المقطوعة هو (بيت الأحران) أو (حصن
المخاض) . والتورية واضحة فى هذه الأبيات وفيها يقول الشاعر للفرنج
من أصحاب هذا الحصن: اتركوا بيت يعقوب لابنه يوسف صلاح الدين
وعودوا من حيث أتيتم .

وتيسر للسلطان بعد ذلك فتح مدينة منبجة من مدن الشام هى (حلب)
وفرّح المسلمون كثيرا بهذا الفتح . وخف من أجله الشاعر المصرى

(١) كانت راية الأيوبيين صفراء اللون .

(٢) تمين أى تكذب — والشاعر يشير هنا إلى اليهود الكثيرة التى خانها الفرنج

المعروف (ابن سناء الملك) وأنشد بين يدي السلطان قصيدة طويلة منها :
 بدولة الترك عزت دولة العرب وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب
 وفي زمان ابن أيوب غدت حلب
 من أرض مصر وصارت مصر من حلب
 ومنها في وصف حلب ذاتها :

جليسة النجم في أعلى مراتبه
 وطالما غاب عنها وهي لم تغب
 وما نعتسه كمعشوق تمنعه
 أحلى من الشهد أو أشهى من الضرب (١)

ومنها كذلك :

ومذ رأت صده عن ربعها حلب
 ووصلته لبلاد الغير بالحلب
 غارت عليه ومدت كف مغتفر
 منها إياه وأبدت وجه مكثب
 واستعطفته فأولاهها عواطفه
 وأكثب الصلح إذ نادته عن كثب
 فتح الفتوح بلامسين وصاحبه
 ملك الملوك ومولاها بلا كذب

(١) الضرب بفتح الراء هو القهقهة

ثم تيسر للسلطان كذلك فتح مدينة (الموصل) وغيرها من المدن والاقطار الإسلامية التي تألفت منها ومن الديار المصرية والشامية تلك الجبهة الحربية التي لا بد من تأليفها قبل الالتقاء بالصليبيين في موقعة فاصلة بينهم وبين المسلمين .

وتأهب السلطان بعد ذلك تأهباً كاملاً لملاقاة الفرنج . وذهب بجيشه أولاً إلى جهة (طبرية) فأخذها عنوة من يد الفرنج . ولم يكد المسلمون يسمعون أنه في طريقه إلى (القدس) حتى قصده العلماء والأدباء والفضلاء والصوفية من مصر وغير مصر ؛ بحيث لم يتخلف أحد من المعروفين عن الحضور ليشهد بعينه موقفاً من مواقف هذا البطل الكبير قيل فيه « إن الإيمان كله قد برز للشرك كله » .

ثم ما كاد الظفر يتم لصالح الدين في موقعة حطين — وكان ذلك ليلة القدر من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة للهجرة — حتى تصايح المسلمون الله أكبر الله أكبر .

وجلس السلطان في خيمته . فتزاحم عليه الشعراء كل يريد أن يسبق صاحبه في تقديم تهنئته . فكان أولهم في الترتيب نقيب الأشراف بالديار المصرية وهو (الجوائى) وقد أنشد بين يدي السلطان قصيدة منها :

أترى منا ما بعيني أنظر ؟
القدس يفتح والفرنجة تكسر ١١

(وقامة (١)) قت من الرجس الذى

بزواله وزوالها تطهر

(١) اسم أطلقه المسلمون في تلك العصور على كنيسة القيامة تحقيراً لها مدفوعين في ذلك بالحناسة الدينية الذى كان لا بد من وجودها عند الفريقين في أثناء الحروب الصليبية .

— ٧٨ —

ومليكمهم في القيد مصفود ولم
يُرَ قبل ذاك لهم ملك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فُتِّحَ الشَّامُ وطُهِرَ القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد
ماذا يقال له وماذا يذخر ؟
يا يوسف الصديق أنت بفتحها
فاروقها عمر الإمام الأطهر
ثم تقدم ابن سناء الملك فألقى قصيدته التي منها :
لست أدري بأي فتح تهنئنا
يا مُنِيلَ الإسلام ماقد تمني
أنهيك إذ تملك شاماً
أم نهيك إذ تملك عدنا ؟
قد ملك الجنان قصرًا فقصرًا
إذ فتحت الشام حصنا فحصنا
ومنها في وصف ملوك الفرنج وهم وقوف بين يدي صلاح الدين
وفي أيديهم وأرجلهم القيد :

— ٧٩ —

وتصيدتهم بحلقة صيد
تجمع الليث والغزال الأغنا
وجرت منهم الدماء بحارا
فجرت فوقها الجزائر سفنا
صنعت منهم وليمة عرس
رقص المشرقي فيها وغنى
وحوى الأسر كل ملك يظن الد
هرَ يفنى وملكه ليس يفنى
كم تمنى اللقاء حتى رآه
فتمنى لو أنه ما تمنى
ومنها :

لا ينقص النّام منك التهانى
كل قطر وكل صقع يهنا
قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً
وحويت الآفاق سهلاً وحزناً
واغتدى الوصف فى علاك حسيراً
أىّ لفظ يُقال أو أى معنى ؟

وهكذا تنافس الشعراء فى وصف هذا اليوم العظيم الذى هو يوم
حطين . وتكاثر القصائد على صلاح الدين وهى تفد عليه من جميع
البلاد الإسلامية . وأصبحت هذه القصائد البليغة التى قلت فى ذلك اليوم

تعرف في تاريخ الأدب العربي باسم (القدسيات) . والقصائد المتقدمة
تعتبر نموذجاً منها ،

الشعر السياسي وخلفاء صلاح الدين

توفي صلاح الدين وترك ملكاً عريضاً لأولاده من بعده . وكانت
مصر من نصيب ابنه (العزيز) . والشام من نصيب ابنه (الأفضل) .
غير أنه كان لصلاح الدين أخ داهية هو (الملك العادل) لم يزل يعلو
نجمه ويعظم أمره حتى أصبح في حقيقة الأمر الوارث الحقيقي لهذا الملك
العظيم . وخلفه أولاده من بعده في هذه التركة . فكانت مصر من نصيب
ولده (الكامل محمد) الذي ملك البلاد نحواً من أربعين سنة . عشرين
منها وهو نائب عن أبيه . وعشرين أخرى كان فيها مستقلاً بمصر .
وكان الفرنج في حكم الملك العادل قد استولوا على برج السلسلة الذي
يعتبر مفتاح الثغر الذي هو أعظم ثغور الإسلام إذ ذاك ، وهو ثغر
دمياط ، فلما علم العادل بذلك مرض لساعته ومات . وتولى مكانه ابنه
(الكامل محمد) . فاستنجد الكامل هذا بإخوته من ملوك الأيوبية
لاستنقاذ دمياط . وكان مما كتبه إلى أخيه (الملك الأشرف) صاحب
مملكة (خلاط) يستحثه على سرعة المجيء إليه :

يامسعدى إن كنت حقاً مسعياً

فانهض بغير تلبث وتوقف

واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ

إلا على باب الملك الأشرف

— ٨١ —

وأقرا السلام عليه من عبد له
 متوقع لقدمه متشوف
 وإذا وصلت إلى حماه فقل له
 عني بحسن توسل وتلطف
 إن أت عبدك عن قليل تلقه
 ما بين كل مهند ومثقف
 أو تبط عن إنجاده فلقاؤه
 يوم القيامة في عراص الموقف !

وجلس الملك الكامل ينتظر الرد من إخوته وإذا الفرنج يفلحون
 في حصار دمياط ويضيقون الخناق على أهلها وجنودها ، وإذا بسهم
 نشاب يلتقي بين يدي الكامل ، وفيه رسالة من الأمير جمال الدين الكنتاني
 من أهل دمياط وفيها يقول :

يامالكي : دمياط ثغر هدمت
 شرفاته ، كادت تهتك أصوله
 يقريك من أركى السلام تحية
 كالمسك طاب دقيقه وجليله
 ويقول عن بعد وإنك سامع
 حتى كأنك جاره ونزيله
 يا أيها الملك الذي ما إن يرى
 بين الملوك شبيهه وعديله

— ٨٢ —

هذا كتاب موضح من حالى
 ما ليس يمكنى لديك أقوله
 أشكو إليك عدو سوء أجدت
 بجميعه فرسانه وخبوله
 فالبر قد منعت إليه طريقه
 والبحر عز لنصره أسطوله
 تخضوعه باد على أبراجه
 وحنينه وبكاؤه وعويله
 ولو استطاع لأمَّ بابك لاثدا
 لكنه سُدَّت عليه سبيله
 والله أعطاك الكثير بفضله
 ورضاه عن هذا الكثير قليله
 والشفر ناظره إليك محقق
 ما أن يمل من الدموع هطوله
 ولئن قعدت عن القيام بنصره
 جَفَّت نضارته وبان ذبوله
 ووهت قوى القرآن فيه وعلقت
 صلبانه وتُسلي به إنجيله
 وعلا صدى الناقوس فى أرجائه
 ونخى على سمع الورى تهليله

— ٨٣ —

هذا وحقك وصف صورة حاله
حقا وجملة وذا تفصيله
وكفاك يا ابن الأكرمين بأنه
أضحى عليك من الورى تعويله
فاذخر ليوم البعث فعلا صالحا
الله ضامن أجره وكفيله

ولم يكده الملك الكامل ينتهى من قراءة هذه الرسالة حتى نادى
في القاهرة بالنفير العام (أى الجهاد) . ثم لجأ الملك الكامل إلى حيلة
أخرى تفوت على الفرنج قصدهم . وهى أنه فتح جميع السدود التى على
النيل، وترك الماء يحيط بالفرنج من كل جانب، حتى أيقنوا أنهم معزولون
ومقتولون بأيدي المسلمين . ففت ذلك فى عضدهم ، وبادروا إلى طلب
الصلح من الملك الكامل . فأجابهم إليه وعادوا إلى بلادهم سراعا يحمدون
الله على السلامة والعافية .

فانظر إلى صنع الله بالمسلمين فى مصر ، وكيف وقف النيل نفسه
إلى جانب المصريين يصد عنهم هجوم المعتدين ، ويبطل كيد الكائدين ؟
وجلس الملك الكامل محمد وإخوته بعد رحيل الفرنج عن دمياط
بجلس أنس . وكان ذلك بمدينة المنصورة فأمر الملك الأشرف موسى
من إخوة الملك الكامل محمد جارية له يقال لها (ست الفخر) فغنت على
عودها هذه الأبيات : -

ولما طغا فرعون عكا ببغيه وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نوحهم موسى وفى يده العصا فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف طربا عظيما وقال لها « كررى ، فشق ذلك على
الملك الكامل ، وأمرها فسكتت وقال لجاريته هو « غنيه أنت » .
فغنت على العود :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتظروا
لما قد جرى في وقتنا وتجددا
أعباد عيسى ، إن عيسى وقومه
وموسى جميعا ينصرون محمدا
فطرب الملك الكامل وأمر لها بخمسمائة دينار ولجاريه أخيه
الأشرف بخمسمائة مثلها . والآيات الأخيرة من قصيدة لقاضى غزة
— هبة الله بن محاسن — وكان حاضرا المجلس . وقد أنشد يومئذ بين
يدى الملك الكامل محمد :

هنيئا فإن السعد راح مخلدا
وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحا لنا بدا
مبينا وإنعاما وعزا . مخلدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه
وأصبح وجه الشرك بالظلم مسودا
ولما طفا البحر الخضم بأهله الط
خاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سلّ عزمه
صقيلا كما سل الحسام مجردا

ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا
 عقيرته فى الخافقين ومنشدا
 أعباد عيسى ابن عيسى وقومه
 وموسى جميعا ينصرون محمدا !

ولا شك أن التورية فى هذا البيت واضحة متى عرفنا أن اسم الملك
 الكامل (محمّد) واسم أخيه الملك الأشرف (موسى) واسم أخيه
 الآخر الملك المعظم (عيسى) .

وكان من الشعراء الذين بعثوا بقصائدهم إلى ملوك الأيوبيه فى
 مجتمعهم بالمنصورة (شرف الدين بن عنين) وقصيدته هذه تعتبر من
 عيون الأدب العربى فى باب الحاسة ومنها قوله :

سلاوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
 إذا جهلت آباءنا والقنا للدنا
 غداة التقينا دون دمياط جحفلا
 من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
 قد اجتمعوا رأيا وديننا وهمسة
 وعزما وإن كانوا قد اختلفوا سنا
 تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت
 جموع كأن الموج كان لهم سفنا
 وأطعمهم فينا غرور فأرقسوا
 إلينا سراعا للجهاد وأرقلنا

فما برحت سمر الرماح تتوشهم
 بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
 سقيناهمو كأسا نعت عنهم الكرى
 وكيف ينام الليل من عدم الأمننا
 لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا
 طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
 بدا الموت من زُرْق الأسننة أحمرنا
 فآلقوا بأيديهم إلينا فأحسننا
 وما برح الإحسان منا سجية
 نورثها من صيد آباءنا الابنا
 وقد جربونا قبلها في وقائع
 تعلم غُمر القوم منا بها الطعنا
 أسود وغى لولا وقائع سمسنا
 لما لبسوا قيادا ولا سكنوا سجننا
 مآثر مجسد سودتها سيوفنا
 طوال المدى يفنى الزمان ولا تفى
 وقد عرفت أسيافنا ورقابهم
 مواقعها منا فإن عاودوا عدنا
 منحناهمو منا حياة جديدة
 فعاشنوا بأعناق مقلدة منّا

— ٨٧ —

ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا
ولو غا . ولكنا ملكنا فأسجنا
وكان للملك الأشرف موسى شاعر مصرى يختص به ، هو كمال
الدين بن النبيه بعث إليه فى مخيم المنصورة قصيدة طويلة منها :
للجنة العيش والأفراح أوقات
فأنشر لواء له بالنصر عادات
أمام جيشك أنى سار أربعة
نصل ونصر وأراء ورايات
وتحت غيل القنا آساد معركة
لها ثبات وفى الهيجاء وثبات
أهله فى سماء من مغافرها
لها الكتائب والأفلاك هالات
تهتز أعطافهم يوم الجلال إذا
غنّت لهم من بنات القين^(١) قينات
صفائح هى إن دب المنون بها
ضخائف كتبت فيها المنيات
إن مسّ شمس الضحى من لمعها رمد
كحلنها بالعجاج الأعوجيات^(٢)

(١) بنات القين : السيوف

(٢) الأعوجيات : الرماح

ومنها :

الويل للروم والإفرنج من ملك
له من النصر والتأييد عادات

أين النجاة لسرب الروم من ملك
ضار له من رماح الخط رايات
دمياط ثغر ونار الحرب موقدة

وأنت موسى وهنذا اليوم ميقات
ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا

ولا تخف ما حبال القوم حيات
طأم بجيشك لا تحفل بكثرتهم

فإنهم لبغاث الطير أقوات (١)
أصبتهم بسهم الرأى من حلب

وللمكايد من بعد إصابات
فظهر الله ذاك الثغر من قلع (٢)

أصابه وانجلى تلك الثنيات
قتلا وسلبا وأسرا وانتهاج ثرى

لله كم حسنت تلك الإساءات
شتتها غارة كالنار محرقة

للكفر وهى على الإسلام جنات

(١) بغاث الطير صغارها

(٢) القلع صخرة فى الأسنان استعيرت هنا لما أصاب الثغر من أذى العدو

— ٨٩ —

لله من ثغر دمياط وبرزخها
 فتح له تفتح السبع السموات
 شرحت صدر رسول الله وانحسرت
 بنصره الدين والدنيا غمامات
 يوم على الروم ينشي ريحه سحبا
 أمطارهن مصيبات مصيبات
 رأوا جيوش بني أيوب يقدمها
 ليث له في جيوش الشرك هجمات
 فللرماح كلام أو صدورهمو
 وللصوارم أعناق وهامات
 تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم
 والموج ترقصه تلك المسرات
 الله أكبر أن تسمى منامهم
 تتلى وتنسى من القرآن آيات
 ما كل من طلب العلياء أدركها
 ووافقت سعيه فيها سعادات

وإن نفس لا نفس شاعرنا المصري المعروف بالبهاء زهير . وكان
 لا بد له من أن يسمع صوته في ذلك اليوم من أيام النصر . من أجل
 ذلك بعث إلى الملوك الأيوبية وهم بالمنصوره بقصيدة رائعة منها :

— ٩٠ —

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت والحمد لله نعمة
تقصر عنها قدره الحمد والشكر
يقل لها بذل النفوس بشارة
ويصغر فيها كل شيء من النثر^(١)
ألا فليقل ما شاء من هو قاتل
ودونك هذا موضع النظم والنثر
ومنها في مدح الكامل ملك مصر :

أياديه بيض في الورى موسوية
ولكنها تسعى على قدم الخضر
ومن أجله أضحي المقطم شائخاً
ينافس حتى طور سيناء في القدر
فيا ملكاً رام الملائك رفعة
من الملائكة الأعلى له أطيب الذكر
وما فرحت مصر بهذا الفتح وحدها
لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فسلو لم يقيم بالله حق جهاده
لما سلمت دار السلام من الذعر

(١) النثر هنا هو النثر وهو ما ينثر على العروس من الذهب والفضة

— ٩١ —

وأقسم لولا همة كاملة
 لخافت رجال بالمقام وبالبحر
 فمن مبلغ هذا الهناء بمكة
 ويثرب ينهيه إلى صاحب القبر
 فقل لرسول الله إن سميهِ (١)
 حتى بيضة الإسلام من نوبة الدهر
 هو الكامل المولى الذى إن ذكرته
 فيا طرب الدنيا ويا فرحة الدهر
 به أرْتَجِعْتَ دميّاط قسراً من العدا
 وطهرها بالسيف والملة الطهر
 ومنها :

سدت سبيل البر والبحر عنهمو
 بسابحة دهم وسابغة غمر
 أساطيل ليست فى أساطير من مضى
 بكل غراب راح أفتك من صقر
 وجيش كمثل الليل هولا وهيبة
 وإن زانه ما فيه من أنجم زهر
 ورويت منهم ظامى البيض والقنا
 وأشبع منهم طاوى الذئب والنسر

(١) يقول (سميهِ) لأنه من أسماء الملك الكامل محمد

— ٩٢ —

وجاء ملوك الأرض نَحْوَكَ خُضْعاً
تَجْرُرُ أَذْيَالُ المِهَانَةِ والصَّغَرِ
كفى الله دُمِيَّاطَ المِكَارِهِ إِنِّهَا
لَمَنْ قِبْلَةُ الإِسْلَامِ فِي مَوْضِعِ النَّحْرِ
وَمَا طَابَ مَاءُ النِّيلِ إِلَّا لِأَنَّهُ
يَحِلُّ مَحَلَّ الرِّيقِ مِنْ ذَلِكَ الشَّجَرِ (١)
فَلَّهِ يَوْمَ الْفَتْحِ يَوْمَ دُخُولِهَا
وَقَدْ طَارَتْ الأَعْلَامُ مِنْهَا عَلَى وَكْرٍ
وَقَدْ فَاقَ أَيَّامَ الزَّمَانِ بِأَسْرَها
وَأَنسى حَدِيثاً عَنْ حَنِينٍ وَعَنْ بَدْرِ
* * *

حملة صليبية كبرى من أوروبا تسترجع بيت المقدس

انزعجت أوروبا من هذه الأخبار أيما انزعاج . ولم تلبث جموعهم أن أتت إلى الشرق في حملة صليبية كبيرة بقيادة الإمبراطور فردريك إمبراطور الدولة الرومانية . وفي خطوب كثيرة وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل على أن يأخذ الإمبراطور القدس بشرط أن يبقى هذا القدس خراباً لا تتجدد أسواره ولا تشيد حصونه ، وأن تكون قرى المسلمين حوله لهم لا يزعمهم أو يزاحمهم فيها الفرنج . وأما الحرم

(١) في هذا البيت صنعة شعرية فائقة — لاتنحني على القارىء

والصخرة المقدسة والمسجد الأقصى فتظل في أيدي المسلمين لا يدخلها
الفرنج إلا للزيارة فقط .

وهكذا اضطر المسلمون إلى التسليم في القدس ، فاشتد بكاءهم عليه
منذ ذلك الوقت ، وانقلبوا على الملك الكامل يذموه ويشنعون عليه ،
وأذنوا عليه كذلك في غير أوقات الأذان إمعانا في إيدائه والنيل منه .
ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل عقد الكثيرون منهم اجتماعات حافلة
هنا وهناك ، وخطب فيهم الأئمة والوعاظ ، وذكروهم بفضائل القدس
وضاعفوا من حزنهم عليه . وأشد الإمام الحافظ شمس الدين سبط بن
الجوزى في بعض هذه المحافل قصيدة مؤثرة منها قوله :

أعيني لا ترقى من العبرات
صلى في البكا الأصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفى فيضها
توقد ما في القلب من جمرات
ويافهم نوح بالشجو منك لعله
يروّح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره
على موطن الإخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحي والهدى
على مشهد الأبدال والبدرات^(١)
على سلم المعراج والصخرة التي
أنافت بما في الأرض من صخرات

(١) الأبدال والبدرات درجات عالية من درجات التصوف .

— ٩٤ —

على القبلة الأولى التي اتجهت لها
 صلاة البرايا في اختلاف جهات
 على خير معمر وأكرم عامر
 وأشرف مبنى^١ لخير بناء
 عفا المسجد الأقصى المبارك حوله
 رفيع عماد عالي الشرفات
 عفا بعد ما قد كان للخير موسما
 وللب والإحسان والقربات
 خلا من صلاة لا يمل مقيمها
 يوشع بالآيات والسورات
 لتبك على ما حل بالقدس (طيبة)^(١)
 وتشرحه في أكرم الحجرات
 لتبك عليها (مكة) فهي أختها
 وتشكو الذي لاقت إلى عرفات
 ومنها :

أما علت أبناء أيوب أنهم
 بمسعاته عدوا من السروات
 وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم
 وهل ثمر إلا من الزهرات ؟
 فمن لي بنواح ينحن على الذي
 شجاني بأصوات لهن شجاني

(١) طيبة اسم من أسماء المدينة .

يرددن بيتا للخزاعي قاله يؤبن فيه خيرة الخيرات
 (مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات^(١))
 وقد كان على الفرنج المقيمين بالشرق أن يحترموا المعاهدة التي عقدها
 الإمبراطور فردريك هذا مع الملك الكامل . وفيها تعهد الإمبراطور
 بأن لا يقيم أسوار بيت المقدس . ولسكن الفرنج أقاموا هذه الأسوار .
 فلما بلغ ذلك الملك الناصر داود صاحب دمشق - وذلك بعد وفاة الملك
 الكامل بمدة من الزمن - ذهب بنفسه إلى القدس وهدم الأسوار التي
 بناها الفرنج . واسترد بيت المقدس ، وفرح المسلمون باسترداده فرحا
 عظيما . وفي ذلك يقول شاعرنا المصري جمال الدين بن مطروح :
 المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلاً سائراً
 إذا غدا بالكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً
 (فناصر) طهره أولاً (وناصر) طهره آخراً
 وانزعج الأوربيون مرة أخرى لهذه الأخبار ، وعزموا على الحىء
 إلى الشرق في حملة صليبية كبرى كذلك . وكان على رأس هذه الحملة
 الصليبية الأخيرة الملك لويس التاسع ملك فرنسا .
 وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب إذ ذاك مريضاً بدمشق ، فخرج
 في محفة وجيء به إلى مصر ليشرق بنفسه على إعداد الأسطول والجيش .
 وبينما هو على هذه الحال إذا بالملك لويس التاسع يبعث إليه بكتاب
 شديد اللهجة كان بمثابة إنذار ، قرأه السلطان فاغرو رقت عيناه بالدموع
 وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم أمر بهاء الدين زهيراً فكتب

(١) هذا البيت من شعر دعبل الخزاعي . وهو شاعر شيعي معروف في العصر العباسي

جواباً له أشد منه لهجة . ثم مات الملك نجم الدين أيوب . فقوى ذلك من عزم الصليبيين . وشاءت الظروف أن يحاربهم المصريون وأن يقف (النيل) العظيم للمرة الثانية إلى جانبهم . فأحاط هذا النيل بالعدو من كل ناحية . و انتهت الموقعة بهزيمة الفرنج و وقوع ملكهم لويس التاسع نفسه في الأسر . فقيده المسلمون بقيد من حديد واعتقلوه بدار ابن لقمان بالمنصورة واكلوا به أحد الطواشي واسمه « صبيح »

وبقى الملك لويس سجيناً ومعه قواده وأمرأؤه حتى عرض على المسلمين أن يطلقوه بفدية قدرها أربعمائة ألف دينار . وكان المسلمون في حاجة إذ ذاك للمال فأطلقوه وتركوه يفر إلى (عكا) . وسمع المصريون أنه جدد العزم على العودة إلى مصر ، فسخروا منه ، ونظم جمال الدين بن مطروح في هذا المعنى شعراً منه قوله :

مقال نصح من قئول نصيح
تحسب أن الزمر ياطبل ريح
ضاق به عن ناظريك الفسيح
بحسن تدبيرك بطن الضريح
إلا قتيل أو أسير أو جريح
لعل عيسى منكمو يستريح
فرب غش قد أتى من نصيح
لأخذ ثار أو لفعل قبيح
والقيد باق والطواشي صبيح !!

قل للفرنسيس إذا جئته
أتيت مصر تبغى ملكها
فساقك الحثين إلى أدم
وكل أصحابك أودعتهم
سبعون ألفاً لا يرى منهمو
ألمسك الله إلى مثلها
إن يكن البابا بذاً راضياً
فقل لهم إن أزمعوا عودة
دار ابن لقمان على حالها

الفصل الثالث

الشعر الصوفي

قلنا إن الشعب المصرى منذ القديم يميل بطبعه إلى الدين ، ويستجيب لكل دعوة تقوم على أساسه أو تمت إليه بصله أو بأخرى . ولا موضع للشك فى أن الميول الدينية متأصلة فى هذا الشعب منذ وجد إلى اليوم .

ومن ثم كانت البيئة المصرية تربة صالحة لنمو التصوف ولذا كانت مصر مهداً للرهبانية المسيحية قبل الإسلام ، ثم مهداً للتصوف بعده . وقد ظهر التصوف الإسلامى فى مصر أول مظهر فى القرن الثانى للهجرة . وظهر من المتصوفة فى مصر فى القرن الثالث الهجرى شاعر يقال له (ذو النون المصرى) المتوفى سنة ٢٤٥ هـ . وفى العصر الفاطمى عرف من أهل مصر متصوف مشهور يقال له (ابن الكيزانى) . ثم فى العصر الأيوبي ظهر إمام المتصوفة فى مصر (عمر بن الفارض) . وفى العصر المملوكى ظهر الشاعر الصوفى الذائع الصيت المعروف (بالبوصيرى) ، وفى العصر العثمانى اشتهر بالتصوف شيخ كبير هو (الشعرانى) .

وربما كان أول معنى من معانى التصوف فى مصر ؛ أعنى منذ ظهوره بها فى القرن الثانى للهجرة ، هو الزهد والانصراف عن الدنيا والوقوف ضد

السلطان ومعارضته في الأمور التي يرى الشعب أنه يتجاوز فيها حد الشرع ، أو أهدر بها مصلحة من مصالح الرعية . وباختصار كان من معاني التصوف إذ ذاك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ثم أصبحت للتصوف بعد ذلك معان أخرى زيدت عليه شيئاً فشيئاً ، وتطورت هذه المعاني بتطور الظروف والأحوال . ومصر في كل حالة منها خاضعة خضوعاً تاماً لهذا التطور الذي حدث :

فهذا هو (ذو النون المصري) وقد طلع على الناس بمذهب جديد في التصوف ، أو نزعة جديدة من نزعاته اتجه فيها إلى ما يسمى (بالحب الإلهي) . والظاهر أن هذه النزعة كانت غريبة أول الأمر على أذهان المصريين فتروكوها ومضوا في نزعتهم الأولى -- وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمحض على الزهد والانصراف عن الدنيا . وبقي الحال على ذلك حتى ظهر (ابن السكيت) في العصر الفاطمي ، فعاد إلى القول (بالحب الإلهي) . وعبر عن نزعته هذه بأشعار وقيمة صريحة ، وليست غامضة في الوقت نفسه كما سنجد ذلك عند رجل كابن الفارض . ومن أشعار ابن السكيت هذا على سبيل المثال :

أصرفسوا عني طمسيبي	ودعسوني وحبسيبي
عالمسوا قلبي بذحتترا	ه فقسما زاد لهيبي
طاب هتسكي في هواه	بسين واش ورفيسب
ليس من لام وار	أطنب فيسه بدياسب

جسدى راض بسقى وجفونى بنحىي
والحبىب فى هذه الأشعار وأمثالها هو الذات الإلهية . والشاعر
هنا يستعذب فى حب الله كل شيء حتى إنه لا يشعر بالمرض الذى
يصيب جسمه ، كما لا يحس بلوم اللاتمين وعذل العاذلين فى سبيل ذلك .
فهو إذن ليس بحاجة إلى طبيب يداويه ، ولا ناصح ينصحه بالعدول
عن هذا الحب .

بقى التصوف المصرى واضحاً على هذا النحو لا يحتاج الناس إلى عناء
كبير فى فهمه ، ولا عناء أكبر فى فهم الأشعار التى تعبر عنه إلى أن كان
عهدنا بالشاعر الكبير :

عمر بن الفارض :

وهو أبو حفص عمر بن أبى الحسن . ولد بمصر فى عام ٥٧٦
هـ . وتوفى بها عام ٦٣٢ هـ . وأدرك هذا الشاعر من ملوك بنى أيوب
أربعة . وهم صلاح الدين ، وابنه العزيز ، ثم العادل وابنه الكامل .
ينسب إليه الدار فى كنف أديب عفاف وصيانة وعبادة وديانة
وזהد . وثابتة . والتغل بفقهاء السامى . ودرس الحديث . ثم حجب
إليه العلماء وسالكى من التصوف . זהد وتجرد عن نعيم الدنيا .
وبدأ سلوكه بالانكسار عند (وارء) المستضعفين) بجبل المقطم .
وأشهر به وشر نفسه ، ووجه رياسته بآفة . وكان يترك الطعام والشراب
مدة تسب إلى عشرة أيام فى أكثر الأيام . وبقى مكباً على هذه
الرياسة الروحية الدائمة مدة طويلة . ثم فكر الشاعر فى الرحيل إلى

الحجاز . وحول رحلته هذه قصص كثيرة يعرفها المعنيون بهذه السيرة .
وهناك بالحجاز بقى الشاعر خمسة عشر عاما كاملة رجع بعدها إلى مصر
ونفسه تسيل حشرات . على ما مضى من أيام (الفتح الإلهى) بتلك
البقعة الطاهرة المقدسة . وفى الحنين إلى مكة المكرمة يقول شاعرنا
الصوفى على طريقته المعروفة :

لعل أصيحابى بمكة يُبْرِدُوا
بذكر سُلَيْمَى ما تُجِنُّ الأضالع
وعلى الليلات التى قد تصرمت
تعود لنا يوما فيظفر طامع
ويفرح محزون ويحيا مقيم
ويأنس مشتاق ويلتذ سامع^(١)

ولابن الفارض ديوان شعر شرح فيه مذهبه فى التصوف ، وهو
المذهب الذى يدور حول (الحب الإلهى) . وفى هذا الديوان قصيدة
تسمى (التائية الكبرى) عدد أبياتها يربو على سبعمائة بيت ، ودعها
الشاعر كل أفكاره فى التصوف ، وكشف فيها عن مذهبه فيه .

ويحدثنا التاريخ أن ابن الفارض تأثر فى مذهبه هذا بالفيلسوف
الصوفى المعروف (محي الدين بن عربى) الأندلسى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ .

(١) ابن الفارض شديد الكلف فى شعره بصيغ التصغير كما نرى فى تصغير
(صاحب) ، (وليله) الخ .

و خلاصة القول في مذهب ابن عربي أنه من المؤمنين بما سمي عند المتصوفة (بوحدة الوجود) . والقائلون بهذه الفكرة ينظرون إلى الخالق والمخلوق على أنهما أسمان لشيء واحد لا يتعدد . وتطبيق ذلك على ابن الفارض أنه في مسألة (الوجد) كان يرى نفسه والذات الإلهية شيئاً واحداً لا شيئين متميزين ، وابن الفارض لا يصل إلى هذه الحالة من الاندماج والفناء في الذات الإلهية عن طريق عقله ، ولكن عن طريق قلبه ، ولا يتم له الشعور بهذه الحالة إلا في غيبوبة عن نفسه وعقله ؛ بحيث إذا عاد إليه عقله ونفسه فهنا فقط يشعر بوجوده الذاتي الذي يستقل به عن وجود الذات الإلهية .

غير أن أشعار ابن الفارض المعبرة عن حالات وجدته التي شرحنا بعضها الآن أشعار تتصف بالغموض الشديد . فلا يكاد يسهل على القارئ العادي أن يفهم شيئاً منها إلا بكد ذهن ، وإعمال فكر .

ومن الأفكار التي قال بها ابن الفارض وكان لها كذلك أثر واضح في شعره الفكرة القائلة (بالنور المحمدي) وانتقال هذا النور منذ بدء الخليقة عبر الأجيال المتعاقبة ، وعبر الأنبياء والرسل الذين تبع بعضهم بعضاً من لدن آدم عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم . ولهذا الفكرة أثر كبير في أشعار المصريين من المتصوفة الذين استمسكوا بحقيقة النور المحمدي ؛ وذلك من عهد عمر بن الفارض إلى أواخر العصر العثماني وربما إلى اليوم .

ومن شعر ابن الفارض في معنى (النور المحمدي) قوله :

— ١٠٢ —

أتم قروضى وتغلى أتم حديثى وشغلى
ياقبلتى فى صلاتى إذا وقتت أصلى
جمالكم نصب عيني إليه وجهت كلى
آنست فى الحى نارا ليلا فبشرت أهلى
قلت امكثوا فلعلى أرى هداى لعلى
دنوت منها فكانت نور المكلم قبل
وصرت موسى زمانى مذ صار بعضى كللى

بهذه الطريقة الشعرية الجميلة أخذ ابن الفارض يصور لنا انتقال
النور المحمدى بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى أن ظهر منهم
موسى وعيسى ومحمد .

ومن صوفية مصر فى ذلك العصر :

ابراهيم الدسوقي :

تذكره هنا لا شىء إلا أنه يتفق مع ابن الفارض فى كثير من آرائه
وأفكاره ونزعاته ومذاهبه . فهو مثله فى القول (بوحدة الوجود) .
وهو مثله كذلك فى القول (بالحب الإلهى) ولسكن شعر الدسوقي فى
التعبير عن هذه المعانى أسهل من شعر ابن الفارض فى ذلك . وهذا
نموذج من هذا الشعر فى الحب الإلهى . قال الدسوقي :

سقانى محبوبى بكأس المحبة فتهت عن العشاق سكرًا يتخلوتنى
ولاح لنا نور الجلالة لو أضأ لصم الجبال الرأسيات لدكست

وكننت أنا الساقى لمن كان حاضرا أطوف عليهم كرة بعد كرة
ونادمنى سرا بسر وحكمة وإن رسول الله شينخى وقرتى
ثم قال فى (وحدة الوجود) :

تجلى لى المحبوب فى كل وجهة فشاهدته فى كل معنى وصورة
وخاطبني منى بكشف سرائرى فقال: أتدرى من أنا؟ قلت منيتى
فأنت حياى بل أنا أنت دائما إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتى
فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته بغير حلول بل بتحقيق نسبتي
فصرت فناء فى بقاء مؤبد لذات بديمومية سرمدية
ونعيمى عنى فأصبحت سائلا لذاتى عن ذاتى لتغلى بغيبتى

والشاعر فى البيت الرابع يفرق بين مذهبين من مذاهب التصوف :

أحدهما — المذهب القائل بوحدة الوجود . وقد سبق شرحه

وثانيها — المذهب القائل بالحلول وأصحابه يتظرون إلى الخالق
والمخلوق على أنهما شيئان متمايزان يحل أحدهما فى الآخر كما يحل
الماء فى الخمر . وهذا ما يئزه الشاعر نفسه عنه فى هذا الشعر . فهو ليس
من القائلين (بالحلول) . وإنما هو من القائلين (بوحدة الوجود) .
فتأمل أيها القارى ذلك جيدا عند قراءة هذا الشعر .

وقد آثرنا الإتيان بنماذج من شعر الدسوقي فى (وحدة الوجود)
لأن الدسوقي أوضح من ابن الفارض فى هذا الشعر . ولو قد فعلنا
عكس ذلك لوجد القارى شيئا من المشقة فى فهم ابن الفارض عندما يعبر
عن هذه الفكرة من أفكار المتصوفة .

وترك العصر الفاعلي والعصر الأيوبي إلى عصر المماليك فنلتقى
بشاعر صوفي كبير هو : —

البوصيري :

وهو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري . قيل إنه ينتمي
إلى فرع من قبيلة صنهاجة ببلاد المغرب . فهو إذن من أصل مغربي . وأما
(بوصير) التي سمي بها هذا الشاعر فقريّة مصرية تقع بين الفيوم
وبني سويف . وفيها قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وبها
عاش الشاعر في كنف أسرته .

أقبل البوصيري على التصوف فدرسه في أول أمره على
(أبي العباسي المرسى) . وهو الذي خلف أبا الحسن الشاذلي في طريقته
الصوفية . غير أنه من الحق أن يقال إن البوصيري لم ينجح كل النجاح
في أن يكون متصوفا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة في عصره . ومع
هذا أو ذاك فالبوصيري يعتبر من خيرة الشعراء الذين مدحوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم . ولأن هذا المدح في ذاته ضرب من ضروب
التصوف ، فقد بناء الشاعر على فكرة هامة من أفكار الصوفية ، وهي
الفكرة المعروفة (بالحقيقة المحمدية) أو (النور المحمدي) الذي انتقل
عبر الأجيال منذ بدء الخليقة إلى عهدنا بمحمد صلى الله عليه وسلم .
ولعل أهم المداخل النبوية التي نظمها البوصيري وهي كثيرة قصيدتان : —
(إحداهما) لهمزية وقد سماها (أم القرى في مدح خير الورى) .
وعدد أبياتها أربعائة وستة وخمسون بيتا ومطلعها :

كيف ترقى رُقِيَّكَ الأنبياء يا سماء ما طاوَلَتْهَا سماء

(والثانية) ، الميمية . وهى المسماة (بالبردة) أو (البرأة) ؛ فقد قيل إن البوصيرى وفد بها على قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو مريض فعوفى من ساعته . وعدد أياتها مائة وواحد وستون بيتا ومطلعها قوله :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
ونظرة شاملة فى هذه المدائح النبوية التى نظمها البوصيرى تدلنا دلالة قاطعة على أنه نفى عن محمد صلى الله عليه وسلم صفة الربوبية فقط ، ثم مدحه بكل صفة من الصفات فيما وراء ذلك . وانظر هنا إلى قوله :-

دع ما ادّعت النصارى فى نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
فإن فضل رسول الله ليس له
حد فيعرب عنه ناطق بفهم
والنسب إلى ذاته ما شئت من شرف
والنسب إلى قدره ما شئت من عظيم
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى
فى القرب والبعد فيه غير متفحم
كالشمس تظهر للعينين من بُعد
صغيرةً وتكُلُّ الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته
قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

— ١٠٦ —

فببلغ العلم فيه أنه بشر
وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آى أتى الرسل الكرام بها
فإنما اتصلت من نوره بهم
وفى البيت الأخير إشارة إلى النور المحمدي الذي سبق ذكره .
وعن هذه الفكرة صدر البوصيري فى أكثر مدائحه النبوية ومنها
الهمزية وفيها يقول :
أنت مصباح كل فضل فما تصد ر إلا عن ضئوك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيب ب ومنها لآدم الأسماء
لم تزل فى ضمائر السكون تختا ر لك الأمهات والآباء
ما مضت فترة من الرسل إلا بشرت قومها بك الأنبياء
الخ...



الفصل الرابع

أساليب الشعر المصرى فى تلك الفترة

منذ القدم والشعر العربى قسماً لا ثالث لهما : شعر المناسبات ،
والشعر الشخصى أو الشعر الذاتى . فالأول — يقصد به إلى الشعر الذى
يوجه إلى الجماعة وإلى الطبقة الحاكمة ، ويشتمل على المدح والثناء ونحو ذلك
من الفنون الشعرية . والثانى — يقصد به إلى الشعر الذى يعبر فيه الشاعر
عن مشاعره الذاتية بغض النظر عن الجماعة . ويشتمل على الفحاشة
والخون ووصف مجالس الشراب ، وما يعرض للناس فى حياتهم اليومية
أو الخاصة .

فى الأول جزالة فى اللفظ ، وتصنع وتكلف فى المعنى ، وتقيّد بالفن
فى أعلى مراتبه . وفى الثانى ميل إلى البساطة وتحلل من قيود الصنعة
اللفظية إلا ما أتى منها عفو الخاطر .

الأول — وهو شعر المناسبات يتأثر تأثراً قوياً بحياة الحكم
والدواوين . ولا يفر له من ذلك

والثانى — وهو الشعر الشخصى — يتأثر بالحياة التى يحيها الناس
فى البيئات المختلفة ؛ أو يتأثر بالمشاعر التى تختلج بها قلوبهم فى الحالات
المتباينة . وفى كل بيئة من هذه البيئات نجد شعراء يمثلون المذهب

الأول من مذاهب الشعر ، وإلى جانبهم شعراء يمثلون المذهب الثاني منها . وأكثر من ذلك أننا نجد ديوان الشاعر الواحد ينقسم إلى هذين القسمين معا ؛ على تفاوت بين الشعراء أنفسهم في هذه القسمة . وهو تفاوت يحدد لنا الميل الغالب على هذا الشاعر أو ذاك ، فنعرف نحن بسهولة تامة ما إذا كان شاعراً من شعراء القسم الأول ، أو شاعراً من شعراء القسم الثاني .

ومهما يكن من شيء فنحن حين ندرس الشعر المصرى في تلك الحقبة الطويلة التى نعى بها في هذا الكتاب نستطيع أن نفرق بين مذهبين على الأقل من مذاهبه أولهما — (مذهب البديع) — أو مذهب الكتاب . ومن المؤرخين من درج على تسميته كذلك (بالمذهب الفاضلى) نسبة إلى القاضى الفاضل وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وزعيم الحركة الأدبية فى زمانه . وإن كان المذهب البديعى فى ذاته قد ولد ونما قبل مجيء الفاضل بخمسة قرون على أكثر تقدير . إذ المعروف أنه نشأ منذ أواخر القرن الثانى للهجرة غير . أن الفاضل — وهو من أدباء القرن السادس — استطاع أن يضيف إلى البديع ألواناً جديدة جعلت من السهل علينا تمييز الأدب المصرى من الأدب العربى فى الأقاليم الإسلامية الأخرى . وسنشير إلى هذه الألوان التى استحدثها الفاضل فيما بعد .

وثانيهما — (مذهب المعانى) . وهو أكثر ظهوراً فى الشعر الشعبى . وفى هذا الضرب من الشعر احتفال ظاهر بالأفكار ، وعناية تامة بتصوير العواطف والمشاعر التى يتفعل بها الناس انفعالا لا تكلف فيه

ولادافع له من خوف الحاكم ، أو طمع في ذهبه ، أو أخذ شيء من السلطة التي في يده .

ومذهب البديع يضم إليه نخبة صالحة من شعراء العصرين الأيوبي والمملوكي . وله أتباع كذلك في العصر العثماني . فمن تلاميذ هذا المذهب على سبيل المثال : الفاضل الفاضل — وهو زعيم هذه المدرسة بلا منازع ، والعماد الأصفهاني ، وابن سناء الملك ، وكال الدين ابن النبيه ، وابن الساعاتي (وهم من شعراء العصر الأيوبي) . وجمال الدين ابن نباته (من شعراء العصر المملوكي) .

والمذهب الثاني — وهو مذهب المعاني — يضم إليه شعراء آخرون منهم البهاء زهير ، وجمال الدين ابن مطروح ، وأبو الحسين الجزار ، والسراج الوراق ، وأبندمر الحيوى ، وشعراء آخرون ظهوروا بمدينة الفسطاط ، وكان لهم طابع خاص . وكلهم تلامذة الشاعر المشهور باسم أبي الحسن ابن حيدرة العقيلي نزيل مدينة الفسطاط وزعيم الأشراف العلويين في زمانه .

على أن هذا المذهب الأخير من مذاهب الشعر المصري — وهو مذهب المعاني — يضم إليه طائفة ثالثة من طوائف الشعراء عرفت بعيلها إلى المجون والتحامق ، واشتهر منها كثيرون منهم أبو حامد الأنطاكي المعروف « بأبي الرقعمق » وصريع الدلاء ، وصالح بن يونس والشاعر المعروف بابن مكنسة وغيرهم .

عاج شعراء المعاني فنون الشعر على اختلافه . واهتموا فيه بالتعبير

عن العواطف بطريقة أدنى إلى ذوق العامة لا الخاصة ، وإن لم ينسوا في هذه الطريقة أن يلائموا بينها وبين الزى الأدبي العام لمصر في ذلك العصر ، وهو الزى الذى يؤثر البديع ويعنى به عناية جعلت منه طابعا للأدب المصرى ولونا من ألوان الشخصية .

وإذا كانت الشخصية المصرية واضحة في شعر المعانى — أو يجب أن تكون كذلك — فهل كانت كذلك في شعر البديع ؟

لم يكن بد لمصر من أن تتأثر بالبديع وألوانه المختلفة في الأدب . ولم يكن بد لمصر من أن تترك أثرها في هذا البديع نفسه كذلك . وخاصة بعد أن نعمت بحضارة الفاطميين الزاهية ، ثم حضارة الأيوبيين والمماليك الساطعة .

ولقد عرف المصريون ألوانا جديدة من ألوان البديع تتفق وطبيعتهم ، وتلائم أمزجتهم ، وتسائر شخصيتهم التى اشتهروا بها في التاريخ الوسيط .

ومن هذه الأنواع على سبيل المثال :

نوع يقال له (السهولة) كمثل التى تظهر في شعر البهاء زهير وابن مطروح . ونوع يقال له (الزاهية) وهى أن يبرز الشاعر شعره من ألفاظ الفحش والمجانة حتى يكون الهجاء نفسه « مما تنسده العذراء في خدرها فلا يقبح منها » .

ثم نوع يقال له (التهم أو التندر) — وهو كثير في الأدب المصرى ، وأسبابه معروفة لا تحتاج إلى شرح .

ثم إن المصريين غلب على أديهم الميل إلى لون من ألوان البديع عرفوا به ، وأكثر منه زعيمهم القاضى الفاضل . وهذا النوع الأخير هو (التورية) ومن أسماء هذه التورية عندهم كذلك (الإيهام) و (التوجيه) و (التحير) . ولكن اسم (التورية) فى ذاته أقرب هذه الأسماء إلى فهم المقصود من هذا اللون من ألوان البديع . لأنه مصدر من قولهم : وريت الخبر تورية بمعنى سترته ، وأظهرت غيره ، فكان المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر .

والأدب المصرى منذ أواخر العصر الفاطمى إلى نهاية العصر العثمانى يوشك أن يكون تورية من أوله إلى آخره ، والقاضى الفاضل هو الذى نبه الناس إلى التورية — أو كما يقول النقاد — « هو الذى عصر سلافها لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره » .

ونريد أن نختم هذا الفصل بإيراد الشواهد القليلة على كل ضرب من أضرب البديع التى ابتدعها المصريون . وسنقف فى الفصول القادمة عند بعض الشخصيات البارزة من الشعراء الذين يمثلون البديع المصرى . وإذا ذاك سنأتى بأمثلة أوضح وشواهد أكثر على هذه الأنواع البديعية التى نتحدث عنها :

فن الشواهد على (السهولة) قول البهاء زهير :

ملكتموني رخيصةً فأنحط قدرى لديكم
 فأغلق الله باباً دخلت منه إليكم
 حتى ولا (كيف أنتم) ولا (السلام عليكم) !

ومن الشواهد على (النزاهة) كثير من شعر الشعراء في الهجاء أو
 السخرية والتندر . وهو شعر يوشك أن يكون خالياً من الفاظ
 الفحش والبذاءة ؛ بحيث تقرأه العذراء في خدرها — كما قلنا — فلا
 يقبح منها . وسنعرض لأمثله كثيرة منه عند الكلام عن البهاء زهير
 أيضاً . فلهذا الأخير شهرة عظيمة بالأدب المبني على السهولة في اللفظ
 والسهولة في المعنى أو المبني . ومن (التورية) قول القاضي الفاضل :

بالله قل للنيل غنى لى
 لم أشف من ماء الفرات غليلا
 ياقلب كم خلّفت ثمَّ (بثينه)
 وأظن صبرك أن يكون (جميلا)

وبعد فيحسن بنا أن نتقل من ذلك إلى الكلام عن الشعراء أنفسهم
 وهنا سنضطر إلى أن نختار بعضاً ونترك بعضاً . لأن من العسير
 علينا أن نلم بهم جميعاً في حقبة طويلة ، كالتى تؤرخ لها . وفي هذا
 القدر من الشعراء الذين سنختارهم ما يعطينا فكرة صحيحة عن الشعر
 المصرى لتلك الفترة . وفيه كذلك غنى عن ذكر بقية الشعراء الذين
 عرفتهم مصر حينذاك .

الفصل الخامس

شعراء البديع

أو مدرسة الكتاب في الأدب المصرى

فمن الأدباء في العصور التي نؤرخ لها بالبديع ، وكان إمامهم المتبع في ذلك هو القاضي الفاضل . وله تلاميذ كثيرون ، منهم العباد الأصفهاني وابن سناء الملك ، وجمال الدين بن النبيه في العصر الأيوبي ، وجمال الدين ابن نباته ، وصفي الدين الحلبي ، وابن الوردي في العصر المملوكي ، والشهاب الخفاجي ، وابن منجك في العصر العثماني .

وسنقف عند ثلاثة فقط من أولئك الشعراء وهم ابن سناء الملك ، وجمال الدين ابن نباته ، والشهاب الخفاجي . ولكن قبل أن نتحدث عنهم يحسن بنا أن نعرض لقصيدة واحدة فقط من قصائد القاضي الفاضل — وهو إمام هذه المدرسة التي نحن بصددتها — وفيها فن من فنون البديع يوشك أن يكون نوعا من الهندسة اللفظية إذا صح هذا التعبير على النحو التالي :

نظم الفاضل في مدح « العزيز عثمان » بن السلطان صلاح الدين الأيوبي قصيده مطلعها : —

الحسن جاد على الأحباب فازدادوا

لكن أحبابنا بالوصل ما جادوا

(٨) الأدب المصرى

ومنها : —

نفر وطيب وأحداق وأجياذ	فيهن من شبه الغزلان أربعة
صب و فرش و سمار و عواد	وقد بكت لضنى العشاق أربعة
عهد وود و أقوال و ميعاد	هيات يصدق منك الظن أربعة
عال وباه و ميسال و مياذ	له من النخس الريان أربعة
كد و صد و إقصاء و إقصاذ	ولى من الدهر عمارم أربعة
قلب و نطق و أخلاذ و أحسماد	وللعزير من المملوك أربعة
عزم و حزم و أفكار و أرساد	يدبر الملك من عثمان أربعة
فيض و سيشل و إبراق و إرعاد	وفيه من صادقات السحب أربعة
ضعفى و لهنى و وراذ و وراذ	ياوى إلى بابك المفتوح أربعة

وبهذه الطريقة نظم الفاضل أربعة وأربعين بيتاً ، فى نهاية الشطر الأول من كل بيت منها لفظ « أربعة » . وفى الشطر الثانى بيان لهذه الأربعة . وبذلك تحول الشعر عند الفاضل — كما قلنا — إلى ضرب من ضروب الهندسة . أو ضرب من ضروب العبث اللفظى الذى اشتهر به الأدباء منذ بداية القرن الخامس الهجرى ، وهو القرن الذى شهد أباً العلماء المعرى . ثم هو القرن الذى شهد أنواعاً أخرى من العبث اللفظى : كالرسائل التى تقرأ من اليمين إلى اليسار ، كما تقرأ من أسفل إلى أعلى . وترى تطبيق ذلك فى النكتة الأدبية التالية : —

اجتمع العباد الأصفهاني بالفاضل فى مجلس فقال الأول للثانى :

« سر فلا كبا بك الفرس »

فأجابه الثاني بقوله :

« دام علا العباد »

والنكسة هنا في أنك تستطيع أن تقرأ كلا من هاتين العبارتين من اليمين إلى اليسار ، كما تستطيع أن تقرأها من اليسار إلى اليمين فلا يتغير المعنى .

نستطيع بعد هذا التمهيد أن نقف كما قلنا عند طائفة من شعراء البديع ومنهم :

أورد — القاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك

من أظهر شعراء مصر في العصر الأيوبي ، ولد سنة ٥٥٠ هـ وتوفي عام ٦٠٨ هـ . وكان هو وأبوه يعملان في ديوان القاضي الفاضل . وكان أبوه ينوب عن الفاضل في أثناء غيابه بالشام . ومن ثم كان ابنه الشاعر محبوباً من القاضي الفاضل . ويدل لقب جده « ابن سناء الملك » على أنه كان من كبار الموظفين في الدولة الفاطمية . فقد خلع هذا اللقب أيضاً على الوزير الفاطمي المعروف « بدر الجمالي » . ولابن سناء الملك ديوان موشحات اسمه « دار الطراز » ، به موشحات من نظمه ومن نظم شعراء من المغرب وشعراء من الأندلس . وله كذلك ديوان شعر يشتمل على أكثر من ثمانين قصيدة اثنتان وثلاثون منها في مدح القاضي الفاضل وحده ، والقصائد الباقية موزعة على

الملوك والأمراء الذين منهم : الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي
وأولاده الأفاضل ، والعزیز ، والظاهر .

معنى ذلك أن الشاعر الذى تقف أمامه الآن نبغ فى فن المدح . وإذا
قلنا إنه نبغ فى المدح فعنى ذلك أنه نبغ كذلك فى فنى الغزل والفخر ،
لما نعلمه من أن قصيدة المدح فى الأدب العربى لا بد أن تشمل على
الغزل الذى يبدأ به الشاعر قصيدته على الطريقة التقليدية المعروفة ،
كما لا بد لقصيدة المدح أيضا من اشتغالها على الفخر الذى يجد فيه الممدوح
راحة نفسية خاصة .

ولا بن سناء الملك أن يفتخر بنفسه وبآبائه وبالوطن الذى أكرمه
وأكرم آباءه ؛ وهو مصر . ولننظر أولا فى هذه الآيات التى عبر بها
الشاعر عن حبه لمصر وفيها يقول :

أَيَا بَصْرِي لَا تَنْظُرْنِي إِلَى بَصْرِي

فإني أرى الأحبابَ فى بلدة أخرى

وما بلدةٌ لم يسكنوها ببلدة

ولو أنَّها بين السماكين والشعري

وما القفر بالبغداد قفرٌ وإنما

أرى كل واد لم يكونوا به قفرا

تذكرت أحبائي وإني لمؤمنٌ

ولكن أراي ليس تنفعنى الذكرى

أهبط عن مصر وقيدماً قد اشتهى

على الله أقوام فقال اهبطوا مضرا ؟

— ١١٧ —

فوالله ما أشدَّرى الشام ومكة
 وغوطته الخضرا بشيرين من شبرا (١)
 فإن عدتُ والأيام عوجٌ رواجعٌ
 لقد أنشأتني قبلها نشأة أخرى
 وأما الفخر بنفسه فنه قوله : —
 سوى يخاف الدهر أو يرهبُ الردى
 وغيرى يهوى أن يكون مخلدا
 ولكننى لا أرهبُ الدهرَ إن سطا
 ولا أخطرُ الموتَ الزوامَ إذا عدا
 ولو مدَّ نحوى حادثُ الدهر كفه
 لحدثت نفسى أن أمدَّ له يدَ
 توقدُ عزم يترك الماءَ جَمْرَةً
 وحلية حلم تترك السيفَ أبْرَدَا
 وأظما إن أبدى لى الماءُ منةً
 ولو كان لى نهرُ الجَمْرَةِ مَوْرَدَا
 ولى قلمٌ فى أنملى إن هَزَزْتُهُ
 فما ضَرَّتْنى ألا أهزَّ المهندا

(١) المعنى أن الشاعر لا يفتري بلاد الشام كلها بما فيها المكان الجميل المسمى
 (النوبة) بمساحة صغيرة قدرها شبران فقط من جهة شبرا وهي إحدى جهات القاهرة.

إذا سَالَ فوقَ الطرس وقعَ صريره

فإن صليل المرففات له صدى

ومن قوله في الفخر أيضا :

أيدفعني الدهر عن مطلبي ويكثر من لؤمه المَطلَبِي (١)

ولم يدر أني كبير الإياه وأن الرشيد المرجسي أبي

وأنى لو شئت من فضله لأنعلت رجلى بالكوكب

ولو شئت كان لدىَّ الهلال بنهر المجرَّةِ كالمركب

ومن شعر ابن سناء الملك في مدح الملك العزيز ابن صلاح

الدين قوله :

من منصفى من حاكم جائر أبناجٍ مِثْلِ القمر الزاهر

قد كسّر الجفن فطار الحشا ما أفكك الكاسر بالطائر

(ياهاجرى) ليت ندائى إذا ناديته كان (يا زائرى)

قم نزجر الهم بكأسِ الطِّلا ليلةً لاناها ولا زاجر (٢)

وهاتها واشرب على مدح من لم أنس من إناعمه ذاكرى

(١) بين (مطلبي) و (المطل بي) جناس تام .

(٢) الشطر الثانى من هذا البيت مقتبس من شاعر قديم هو وضاح اليمين والبيت كالاتى :

فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر

ما كنت لولا الصدق في مدحه ألصقُ باسمي سمةَ الشاعرِ
 وكلُّ شعرٍ قلت في غيره فإنه تجربةُ الخاطرِ
 المسلكُ البرُّ العزيزُ الذي غرفتُ في إنعامه الماطرِ
 يهدمُ مالاً حين يبقى علاً يا عجباً للهادمِ العامرِ
 أنا الذي جئتُك لا للجَدَا بل للهوى في فصلك الباهرِ
 وقال في مدح القاضي الفاضل وبالغ في المدح :

خير الأنام ومولاهم وفاضلهم عبد الرحيم ولا تستثن لي أحدا
 تأتى الملوك على أبوابه زمرا ويدخلون على أبوابه سُجُدا
 قد آنسوا نار موسى من يديهته فما يحيئون إلا يقبسون هدى
 أغنى الملوك بكُتبٍ عن كتابهم فما برى قلباً إلا غزاً بلداً
 الخ ...

ومن أمثلة (الغزل) الذى كان يأتي به الشاعر في مستهل قصائده
 هذا الغزل الذى قدم به لقصيدة نظمها كذلك في مدح القاضي الفاضل .
 ومنه قوله :

فراق قضى اللهم والقلب بالجمع
 وهجرٌ نولى صلح عيني مع الدمع
 وربيع لذات الخال خال وربما
 شغفيلتُ بهي عن مسألة الربيع
 فسبحان ربى قد ممت همة النوى
 وطالت إلى أن فرقت ساكني جمع

— ١٢٠ —

وفي الحى من صيرتها نصب خاطرى
 فما أذنت في نازل الشوق بالرفع (١)
 من العربيات المصونات بالذى
 أثارتته خيل الغائرين من النقع
 تليه بفرع منه أصل بليتى
 ولم أر أصلاً قط يُعزى إلى فرع
 فكم تركت في ذلك الحى ميّتا
 وكم حُمِلت فيها الضلوع على ضلع
 سقى الله أيام الوصال مداً معى
 عليها وإن أسرفن في الهطل والنبع
 زماناً تقود اللهو فيه يدُ المنى
 ويرمى التراضى صحة الصدّ بالصدع
 ولا نائل الحسنا نزر ولا النوى
 تتجاهر فينا دولة الوصل بالخلع

ثانياً : ابن نيات مصرى

قال عن نفسه إنه ولد بمصر في ربيع الأول سنة ست وثمانين
 وستمائة للهجرة بجهة يقال لها (زقاق القناديل) .
 وقد كان زقاق القناديل هذا مقام أشراف الناس وأعيانهم في زمانه

(١) في البيت طباق بين (نازل) ورافع ، وفيه كذلك استخدام لألفاظ من
 النحو على سبيل التوجيه وهو نوع من أنواع البديع المعروفة في ذلك العصر .

وعاش ابن نباتة ما عاش وهو لا ينسى حلاوة الأيام التي قضاها في شبابه
ولهوه وفراغه . وفي ذلك يقول :

واماً لأيامي التي سلفتُ ما بين ذاك النعيم والفرح
لا يُنزلُ الدهر من يدي قدحاً كأنني صورةٌ على قدح !!

وأبوه (شمس الدين بن نباتة) كان من أشياخ الحديث بدمشق .
وترجم حياته صلاح الدين الصفدي في كتابه المعروف (بالوافي
بالوفيات) . وتوفي سنة ٧٥٠ هـ . ومن أجداد هذا الشاعر عبد الرحيم
ابن نباتة الخطيب المتوفى سنة ٣٤٧ هجرية . وكان مقدماً في علوم الأدب
ويقال إن خطبه لم يعمل مثلها في موضوعها . وكان خطيب حلب وخدم
سيف الدولة الحمداني . وكان هذا البطل كثير الغزوات . فأكثر ابن نباتة
من خطب الجهاد في سبيل الله . وكان لهذه الخطب فعل الإذاعة والدعاية
في أيامنا هذه .

ومن هنا كان شاعرنا كثير الفخر بآبائه وأجداده . وهو محق
في نغره هذا . وانظر إليه حين يقول :

ورثتُ اللفظ عن سلسني وأكرمُ بآلِ نباتة العزُّ السراةُ
فلا تعجبُ للفظي حين يحلو فهذا القطر من ذاك النبات !

وانظر إليه حين قال في ختام قصيدة مدح بها علاء الدين
ابن الفضل : —

خذها منظمة الأسلاك معجزة بالجواهر الفرد فيها كل نظام
مصرية من بيوت الفضل ما عرفت فيها بنسبة جزار وحمى

يريد أن يقول أنه بيت عريق وإنه ليس كأبي الحسن الجزار أو نصير الدين الجمي وغيرهما من الشعراء الذين لا نسب لهم ولا حسب .
ولد ابن نباتة في عهد الملك المنصور قلاوون . ومات في عهد السلطان الأشرف شعبان . أى أنه عاش في عصر كثير الفتن والأحداث .
أو عصر انقسم فيه أمراء المماليك على أنفسهم ، وكثرت الدسائس والمؤامرات ، كما كثر اعتقال الكبراء ومصادرة أموالهم وقتلهم ونحو ذلك .

ثم لا تنسى التتار وخطر التتار . فقد كان هذا الخطر يهدد البلاد ، ويدعها في حالة سيئة من الخوف والجزع والتوتر .

وجاءت المجاعة التي منيت بها مصر إذ ذاك فكانت ثالثة الأثافي التي احترقت بنارها البلاد المصرية في تلك الفترة .

من أجل هذا رقت نفس ابن نباتة واضطربت أعصابه ، واحتد مزاجه ، وأصبح رجلاً أدنى إلى الخوف والجلين منه إلى الشجاعة ورباطة الجأش .

وقد كان لكل هذه العوامل أثرها الواضح في شعره . فقدم لنا هذا الشعر صورة رجل يحب الدعة ويؤثر السلامة ، ولا يهاجم أحداً من الناس ولو هاجمه ، ولا ينقض عملاً من الأعمال حتى ولو كان فيه ما يتعارض والصالح العام . خلا ديوان هذا الشاعر خلواً تاماً من الهجاء ومن الحماسة . وخلا حتى من العتاب إلا ما كان رقيقاً أقرب إلى المدح منه إلى الذم . وانظر إلى قوله يعتب على صديق له :

— ١٢٣ —

لئن ضاع مثلى عند مثلك لمتى
 لعمر المعالى عند غيرك أضيع
 متى تنجع الشكوى إذا أنا لم أجد
 لديك اعتناء غير أنك تسمع
 وما كان صعباً لو مننت بلفظة
 ترد بها عن الخطوب وتردع
 وقلت امرؤ للشكر والأجر قابل
 وللبر فيه والصنيعة موضع
 ومغترب من قومه ودياره
 أساعده والله يُعطي ويمنع

هكذا عاش ابن نباته حياته متطامن النفس ، أدنى إلى الاستسلام
 الاستكانة منه إلى الجرأة على الحياة والأحياء . مع من أن القدر
 فر له كثيراً من الفرص التي كان يستطيع بها منافسة النظراء ، بل
 زاحمة الكبراء بالمناكب . وليس أدل على استكانة ابن نباته من قوله
 صف نفسه :

قل عوتى على الزمان فأصبحت صبوراً على مراد الزمان
 حابس اللفظ والبراع عن الناس فلا من يدي ولا من لسانى
 وما زال هذا التعبير الأخير (لا من يدي ولا من لسانى)
 من التعبيرات الشعبية التي يوصف بها الضعيف المؤثر للسلامة إلى
 يومنا هذا .

وكان ابن نباتة في شبابه على شيء من اليسر والغنى . فاستمتع بالحياة في مصر كما ينبغي أو أكثر مما كان ينبغي . فلما نفذ ما معه من المال ، ونبت به الأوطان فكر في الرحيل عن مصر إلى الشام ، وأخذ يتنقل من مكان إلى مكان . فمرة يلتحق بالملك المؤيد صاحب حماه ، ومرة يتصل بابنه الأفضل وهكذا ، ورؤى في إحدى المرات يعمل تحت رئاسة شهاب الدين ابن فضل الله بدمشق .

على أن الشاعر في أثناء هذا كله كان لا يفتأ يذكر مصر ، ويحن إليها حنيناً عظيماً كما ترى في قوله :

قسماً ما حُلْتُ عن عهد الوفاء بعد مصر لا ولا نيلٍ بكائي
حبها تحتي وفوقي ويميني وشمالى وأمامى وورائى
وهكذا كان حب مصر قد ملك على الشاعر نفسه وأحاط به من جميع جوانبه . فهو لا يجد من هذا الحب مناصاً ، ولا من مصر فكاكاً . وكان يرى أن مصر بلد الخير والغنى والرى والشبع . وفي هذا يقول :

غاب ذو الفضل في حمى مصر عنا

فهنيئاً له حمى النعماء
تسقط الطير حيث تلتقط الح
باً وتغشى منازل الكرماء

واسمع إليه يقول :

آها لمصر وروض مصر وكيف لى
بديار مصر مراتعاً وملاعباً

— ١٢٥ —

حيث الشيبية والحبيبة والوفا في الأقربين مشاربا وأصحابا
والدهر سلمكم كيفما حاولته
لا مثل دهري في دمشق محاربا
ويقول :

يا سارى البرق فى آفاق مصر لقد
أذكرتنى من زمان النيل ما عذبا
حدثت عن البحر أو عنى ولا خرج
وانقل عن النار أو قلبى ولا كذبا
واندب على الهرم الغربى لى عُمرا
فبذا هرما فارقتهُ وصبا
ويقول :

تذكرت مصرا والأخلاصة والدهرا
سقى الله ذاك السّفح والناس والعصرا
وقالت ظنوني فى الشام ادع لذة
فقال لها ماضى الزمان : اهبطوا مصرا
وزحف ابن نباتة إلى الشيخوخة . وكان من حقه أن يستشعر فيها
شيئا من الراحة . ولكنه لم يحظ بذلك . بل ضاقت به الحال حتى كان
يسأل الممدوح خبزا ويسأل الآخر دارا للسكنى !
وانظر إليه إذ يقول :

لقد أصبحت فى حال يرقّ لمثلها الحجر
مشيبا واقْتقارُ يدِ فلا عين ولا أثر

وإذ يقول :

تركت المال والجاء لأهل القدر والقُدرة
فحسبي من حمى كِسْرٍ وحسبي من غنى كِسْره
وإذ يقول :

لقد أصبحتُ ذا عمر عجيب أقضى فيه بالأنكد وقي
من الأولاد خمس حول أم فواحزنه من خمس وست
وإذ يقول :

مولاي إن الحال قد وصلت إلى
سطين من بيتين قد ضمنتها
لم يبق عندي ما يُباع بدرهم
إلا بقية ماء وجه صنيتها
وانظر إليه يقول وقد ستم شعر المدح :

أفي كل يوم أنت حامل مدحة إلى المجد غاد بالعطا المتواتر
فيا ليت شعري والمطامع جمّة إلام يراك المجد في زى شاعر؟

فن ابن نجاته

إذا نظرت في شعر هذا الرجل وجدته يزخر بأنواع شتى من البديع .
من جناس إلى طباق إلى اكتفاء إلى مراعاة نظير . ولكن أكثر
الأنواع البديعية شيوعاً في شعره هي :

التضمين ، والتورية ، والاكتفاء ، والسهولة التي قننا إنها ضرب
من ضروب البديع اشتهر به المصريون . وسنضرب الأمثلة البسيطة
على كل نوع من الأنواع المتقدمة :

فن التضمين

ومنه قوله من قصيدة له في رثاء قاضي القضاة تاج الدين السبكي :
 نعام للفضل والعلواء والنسب
 ناعيه للأرض والأفلاك والشهب
 بينا وفود الندى منهلة منأ
 إذ نازلتننا الليالي فيه عن كسب
 وأقْبَلَتْ نوب الأيام ثائرة
 (إذ كان عرونا على الأيام والنوب)
 قالت دمشق بدفع النهر واخبراً
 (فزعت فيه بآمال إلى الكذب)
 (حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً)
 (شَرِقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي)
 وكلتنا سيوف الكتب قائلة
 (والسيف أصدق لإنباء من الكتب)
 وقوله (وفيه مع التضمين تورية) :
 ترك الأسى إنسان عيني بعدكم
 أبدا يُغادى لوعةً ويرأوح
 تعباً ذا سن وسح مسدأ مبع
 (يا أيها الإنسان إنك كادح)^(٢)

(١) التورية في قوله (إنسان) فهي بمعنى الإنسان العادي كما تذهب إلى ذلك الآية
 الصريفة وبمعنى إنسان العين وهو ما سماه الشاعر

وقوله :

قف بالحي بعد البدور وناد
(أرأيت كيف خبا ضياء النادى)
ومحاملٌ ظعننت بمهجة ناحل
(أرأيت من حملوا على الأعواد)

وقوله فى معرض الرثاء :

وعيشك يا يحيى لو انك تفتدى (لهنت الدنيا بأنك خالد)

وقوله فى معرض المدح :

وأنت الذى قرّرت برؤيته العلا
(وهنت الدنيا بأنك خالد)

ومن التورية

قوله :

قل لوزير الشام يا من مدَّ يَدَ الجود للأنام
ماسرق المادحون وصفوا فيك فلا تقطع الأيادى^(١)
وقال وفيه تورية باسمه هو :
يقول رجائى لما دعا نَدَاك لهبات تلك الهبات
تماسَّبَ حال النداء والرجاء فهذا الغمام لهذا النبات^(٢)

(١) التورية فى قوله (الأيادى) فى معنى الأكف التى يحمل قطعها بالسرقة
وبمعنى النعم التى ينتظرها الشاعر من الممدوح .
(٢) التورية فى قوله (النبات) وهى واضحة .

— ١٢٩ —

وقال يرثي ولده عبد الرحيم :
يا لطف قلبي على عبد الرحيم ويا
شوقي إليه ويا شجوي ويا دائي
في شهر كانون واقاه الحمام لقد
أخرقت بالنار يا كانون أحشائي
وقوله :

يا غائبين تعللنا لغيبتهم
بطيب لحو ولا والله لم يطب
ذكرت والكأس في كفي لياليكم
فالكأس في راحة والقلب في تعب (١)
ومن الأكتفاء

قوله :
فديت بليفا أهلتني سطوره
لأجنحة تسمو سمو الأهلّة
فأقطف من أوراقه الأدب الذي ...
وأسمع من ألفاظه اللغة التي ... (٢)

(١) التورية في قوله (راحة) فهي بمعنى راحة الكف وهي بمعنى الراحة التي هي
ضد التعب .
(٢) تكملة الشطر الثاني من البيت هكذا :
وأسمع من ألفاظه اللغة التي يلد بها سمعي ولو ضمنت شمني

وقوله :

في شعر مولانا السنا العالي وفي
إنشائه الأسنى مزاج القهوة
فتى ثقُلُ بيتا فقل إن الذي
ومتى ثقل سجعاً فقل إن التي (١)

ومن السهولة

وهي كثيرة في شعر ابن نباتة ، على أنها نوع من أنواع البديع كما
اتفقنا قوله :

يا قلبُ أنتَ ومُقلتي	مُستَحَاربان كما أرى
هاثيك تمنعك الهدو	، وأنتَ تمنعها العكرى
وأنا الذى قاسيت يد	نكح العذابَ الأكبرا
كُفُفًا المدامعَ والأسى	فلقد كفى ما قد جرى
لا آخذَ الرحمنَ من	مسلكَ الحشا فتجبراً
قابلتُ روتق خده	فصبغت دمي أحرا
يا ناعس الأجفان قد	حكم الهوى أن أسهرا

(١) ربما كانت الإشارة في الشطر الأول إلى قول الفرزدق :

إن الذى سمك السمك بنى لنا بيتا دغائمه أهر وأطول

وربما كانت الإشارة في الشطر الثانى منه إلى قول جرير :

إن التى زعمت فؤادك من لها جملت هواك كما جملت هوى لها

— ١٣١ —

ما كان أربحَ عاشقاً لو أن وصّلكِ يشترى
وقوله

وتاجر قلت له إذ رنا رفقا بقلب صبره حائر
ومقلة تنهب طيب الكرى منها على عينيك ياتاجر^(١)
وقوله :

يامنّ يُملّني بوصل مدامة
عن وصل من همى به يتكاثر
لون المدام كما تراه وإنما —
خذ الذى أهواه لون آخر

ثالثاً — الشهاب الخفاجى

وهو أحمد بن محمد شهاب الدين الخفاجى المصرى . ولد بقرية
سرياقوس . وتلقى دروسه بالقاهرة . ثم رحل مع أبيه إلى الحرمين ،
ثم إلى الأستانة . ثم عادا معا إلى القاهرة حيث عينه السلطان مراد قاضياً
للعسكر بمصر . ثم استقال وسافر إلى دمشق ، ومنها إلى حلب ، ومن
هذه إلى الأستانة مرة أخرى . وتوفى سنة ١٠٩٦ للهجرة .
كان أديباً عالماً شاعراً كاتباً . ومن أشهر مؤلفاته «ريحانة الألباء» ،

(١) السهولة في هذا البيت آتية من استخدام الشاعر لهذا التعبير الشعبي السائد إلى
يومنا هذا ، وهو قولهم « على عينك ياتاجر » .

وهو كتاب اشتمل على تراجم لبعض الأدباء في زمانه . ومن مؤلفاته كذلك « شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل » جمع فيه طائفة من الألفاظ الدخيلة والمعربة .

نماذج من شعر الخفاجي

من قوله في الهتاف بحب مصر والنيل :

إن وَجْدِي بِمِصرٍ وَجَدَ مَقِيمٌ
وَحَنِينِي كَمَا تَوَوَّنَ حَسِينُ
لم يزل في نَحْيَالِ النيلِ حتى
زاد عن فَكْرَتِي ففاضت عيوني
ومن شعره كذلك (وفيه تضمين) :

يا صاح إن واقيت روضة نرجس
لما يك فيها المشى فهو محرم
حاكت عيون معذبي بذبولها
(ولأجل عين ألف عين تكرم)

وقال في الغزل :-

حَتَّامٌ . يَغْزُونِي صُدُودُهُ والصبر قد كثرت جنوده
لَمْ أَذْرِ : فَاتِرُ جَفْنِهِ والخصر أسقم أم عهوده ؟
نشوان يعبث بي كما عبثت بآمالى وعوده

لولا مياه الحسن جا لت فيه لا حترقت خدوده
 كالصب لولا دمه يهشمى لأحرقة وقوده
 يخنى الهوى وعبونه بغرامه المضنى شهوده
 فسق رياض الحسن من دمي حياً يهشمى مديده
 زمن بجيد اللهو قد نظمت على نسق عقوده
 إذ دوح أنسى يانع بكثوسنا انفتحت وروده
 والكأس نجم لاح في فلك المسرة لي سعوده

هكذا كان شعراء البديع يعتمدون اعتماداً واضحاً عليه في شتى فنونه . فإذا أردنا نحن فهم هذا الشعر وجب علينا أن نكون مزودين بثقافة أدبية واسعة تشمل اللغة والحديث والتفسير والتاريخ والبيان ونحو ذلك . لأن الشاعر من شعراء هذا المذهب يعتمد على هذه الثقافات المختلفة في توريته ، ويأخذ منها بين حين وآخر عند صياغة هذه التورية . على أن من شعراء البديع في تلك العصور التي نؤرخ لها من بالغ في الزينة اللفظية حتى أصبحت لغزا يحار القارئ في فهمه : فابن نباته المصري يتلاعب بالألفاظ كما في قوله :

شجون نحوها العشاق فاءوا وصب ماله في الصبر راء^(١)
 ولاح ماله هاء وميم^(٢) له من صبوتي ميم وهاء^(٢)

(١) أى أن لفظ (صب) لو أضيف إليه حرف (الراء) لكان عنده (صبر)

(٢) لاح من لحي يلحي بمعنى ذم ولعن . وقوله (ماله هاء وميم) أى ماله هم

بمعنى حب . أى أن هم عذولي ليس آتيا من الحب ولكنه آت من العذل واللوم .

— ١٣٤ —

وانظر إلى قوله :

آه لشرح شباب كان لي ومضى

واعترضت شرحا ولكن ماله خاء (١)

ومثل هذا كثير في شعرا بن نباتة ، وقد أصبح به هذا الشعر إلى اللفظ أقرب منه لأي شيء آخر .

وللبديعيين طرق شتى في التلاعب بالمعاني والألفاظ والأسماء والأفعال يطول شرحها ، ولا نستطيع الإلمام بها ، فحسبنا ما قدمناه من هذه الأمثلة .

(١) إذا حذفت (الخاء) من لفظ (شرح) أصبح (شر) .

الفصل السادس

مدرسة المعاني في الأدب المصري

أتينا في الفصل السابق على طرف من الشعر الذي قصد فيه إلى التأنيق اللفظي ، وتوفرت له القيم التي تناسب التأنيق . وفي هذا الفصل نريد أن نعرض لنوع آخر من الشعر لا يقصد فيه الشاعر إلى الأناقة اللفظية قصداً . ولا يمنع ذلك من أن تأتي هذه الأناقة عفواً الخاطر .

وقد اشتهر أصحاب هذا النوع الأخير من الشعر باحتفائهم بالمعاني ، وعنايتهم بالمشاعر والإحساسات ، وصرفهم ذلك عن العناية باللفظ أو البديع وأشياء ذلك من الأمور التي سعى إليها شعراء النوع الأول . وقد عرفت العصور التي تؤرخ لها من شعراء المعاني كثيرين . كان معظمهم في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وأقلهم في العصر العثماني . ومن شعراء المعاني على سبيل المثال :

البهاء زهير — وهو إمام الجميع في هذا المذهب من مذاهب الشعر المصري . وجمال الدين بن مطروح . وهما من شعراء مصر في العصر الأيوبي .

ثم أبو الحسين الجزار ، والسراج الوراق ، ونصير الدين الحماني . وهم من شعراء مصر في العصر المملوكي .

— ١٣٦ —

ثم حسن البدر الحجازي ، وابن الصلاحى ، وعبد الله الشبراوى -
وهم من شعراء مصر فى العصر العثمانى .
وسبقدا الحديث أولا بإمام هذا المذهب :

البرهه زهير

وهو أبو الفضل - وقيل أبو العلاء - زهير بن محمد بن على بن
يحيى بن الحسين بن جعفر بن منصور الملقب « بهاء الدين زهير »
ينتهى نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة سيد أهل العراق وشجاعها الذى
مات سنة اثنتين وثمانين للهجرة .

ولد شاعرنا بوادى نخلة فى مكة من أرض الحجاز سنة ٥٨١ هجرية .
وبالحجاز قضى زهير عهد الطفولة وعهد المراهقة . ثم رحل إلى مصر
أول عهده بالشباب ، وكان قلبه لم يزل عالقا بالحجاز حين قال :

أحنُّ إلى عهد المحصبِ من منى
وعيشٍ به كانت ترفٌ ظلالة

وأذكر أيام الحجاز فأثنى
كأنى صريع يستريه خباله

فيا صاحبي بالخيف كن لى مسعدا
إذا آن من بين الحجيج ارتحالهُ
وخذ جانبَ الوادى كذا عن يمينه
بحيث القنا تهتزُّ منه طوالهُ

— ١٣٧ —

هناك نرى بيتاً لزَيْنَبَ مشرقاً
إذا جئت لا يخفى عليك جلالة
فعرّضْ بذكرى حيث تسمع زَيْنَبُ
وقل : ليس يخلو ساعةً منك بالله
عساها إذا مامراً ذكرى بسمها
تقول : فلانٌ عندكم ؟ كيف حاله ؟

واختار البهاء زهير — أو اختار له قصر المسافة بين الحجاز
والصعيد — مدينة قوص فأقام بها . وكانت قوص يومئذ بيئة أدبية
عالية لها خطرهما . أو كانت في المرتبة الثانية مباشرة بعد بيئة القاهرة .
وكانت متفوقة على البيئة العلمية الثالثة — ونعني بها بيئة الإسكندرية —
وبحسبك أن تعرف أنه كان في قوص يوم نزل بها البهاء زهير أكثر
من ستة عشر مكاناً للتدريس .

وهناك في قوص أتم البهاء زهير علومه حتى فضج ، ثم التحق
بخدمة والى المدينة — وهو يومئذ الأمير محمد الدين اللطفي الذي تولى
الأعمال القوصية عام ٦٠٧ هـ . وهناك الشاعر بذلك ، واتصل بينهما
الود من ذلك الوقت . وبقى البهاء زهير في خدمة هذا الوالى إلى ما بعد عام
٦١٨ هـ . ففي تلك السنة وجه الشاعر إلى الأمير قصيدة عتاب منها قوله :

لنا عندكم وعد فهل وفيتمو
وقلتم لنا قولا فهل فعلتمو ؟
حفظنا لكم وداً أضعتم عهدو
فشتان في الحالين نحن وأتمو

— ١٣٨ —

فيا تاركى أنوى البعيد من النوى
إلى أى قوم بعدكم أتيتم ؟
ألا إن إقليبا نبت بيّ داره
وقد كثر الإثراء فيه لمعدم
وإن زمانا أجاتنى صروفه
فحاولت بعدى عنكمو لمدمم
وأعلم أنى غالط فى فراقكم
وأنكمو فى ذاك مشلى وأعظم
ومثلك لا يأسى على فقد كاتب
ولكنه يأسى عليك ويندم

وترك البهاء زهير مدينة قوص وأتى إلى القاهرة ، ولعل ذلك كان
فى عام ٦٢٢ هـ حين اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، فكان
رئيساً للكتاب بديوان الإنشاء . ثم قبض على الملك الصالح هذا واعتقل
فى قلعة (الكرك) . فبقى البهاء زهير وفيّاً لصاحبه ولم يخدم ملكاً سواه ،
ولم يزل على ذلك حتى أطلق سراح الملك الصالح نجم الدين ، وعاد فلك
الديار المصرية من جديد ، ورجع الشاعر لخدمته وذلك عام ٦٣٧ هجرية
وبقى فى هذه الخدمة حتى توفى الملك الصالح .

وهكذا بقى البهاء زهير كاتباً لديوان الإنشاء فى مصر . وهى وظيفة
كبيرة . وصاحبها يعد أعظم رجل فى الدولة . وكان يلقب (بالصاحب)
والصاحب لقب للوزير إذا كان الوزير من أرباب الأقلام . ومع هذا

— ١٣٩ —

وذاك فقد مات البهاء زهير فقيراً ، واضطر قبل وفاته إلى بيع كتبه
وكثير من أثاث منزله .

تلك أطراف بسيطة من سيرة هذا الرجل الذى وفد على مصر
فى أول شبابه . ومنذ نزلها وأقام بها وهو مفتون بحبها فتنة لا يحسبها
إلا كل رجل يحب وطنه أصدق الحب .

وهذا شعره فى الهتاف بحب مصر ينطق بمصريته ، ولا يدع مجالاً
للشك فى هذه النسبة . ومنه قوله :

ولم أر مصرا بمثل مصر تروقى
ولا مثل ما فيها من العيش والخص
وبعد بلادى ! فالبلاد جميعها
سواء فلا أختار بعضاً على بعض

فانظر إلى البهاء زهير كيف يقسم بلاد الله قسمين : أولها بلده
وطنه مصر ، والثانى منها غير مصر من بلاد الأرض . وكلها سواء
عنده ، فلا ترقى واحدة منها إلى مرتبة الوطن ومن شعره أيضاً
فى حب مصر :

سقى وادياً بين العريش وبرقة
من الغيث هطل الشايب هتان
وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى
هنالك أوطان إذا قيل أوطان

— ١٤٠ —

بلاد متى ما جثتها جثت جنة
 لعينيك منها كلما شئت وضوان
 تمثل لي الأشواق أن تراها
 وحسبها مسك يفوح وعقيان
 فيا ساكني مصر تراكم علمتمو
 بأنني مالي عنكمو الدهر سلوان
 وما في فؤادي موضع لسواكمو
 ومن أين فيه وهو بالشوق ملان ؟

• • •

وشعر البهاء زهير قسمان :

أولها الشعر الرسمي الذي قيل في مدح السلاطين والملوك والأمراء
 وكبار رجال الدولة .

وثانيهما — الشعر التلقائي أو الذاتي . ومنه الغزل ووصف
 مجالس الشراب والهجاء والسخرية .

والذي يعنينا أولاً هو هذا القسم الأخير . ففيه يتجلى الروح
 المصري في شعر البهاء زهير ، ويظهر تأثيره بالبيئة المصرية ، والمزاج
 المصري ، والعادات المصرية ، والخلق المصري

الروح المصرى فى شعر البهاء زهير :

إن من يقرأ شعر البهاء زهير لا يصعب عليه مطلقاً أن يستجلي فيه الروح المصرى . وهو روح يطالع القارىء بخصائمه ، ويدل على نفسه ، ويشرح طريقة الشاعر فى التعبير عنه .

ولإذا أردنا أن نضع إصبعنا على مفتاح النور الذى يكشف لنا عن هذا الروح وجدنا ذلك المفتاح فى شيء واحد فقط هو :

شعبية البهاء زهير ومظاهرها فى شعره :

ونعنى بها قدرته على مزج نفسه بالشعب ، وحرصه على أن يكون قطعة لا تنفصل عن هذا الشعب . وليس كل الناس قادراً على شيء من ذلك . لأن (الشعبية) فى الواقع موهبة من المواهب التى يفتح الله بها على بعض الأدباء فيحسون إحساس قومهم من غير تكلف ويؤثرون تعبيراتهم وأسايلهم من غير تكلف ؛ حتى إن أحدهم لو حاول اعتزال قومه ، أو التعالى عليهم وعلى لغتهم وأسايلهم فى الحياة والتفكير لما استطاع .

ونحن نعلم أن الشعب الذى امتزج به البهاء زهير هو الشعب المصرى وأن البيئه التى عاش فيها منذ بداية شبابه إلى آخر شيخوخته هى البيئه المصرية . فلا غرابة بعد ذلك فى أن نجد شعر البهاء زهير مرآة صادقة تنعكس عليها اللغة التى يصطنعها ذلك الشعب .

ولقد عاش فى مصر فى عصر البهاء زهير شعراء كثيرون لم تكن

لهم مواهبه ولا كانت لهم شعبيته ، بل كانوا يمثلون الأرستقراطية في العلم ، وفي الفكر ، وفي النظم ، وفي النثر جميعا . ولم يستطع أحدهم أن يكون مرآة للشعب المصرى أو الأدب المصرى بقدر ما كان صدى للعالم الإسلامى ، والأدب الإسلامى .

عاش في مصر في ذلك العصر أدباء عظماء كالقاضى الفاضل ، والعماد الأصمهانى ، وابن سناء الملك ، وابن النبيه المصرى ، وابن نباتة وغيرهم ، وإذا ذهبنا نقرأ شعرا لاحد هؤلاء أعيانك الوصول إلى أثر البيئة المصرية ، والطبيعة المصرية ، والمزاج المصرى ، والروح المصرى . أما البهاء زهير فلشعبيته التى نتحدث عنها في الشعر مظاهر شتى منها :

السهولة :

وربما كان لجمال هذه الميزة في الشعر وجدنا رجالا بديع يعتبرونها نوعا من أنواع البديع . وكان المصريون هم أول من جنح إلى هذا التفكير .

والسهولة التى امتاز بها شعر البهاء زهير ضرب من الموسيقى العذبة ، والانسباب اللطيف ، والبساطة التى هى عين الجمال الأدبى . ومن الأمثلة عليها قوله :

أنا	فيما	أنا	فيه	وعذولى	يتعب
أنا	لا	أصغى	لما	ل	فيرضى أو فيغضب
يا	حبيبي	ياند	يمسى	والليالى	تقلب
هات	فيما	نحن	فيه	ودع	العاذل

— ١٤٢ —

وقوله :

من اليوم تعارقنا ونطوى ما جرى منا
فلا كان ولا صار ولا قلم ولا قلنا
وإن كان ولا بد من العتب فبالحسن
فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنا
كفى ما كان من هجر فقد ذقم وقد ذقنا
فما أحسن أن نرجع للود كما كنا

الأمثلة الشعبية في شعر البراء زهير

ثم إن من شعبية البراء زهير إيراد الأمثلة العامية في شعره
ودورانها فيه بكثرة دون أن يضر ذلك بالشعر نفسه . من ذلك قوله :

إياك يدري حديثا بيننا أحد

فهم يقولون : للحيطان آذان

وقوله :

من لي بنومي أشكو ذا السهاد له

فهم يقولون : إن النوم سلطان

وقوله :

تشتي ومن تشتي له غافل

كأنك الراقص في الظلمة

وقوله :

يا قضييا من لجين يامليح المقتلين
كل ما يرضيك عندي فعلى رأسى وعينى

وقوله :

جئت في حاجة فعزّت علينا ووددنا قضاء ما واشتهينا
حاجة مالنا إليها سليل ولعمري لقد يعزّ علينا (١)

وقوله :

سمع الناس وقلنا واقتضحنا واسترحنا
بت والبدر نديمي ففعلنا وتركنا (٢)

وقوله :

أصبحت لا شغل ولا مزرعة مذبذبا في صفقة خاسرة
وجلة الأمر وتفصيله أن صرت لا دنيا ولا آخرة

وقوله :

غبت عنا فما الخبر ما كذا بيننا اشتهر
أنا مالى على الجفا لا ولا على البعد مصطبر

(١) الشاهد في قوله : لقد يعز علينا . فهو من مألوف كلماتنا في الحياة اليومية إلى الآن .

(٢) الشاهد في قوله : ففعلنا وتركنا . فذلك مما تعودنا عليه في أحاديثنا اليومية إلى الآن .

وقوله :

أرخني منك حتى لا أرى منظرك الوعرا
فقد صرت أرى بعد كعبي الراححة الكبرى
فما تنفع في الدنيا ولا تشفع في الآخرة

وقوله :

لي منزل إن زرتك لم تلق إلا كرمك
وإن تسلمت عن به لم تلق إلا خدامك

هكذا تصفح ديوان البهاء زهير فنجد مملوءاً بهذه العبارات الشعبية التي نسمعها إلى يومنا هذا عند الخاصة والعامة . وقد كان الشعراء يتأبون دائماً أن ينزلوا بشعرهم إلى حيث يصطنعون أمثال هذه العبارات ولكن البهاء زهير كان فيه من خفة الروح ورحابة النفس ومرونة التعبير وصفة الشعبية أو الديموقراطية ما أعانه على الرقي بهذه التعبيرات البلدية إلى مرتبة الشعر .

ثم كان من مظاهر الشعبية المصرية في شعر البهاء زهير (كثرة الحلف) حتى لقد قال :

ووالله ما فارقتكم عن ملالة ووالله ما أحتاج أني أحلف

الغزل عند البهاء زهير

ومن هذا المعين المصري نفسه صدر البهاء زهير في غزله الذي جاء بعيداً عن التكلف كل البعد، جارياً على طريقة حوارية تشبه طريقة عمر

ابن أبي ربيعة . ولكنها مع ذلك طريقة تدل على البيئة المصرية
لا البيئة الحجازية .

وانظر إلى قوله :

وزائرة زارت وقد هجم الدجى
وكنت لميعاد لها مترقباً
فما راعنى إلا رخم كلامها
تقول : حبيى قلت : أهلاً ومرحباً
فقبَّلتُ أقداماً لغيرى مامشت
ووجهاً مصوناً عن سوى محبها
سأشكر كل الشكر إحسان محسن
تحيلى حتى زارنى وتسيبها
حبيب لأجلى قد تعنَّى وزارنى
وما قيمتى حتى مشى وتمذبا !!
وانظر كذلك إلى قوله مداعباً على طريقة شعبية مألوفة :

مولاي يا قلبي العز	يز ويا حياتي الغاليه
إني لأطلب حاجة	ليست عليك بخافيه
أنعم عليّ بقبلة	هبة وإلاّ عاريه
وأعيدّها لك — لا عد	مت بعينها وكما هيّه
وإذا أردت زيادة	خذها ونفسي راضيه

وقد يجرى الغزل البهائي مجرى الحديث العادى بين صديقين ظريفيين
كما فى قوله :

سيدا قلبى عندك	سيدا أوحشت عندك
سيدا قل لى وحدا	فى متى تنجز وعدك ؟
أترى تذكر عهدى	مثلا أذكر عهدك ؟
أم ترى تحفظ ودى	مثلا أحفظ ودك ؟
قم بنا إن شئت عندى	أو أكن إن شئت عندك
أنا فى دارى وحدى	فتفضل أنت وحدا

ثم اسمع إلى قول البهاء زهير :

يا أعز الناس عندى وعلى	وحبيباً هو منى وإلى
ليت مولاي بحالى عالم	وبها عندى منه ولدى
ماله أصبح عنى معرضاً	تحت ذا الإعراض من مولاي شىء
يا حبيبى أين ما أعسده	يا ترى ماذا الذى زاد على

والشاهد فى قوله (تحت ذا الإعراض من مولاي شىء) وقوله
(يا ترى ماذا الذى زاد على) فهما من لغة الناس اليومية رفهما البهاء
زهير إلى مرتبة الشعر .

السخرية عند البهاء زهير :

وكالغزل البهائي نجد كذلك السخرية فهى هجاء لا إخفاش فيه
ولا إقذاع . وإنما هى من نزاهة اللفظ بحيث تقرأه العذراء فى خدرها

فلا يقبح منها كما قلنا . بل إن هجاء هذا الشاعر المصري في الواقع ليس
إلا ضرباً من الفكاهة المصرية والدعابة الشعبية التي تحار في تسميتها ،
فلا تجد لها غير لفظ واحد يستخدم في أوساطنا المختلفة في وقتنا هذا
وهو لفظ « التريفة » وهي شيء غير التعريض والتندر ونحوها في الأدب
العربي . فماذا نسمي قوله متهاكاً بامرأة :

كم ذا التصاغر والتصاوي غالطت نفسك في الحساب
لم تبق فيك بقية إلا التعلل بالخضاب
لا أقتضيك مودة رُفِع الخراج عن الخراب
وماذا نسمي قوله يذم عائداً عادة في مرضه :

وعائد هو سقم لكل جسم صحيح
لا بالإشارة يدري ولا الكلام الصريح
وليس يخرج إلا تكاد تخرج روصي
ثم ماذا نسمي قوله يذم شخصاً بالثقل :

بحق الله متعنى من وجهك بالبعد
فما تصلح للهزل ولا تصلح للجسد
فلا صبحت بالخير ولا أُسِّيتَ بالسعد

بل ماذا نسمي قوله يذم عالماً من علماء الدين :

كلما قلت استرخنا جاءنا الشيخ الإمام
فاعترانا كلنا منه انقباض واحتشام
وعلى الجملة فالش يخ ثقيل والسلام

ثم ماذا نسمى قوله في هجاء رجل ذى لحية :

وأحق ذى لحية	كبيرة منشوره
طلبت فيها وجهه	بشدة فلم أره
تباً لها من الحية	كبيرة محتقره
مضحكة ما كان قط	مثابها لمخبره
قلو مضى السوق بها	وزفها بالمزمره
لحصلت له مفل	ضيعة موفره

ثم ماذا تسمى قوله مداعباً صديقاً له :

لك يا صديق بغلة	ليست تساوى خردله
تمشى فتحسبها العيو	ن على الطريق مشكله (١)
وتخال مدبرة إذا	ما أقبلت مستعجله
مقدار خطوتها الطو	يلة حين تسرع أنملة
تهتز وهي مكانها	فكانما هي زلزلة

هذا هو نوع السخرية الذى نراه في شعر البهاء زهير . لم يخرج عن كونه مداعبات لطيفة ونكات بارعة ، وتندراً بالناس ، وتفكهاً يعتمد اعتماداً قوياً على عنصر (الشعبية) التى تميز بها الشاعر عن أقرانه .

• في هذه الأشعار وكثير غيرها مما يوجد في ديوان البهاء زهير عبارات وأسايب مصريتها أكثر من عربيته . والشعراء يتأبئون

(١) مشكلة من الشكل بكسر الشين وهو القيد يوضع في رجل الدابة

فلا تسمى .

أن يستعملوها منذ القدم وحتى في هذه العصور ، ويعدون ذلك تبذلاً وضعفاً وإخلالاً بجمال الشعر وجمال البيان ،^(١)

والحق أن شعر البهاء زهير يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف التي صقلتها مدنية خلفاء صلاح الدين الزاهية .

على مثل هذا النهج سار شعراء آخرون في العصر الأيوبي منهم (جمال الدين بن مطروح) صديق البهاء زهير . وقد حاول ابن مطروح مجازة صديقه في هذا المضمار وإن لم يبلغ منه ما بلغه .

ومن شعر ابن مطروح في المجال الشعبي الذي تقدم وصفه قوله :

سمعتها تشكى لدايتها ^(٢)	شكوى تذيب القلوب والمهجا
تقسول يا دايى بليت به	وما أرى من هواه لى فرجا
ومثل ما بى به ولا عجب	هوى بقلبي وقلبه امتزجا
فهل سبيل إلى زيارته	ولو ركبت البحار واللججا !
فرحت لما سمعت مبتهاجاً	كشارب الراح راح مبتهاجاً

ألا ما أظرف هذه القصة ! وما أدلها على الحب الذي امتزج فيه الرجاء باليأس والشوق بالحنن ! ثم هى بعد هذا كله قطعة من الحياة المصرية الواقعة ، والتعبير عنها جاء بطريقة تتفق والروح المصرى الصميم .

(١) عبارة وردت في كتاب الأستاذ مصطفى عبد الرازق بعنوان (البهاء زهير)

(٢) الداية المربية وليست بمعنى القابلة كما هو شائع في استعمالنا الحاضر .

وندع العصر الأيوبي إلى العصر المملوكي فنلتقي بشاعر شعبي آخر هو :

أبو الحسين الجزار :

يحيى بن عبد العظيم من شعراء الفسطاط ، ولهؤلاء الشعراء مذهب خاص بهم يبنون فيه شعرهم على إجادة التشبيه . وأستاذهم في ذلك شاعر هاشمي يقال له (ابن حيدرة العقيلي) .

غير أن أشعار الجزار كان الشبه عظيمًا بينها وبين أشعار البهاء زهير وأصحابه ، لأن طريقته كانت من أسهل الطرق التي تألفها العامة ولا تنكرها الخاصة لقرب مأخذها وحسن مزعجها .

وزار ابن سعيد صاحب كتاب « المغرب » مصر ونزل ضيفاً عند الجزار فأكرمه إكراماً عظيماً سرّ به ابن سعيد فانطلق يشئ عليه في كتابه ثناء عظيماً . وقال :

« وترددت على القاهرة من الإسكندرية فلم تفتني مرة ضيافته التي تشرق عليها أنوار الاعتناء ويسفر بحياها عن رونق البر والعطاء وهو على كونه نشأ بين ساطور ووضم^(١) ، ولم يرفع له في بيت نباهة ولا مجلس حكم علم من أحسن الناس شكلاً وأظرفهم وأحلام بياناً وألطفهم . ذر بزة تصلح للرؤساء السراة ، ومروءة لا توجد إلا عند السادة الآباء . وسلني عن ذلك فإني به خبير . وهو الآن على علي - وذلك ستة وأربعين وستائة - ممتع بالحياة أطالها الله له فيما يرضاه . ولا أعرف له رحلة

(١) الوضم الكتلة الخشبية التي يقطع الجزار عليها اللحم .

ولا خروجاً عن الديار المصرية بل اقتصر على التجول فيها من أعلامها
إلى أسفلها . وله في ذلك وفي شرح ما يقاسيه في العيش شعر كثير .
وهو الآن شاعر الفسطاط . كما أن الزكي بن أبي الإصبع شاعر
القاهرة (١) .

وما قيل في شعر البهاء زهير وابن مطروح يمكن أن يقال مثله
في شعر الجزار . فهو شعر أدنى إلى السهولة من حيث اللفظ ومن حيث
المعنى فضلاً عن أنه صورة من صور الحياة المصرية في تلك العصور التي
تؤرخ لها . ومن شعر الجزار يسخر من العلم وطلبه :

قطعت شببتي وأضعت عمري
وقد أتعبت في الهذيان فكري
ومالي أجرة فيه ولا لي
إذا ما مت يوماً بعض أجر
قرأت النحو تبياناً وفهماً
إلى أن كمت عنه وضاق صدري (٢)
وفي علم العروض دخلت جهلاً
وعمت بخفتي في كل بحر
فأذكرني به التفعيل بيتاً
تضمن نصفه الشيخ المعري

(١) كتاب المغرب لابن سعيد الجزء الرابع الصفحة ١٢١

(٢) كاع عن الصيء — من باب باع — هابه وجين عنه .

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

حديث خرافة يا أم عمرو

وفي نفس هذه القصيدة التي نظمها في مدح برهان الدين
ابن الفقيه قوله :

ولا سيما إذا ما كان شعري	وإن الشعر دون علاه قدرا
ولا ننحوا على الشيخ ابن بري	لأنى ما قرأت له صحاحا
بلا علم وشاع بذاك ذكرى	وقد شاركت في لغة ونحو
وقد أقررت أنى لست أدري	وعيشك لست أدري ما طحاها
تعلم آيتين فصار مقري	كأنى مثل بعض الناس لما

وفي هذه الأشعار المتقدمة تتجلى لنا نفس الشاعر فإذا هو رجل
ظريف عارف بمقدار نفسه . ولعله من أجل ذلك كان محبباً من
الخاصة والعامة في عصره .

ثم إن شعبية الجزار وظرفه يظهران كذلك في أشعاره في صنوف
الطعام التي يشتهيها الناس بمصر في شهر رمضان خاصة ، ومنها الكنافة
والقطائف وأنواع أخرى من الحلوى مثل « القاهرية » و « القطارة » ،
بضم القاف و « الخشنكان » وقد تغزل الجزار في جميع هذه الأنواع
بطريقة شعبية لطيفة ومن ذلك على سبيل المثال :

تالله ما لثم المرأش	كلا ولا ضم المعاطف
بالذ وقعا في حشا	ى من الكنافة والقطائف

بالصوم والإفلاس تب^١ مت^٢ عن السلافة والسوالف (١)
 حتمام أمشى فى طلا ب معيشتى والرزق واقف
 ومنها كذلك قوله :

سقى الله أكناف السكنافة بالقطر
 ويجاد عليها سكر دائم الدر
 وتبنا لأوقات (المخلل) لأنها
 تمر بلا نفع وتحسب من عمرى
 ولى زوجة إن تشهى قاهرية
 أقول لها ما (القاهرية) فى مصر (٢)

وفى أشعار هذا الشاعر كذلك ما يدلنا إلى أى حد كان يتألم
 من حرقة الجزارة ويود لو تركها إلى حرقة أخرى من الحرف كحرقة
 الأدب ، لولا أن هذه الأخيرة لم يكن يضمن أنها تدر عليه من المال
 ما يكفى معيشته . أما الحياة أو المنصب فلم يكن له تطلع ما إليهما
 لأنه لم ينس قط أنه من أسرة عريقة فى الجزارة . ولولا أنه كان خفيف
 الظل على الناس جميعاً لما أحبه الناس جميعاً . وفيهم الأمراء والوزراء
 وذوو الجاه والسلطان . وانظر إليه حيث يقول :

أقررت أنى جزار كما ذكروا
 عنى فهل غير هذا القول عندهم ؟

(١) السلافة الحجر . والسوالف جمع سالفة وهى رتبة الحسناء .
 (٢) القاهرية نوع من الحلوى كما تقدم ذلك والتورية واضحة فى البيت .

فأللحم والعظم والسكين يعرفني
والخلع والقطع والساطور والوضم
والإلى قوله :

أنا في راحة من الآمال أين من همتي بلوغ المعالي
لي عجز أراح قلبي من الهم ومن طول فكرتي في المحال
طاب عيشي والحمد لله إذ كنت ت له حامداً على كل حال
ما لباس الحرير مما أرجو به فيرجى ولا ركوب البغال
راحة السر في التخلف عن كل محل أضى بعيد المنال
ومع هذا وذاك فالظاهر أن أبا الحسين الجزار جرّب حظه وترك
الجزارة واشتغل بالشعر يمدح به الكبراء على عادة الشعراء في زمانه .
فعجز الشعر عن أن يقوم به في حياته ، وشكا ذلك إلى ممدوحيه ومنهم
الفقيه ابن نصر قائلاً له :

بك يا ابن نصر جئت أو جو نصره فأنعم وبادر
وأجره من زمني الذي دارت به على به الدوائر
أصبحت في أمرى — ولا أشكو لغير الله — حائر
واللحم يقبح أن أعو د لبيعه والشعر بائر
يا ليتني لا كنت جزا رأ ولا أصبحت شاعر

من أجل ذلك لم يكن عجيباً أن ترى الشاعر بعد ذلك يترك حرفة
الأدب ، ويعود إلى حرفته الأولى وهي الجزارة . وفي ذلك يقول
هذه الأبيات :

لا تلنى ياسيدى شرف الد
 كيف لا أشكر الجزارة ماعش
 ين إذا ما رأيتنى قصابا
 ت حفاظا وأرفض الآدابا ؟
 وبها أضحت الكلاب ترج

بني وبالشعر كنت أرجو الكلابا
 ونلاحظ أن صفات السهولة والفكاهة وإيثار المعاني القرينة من
 أفهام الشعب — وهى الصفات التى امتاز بها البهاء زهير — هى نفسها
 الصفات التى امتاز بها رجل كالجزار .

من ذلك قوله يصف داراً له تهدمت :

و لكن نزلت إلى السابعة	ودار خراب بها قد نزلت
بها أو أكون على القارعة	فلا فرق ما بين أنى أكون
فتصغى بلا أذن سامعة	تساورها هفوات النسيم
فتسجد حيطانها الراكعة	وأخشى بها أن أقيم الصلاة
نخسبت بأن تقرأ (الواقعة)	إذا ما قرأت (إذا دزلت)

ومن شعره السهل :

إلى متى هذا الغضب	يا هاجرى بلا سبب
للقلب عنك منقلب	كن كيفما شئت فما
حب ومثلى من عتب	مثلك من أعتب فى الـ
من حبه إلا التعب	يا مستريحاً لم أنل
ما كنت تجفو من أحب	تالله لو ذقت الهوى
غالب صبرى فأنقلب	أنكرت ما بى من جوى

يا زمنى هل للوصا ل عودة فترتقب
 هيات أن يرجع من طيب الليالى ماذهب
 والدمر من عاداته أن يسترد ماوهب

على أن من ينظر في شعر الجزار يجد في غرضين لا ثالث لهما من
 أغراض الشعر . وهما الشكوى والمدح . أو بعبارة أخرى يجد أنه شعر
 بنى على الشكوى ودار من أجلها حول المدح .

والشاعر في هذا كله يصوغ عبارته الشعرية في سهولة كسهولة الياء
 زهير ، وطريقة فنية تشبه طريقته كل الشبه . وهو بين هذا وذاك
 لا يبرح يعتمد في فنه الشعرى على التورية من جانب وعلى بقية الخصائص
 التى يمتاز بها الشعر المصرى الأصيل من جانب آخر . ومن هذه الخصائص
 الفكاهة . ومنها كذلك كثرة الحلف . ثم منها إثارة التراكيب الشعبية
 فى نهاية الأمر . وإليك أمثلة أخرى من شعره توضح ما نقول :

قال يعاتب بعض أصدقائه :

عثرات الناس بالناس تُقَالُ	فإلى كم بيننا قيل وقال
سیدی أنت وهبها هفوة	صدرت منى فأين الاحتمال
بالذى عافاك من وجد به	لم يكن للصبر فى صدرى مجال
فى محياى حياء ظاهر	حين ألقاك وفى لفظى اختلال
فأعف عني إن تلجلجت فما	لى إن لم تغتفر قول يقال
لا تعاقبنى على ذنب بدا	فاعتذارى عنه زور ومحال
عاقب الأعضاء منى كلها	ما خلا قلبى فما فيه احتمال

وانظر إلى قوله أيضا :

أقسم بالله أن شوقي
كن كيفما شئت فالموالي
إليك ما فوقه مزيد
لا تتساوى بها العبيد

وانظري إلى الشكوى في قوله :

يا أيها المولى الرئيس ومن له
أشكو لعدلك جور دهر لم أزل
وأشد ما قاسيت منه أنه
فاغفر لعبد قد أتاك وماله
بالله يقسم والنبي وآله
ما بات في ذا العيد يملك درهما
فتراه ينشد حسرة وتأسفا
جود يضاهي الغيث ساعة سكبته
طول المدى غرضاً لأسهم خطبه
عن شكر فضلك قد شغلت بعثته
حسنات أفعال تقوم بذنبه
أطهار أصحاب العبا وبصحبه^(١)
وكفاك أن الشعر أعظم كسبه
من همه لعدوه وبجبهه

وانظر إلى هذا البيت الأخير فإن الشاعر يصرح فيه بأن هموم
الزمان هي ما تضطره دائماً إلى مدح الناس سواء منهم العدو والحبيب .
وانظر إليه يمدح جمال الدين بن مطروح من كبار شعراء الدولة
الأيوبية :

أغنيتني من بعد فقرى
وأنتني مننا ية
أصبحت يا مولاي من
وغفرت لما أن وصلا
ورفعت بعد الخفض قدرى
ل لكثرتها حمدى وشكرى
نعماك أسعد أهل عصرى
ت إلى جنابك ذنب دهرى

(١) يشير إلى ما روى عن الشيعة من أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أتق
على فاطمة وعلى الحسن والحسين عباؤه وقال : نحن آل البيت الخ .

وأرحتى من حرقه تردى بصاحبها وتزرى
ويقول فى المدح أيضاً :

به انتصرت على جور الزمان وهل
يزلُّ من بات بالأنصار يتنصر
حسبى اعتمادى على بيت مكارمه
فى الدهر يخبر عنها البدو والحضر
قوم بقول رسول الله فضلهم
قيس بن سعد وما أدراك جدُّهم
إن الأصول عليها ينبت الشجر

معنى ذلك أن المدح عند أبى الحسين الجزار مصدره الشكوى وحدها ،
فهو لا يمدح إلا من يعينه على ظلم الأيام وهو يقسم دائماً قصيدة المدح
قسمين لا ثالث لهما :

الشكوى أحدهما والمدح ثانيهما ويقف عند هذا الحد .
ولقد أسرف الجزار فى الشكاية حتى أوشك أن يكون بعض
شعره نوعاً من الشحاذة . وانظر إلى هذه الأبيات :

يا جمال الدين لى حـ	ق على المولى وحرمة
وولاء	خدمة تتبع خـدمه
ويعملوكك هم	لا يطيق الآن كـتـمـه
هجم الـبرد عليه	هجمة من بعد هجمه
لا تسـل عنه فقد فصـ	بل هذا الفصل عظمه

— ١٦٠ —

وله أثر لحفاف تحت الأيام رسمه
مات بردا والذي واره ما أتقر رده
فهو إذ ينبش منسه في بقايا القطر رمه

* * *

أما (التورية) فهي كثيرة في شعره . وانظر إلى قوله يخاطب هاشميا
منحه قدرا من القمح فوجده قديما :

كتبت لنا بذاك السُّبربرا وقصدا في الثناء وفي الثواب
فكدر صفوه الكيال حتى بقينا منه في امر عجباب
وجدناه عتيقا واراضيها به إذ عاد وهو أبو تراب
ففي قوله (أبو تراب) تورية إذ هو كنية علي بن أبي طالب .

وانظر إلى قوله يخاطب الأمير شرف الدين يعقوب :

يا أيها المولى الذى لندى كفيه كل الجسود منسوب
لاغروا إن أصبحت تأمر باله سبر الجليل وأنت يعقوب

أما (السخرية) فكثيرة كذلك في شعره . ومنها قوله يذم رجلا
اشتهر بالخل :

لا يستطيع يرى رغي فما عنده في البيت يكر
فلو انه صلى وحا شاء لقسال : الخبز أكبر

ولأبي الحسين الجزار معان لطيفة في شعره نبه على بعضها ابن سعيد
الاندلسي في كتاب (المغرب في حل المغرب) ومنها قوله :

من منصفى من معشر كثروا على وكثروا
صادقهم وأرى الخرو ج من الصداقة يعد
كالخط سهل فى الطرو س ومخوه متعبذر
واذا أردت كشطته لكن ذاك يؤثر ١١

وأما فى العصر العثمانى فقد ظهر شعراء منهم الشيخ حسن البدرى
الحجازى ، والشيخ عبد الغنى النابلسى ، والشيخ مصطفى اللقىمى
الدمياطى ، وابن رضوان السيوطى المشهور بابن الصلاحى ، والشيخ
عبد الله الأذكارى ، والشيخ عبد الله الشبراوى ، وسنكتفى بالإشارة
هنا إلى البدرى الحجازى ، وابن الصلاحى ، وعبد الله الشبراوى :

حسن البدرى الحجازى :

واشتهر هذا الشاعر بنقده الحياة الاجتماعية فى العصر الذى انتسب
إليه ، وهو العصر العثمانى . وقد أعجب به أدباء عصره إعجاباً كبيراً
واستحسنوا طريقته فى الشعر . ومن هؤلاء الذين أعجبوا به الشيخ
الجبرقى صاحب التاريخ المعروف قال : « وله فى الشعر طريقة بدیعة ،
وسليقة منیعة ، على غيره رفيعة » . وقلما تجد فى نظمه حشواً أو تكلمة .
وله أرجوزة فى التصوف بلغت نحو ألف وخمسمائة بيت على طريقة
(الصادح الباغى) ضمنها أمثالا ونوادير وخطابات . وله ديوان على
حروف المعجم بعنوان (باسمين تنبيه الأفكار للنافع والضار) . وله
ديوان بعنوان (إجماع الإياس من الوثوق بالناس) شرح فيه حقيقة

شرار الخليفة من الناس المنحرفة طباعهم عن طريقة تقويم القياس .
وقد استشهدت بكثير من كلامه في هذا المجموع (يريد كتابه المعروف
في التاريخ) بحسب المناسبة وفي بعض الوقائع والتراجم . وله مزدوجة
سماها (الدرة السنية في الأشكال المنطقية) وختم ديوانه بأراجيز بديعة
ضمنها نصائح ونوادر وأمثالا واستغاثات الخ ... » .

ثم أتى الجبرتي بطائفة كبيرة من شعر الشيخ حسن البدرى الحجازى
وإليك أمثلة منها : قال متهمًا من الصوفية :

احذروا الى التسييح والسبحة	والصوف والعكاز والشملة
والدلق والإبريق لا سيما	شيوخ إبليس أولى الشعرة
حوت إبليس بتعسداد ما	حوت شعورا بل بلاعدة
قد صار إبليس لهم تابعا	يقول يا للعشون والنجدة
بما حوitem علموني فما	لى عنكمو فى المكر من غنية
لكم قيادى وانقيادى وما	مثلكمو فى النادى أو الندوة

بملء الافواه ينساون يا	أهل الوفا يا صاحب التوبة
يا شافعى يا قطب يا رافعى	بآل الرفاعى يا بنى الرفعة
يا سيدى أحمد يا أوليا	الكون عينونا على الحملة
لكنهم فى الفسق أرقى الورى	كما ترى من غير ما مرية
اتخذوا المرد مراداً لهم	تهالكوا فيه على الهلكة
فالبعد كل البعد عنهم فما	فى النحس من خير ولا خيره

وقال متها من شيوخ الأزهر :

الجامع الأزهر ابتلاه	رب له العز والوجود
بشكل فظ وكل قحف	عليك بالبشر لا يهود
قطعة صخر أليس فيه الـ	ثقل واليبس والجمود ؟
عمائمكم كبروا وكما	قد وسعوا لكي يسودوا
وتحت آباطهم رزايا	تسعين كراسا أو يزيد
بها يميلون حيث مالوا	لأجل مال لهم تصيد
لولا همو مالت السوارى	كل عمود له عمود
تزويرهم شاع في البرايا	سيان الأحرار والعبيد
صلوا وصاموا والليل قاموا	والقلب عن كل ذا بعيد
البعض منهم يقول لاني	في العلم بين الورى فريد
ومن مضى ليس لي يصاهي	حتى الجويني والجنيد
وهو - لعمري - «أريج علم	شم ولا بحثه يحيد
بل تلك دعوى ما قام فيها	قرينة لا ولا شهود
فالبد عنهم نفي سبيلا	تكن مجيدا نعم المحيد
فما سلنا حتى اعتزلنا	بالقلب عنهم كما نريد

وقال أيضا يذم علماء عصره :

عن علماء عصرك لا تسألن	فإن أحوالهم ظاهرة
نفعك من جانبهم منتف	في هذه الدنيا وفي الآخرة
قوم إذا لاح لهم مطعم	تسارعوا كالأكلب العاقرة

والعمل الصالح ما بينهم همتهم في فعله فاترة
وقال يتتقد عادة سيئة في المجتمع :

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا كل ذي جنّة لدى الناس قطبا
علمهم به يلوذون بل قد تخذوه من دون ذي العرش ربا
إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يفرج كربا
وإذا مات يجعلوه مزارا وله يهرعون عجا وعربا
بعضهم قبل الضريح وبعض عتب الباب قبلوه وتربا
هكذا المشركون تفعل مع أصنا

منهم تبتغي بذلك قريبا
كل ذا من عى البصيرة والو
ل لشخص أعمى له الله قلبا

وفي نفس المعنى يقول :

متى سمع الناس في دينهم بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل البعير بر ويرقص في الجمع حتى يقع
ولو كان طاوى الحشا جائعا لما زاد من طرب واستمع
وقالو سكرنا بحب الإله وما أسكر القوم إلا القصع !!
كذاك الحمير إذا أنخصبت تنق من ربيها والشبع !!

وقال في الحكم :

لا شيء تزرعه إلا قلعت غدا
إلا ابن آدم من يزرعه يقلعه

وما همومك ييكى غير نفسك أو
 صديق صدق وجميع منك يوجمه
 وأقرب الناس للإنسان عترته
 بل صلته بل دواهيته ومنجمه
 وراحة المرء فى دنياه عزله وصيته عن سوى ما فيه منفعة
 فلا تكن عاتبا يوما على أحد
 إلا على حظك المنحوس طالعه
 فذاك صاحبه ميت وتبصره
 حيا ولكن على الحيات مضجعه
 ومن شعره كذلك فى الحكم :
 كن جار كلب وجار الشجرة اجتنب
 ولو أخاك لك من أم يرى وأب
 ما يجار كلب شكا يوما بوائقه
 إذا شكا غيره من وحة الوصب
 وجانب الدار إن ضاقت مرافقها
 والمرأة السوء لو معروفة النسب
 لا تلق نفسك يوما فى الزحام فما
 فى رحمة لك خير لو على الذهب
 وقوله :
 أخى فطنا كن واحذر الناس جملة
 ولا تك مغرور الظنون الكواذب

— ١٦٦ —

فكم من قتي يرضيك ظاهر أمره
وفي باطن يرتاغ روع الثعالب
وأنتقص خلق الله عقلا قتي غدا
بقبضنة أثني لعبة المتلاعب
وخير عباد الله من لازم التقى
شكور العطايا صابرا للمصائب

وقال في ذم الأقارب :

حذار حذار من قرب الأقارب
فهم صلل الأفاعى والعقارب
أناس إن تعبت فيستريحوا
وتعبروهم لراحتك المتلاعب
غنيا إن تكن حسودا وإلا
فمنك تجنبوا من كل جانب
أمن فيها الأفاعى الشهد تعطى
أم السمرات تعطيك الأراطب ؟
أم الإصلاص يصلح من غراب
أم العمران من يوم الأخاب ؟
على الحساد دائرة الدواهي
تدور بها النواعى والنواعب

وكتب على قبره قوله

أيهـا الآتى ضريحى	قف على قبرى شوى ^(١)
واقرا القرآن عندى	ينزل الروح على
كم قبور زرت ياذا	وأنا مثلك حتى
ثم مادب ^٢ إليهم	بعد ذا دب ^٢ إلى
قهيـا لرحيل	واطو آمالك طي
لا تغرنك حياة	إنما الدنيا كفى ^(٢)
فتنبه وتدير	واتعظ من ذا أخى

ومات الشيخ حسن البدر اوى الحجازى سنة إحدى وثلاثين
ومائة وألف للهجرة .

ومن هذه الأسماء التى أتينا بها للبدرى ، نرى أنه خليف بإعجاب
الجبرتى ، وخليف كذلك بإعجاب الناس الذين عاشهم فى زمن قبل زمن
الجبرتى. فى شعره روح البهاء زهير وإن لم يبلغ مبلغه فى جودة الأسلوب ،
وفى لعتة نفحة من المصرية التى شاعت فى شعر البهاء زهير وإن كانت
المصرية فى شعر البهاء أشيع وأسير . وهو فلتة من فلتات العصر العثمانى
وهو العصر الذى حُرم من أمثاله بسبب الظروف التى أشرنا إلى بعضها
من قبل .

ولندع الشيخ حسن البدرى الحجازى لنتقل منه إلى :

(١) شوى لهجة عامية مصرية بمعنى (قليلا) .

(٢) القىء هو الغل .

ابن الصلحى :

وهو العالم الأديب محمد بن رضوان السيوطى المشهور بابن الصلاحى،
ولد بأسيوط ونشأ هناك . وأمه شريفة من بيت شهير ، ولما ترعرع
رحل إلى مصر وحصل العلوم وحضر دروس الشيخ محمد الحنفى
ولازمه وانتسب إليه ومال إلى فن الأدب وكتب نسخة من القاموس .

وله شعر عذب ربما ابتكر فيه ما لم يسبق إليه ، وقد أجاز له الشيخ
الحنفى هذا وأثنى عليه . وله بديعة تتضمن مدح رسول الله صلى الله
عليه وسلم ذيلها بقصيدة سمها الدرة البحرية والقلادة النحرية فى مدح
خير البرية ، وهى يزيد على الثمانين بيتا . ومن شعره فى المدح :

هات لى قهوة الشفا من شفاهاك
واسقنيها على نخامة جهاك
عاطنيها يا أوحى العصر لطقا
وبديع المثل فى أشباهك
يا أعز الأولى صور البدر شخصا
ليضاهايك فى البها لم يضاهاك
عاطنيها جهرا شفاها ولا تخ
ش ملاما فلذنى فى شفاهاك
عاطنيها ولا تدع لى حراكا
لست أقسوى على كمال انتباهك

قال الجبرقي : ومطلع هذه القصيدة مأخوذ من مطلع قصيدة نهرية
للشريف أحمد بن مسعود الحسني أحد أشراف مكة : وهي :

حس قبل الصباح نجب الكئوس

ومن شعر ابن الصلاح في المدح :

نقلوا أكاذيب السلاو لهاجرى

سناها — وما خطر السلاو بخاطري

يا ليتهم علموا بأسراري التي

أودعتها يوم الفوى بسراي

لله وقفتنا بجرعاء الحسى

والنجم مرصود لسهد الساهر

نملى أحاديث الغرام قنجلتى

منها سرور مسامع وخواطر

وندير كسات الوداع مديدة

فى شق أطواق وشق مراثر

وسوابق العبرات من دمعى ومن

شعرى كمقد لآلىء وجواهر

أدعو سراة الظاعنين كأنما

أرجو الوصال من الغزال النافر

لله أيام سلفن بوصله

والدهر يمثل لآمر الأمر

— ١٧٠ —

إن فائق طيب الزمان به فلي
عوض بطيب حديث عبد القادر
مولى تراه تقيته مهابة
من حسن آثار وطيب مآثر
يرضيك من أخلاقه وخلقه
برياض آداب وكسز مفاخر
وخصائل زينت بحسن فضائل
ومحاسن راقحت لعين الناظر
الله أكبر إن آية نوره
كبرى وراثة كابر عن كابر
مولاي لم أخطر مديحك خاطرا
إلا لأنك ثابت في الخاطر

وله في الغزل :

ظي الكناس له الفدا	بالأشرفية شادن
فجيشه صبح الهدى	يهدى السراة جينسه
وبلحظه سليل الردى	في عطفه هتف الصبا
قب من مراقبة العدا	لولا الحياء وما أرا
قبلي مساقطة الندا	لتساقطت بخدوده

وله في الغزل أيضا :

جاء داعي الحبيب يدعو لو صلى
في محل شدت على المباء ورقة

— ١٧١ —

فتعشرت من سرورى وما وا
فيت حتى مضى وأومض برقسه
وقال ارتجالا فى مجلس أنس :

شاق طرفاً السرور ظرفاً الربيع
قمتلى بحسن تلك الربوع
ما ترى الزهر ضاحكا لبكاء الـ
طل من قطره بالدموع
وغصون الرياض تخلع أثوا
ب التمدانى على الندى الخليع
فأنا بجمع إخوان صدق
زار طبع الوفاء قدر الجميع
ياصلاحى أرح فسؤادك والبس
من بشير اللقا قيص الرجوع

الحق أن ابن الصلاحى كان قلعة أخرى من قلعات البصر العثمانى .
وشعره فى باب الغزل يدل على رقة فى حسنه ، وقوة فى قته ، وجمال
فى لفظه ، وغزارة فى معانيه . وقد نقل الجبرتى من شعره أكثر مما
نقل من شعر غيره ، وإن كان ما نقله من هذا الشعر ينحصر فى فن واحد
فقط هو فن الغزل .

ومات ابن الصلاحى فى سنة ثمانين ومائة وألف للهجرة .
أما الشاعر الثالث والآخر من شعراء هذه الحلقة فهو :

الشيخ عبد الله الشبراوى :

وهو الإمام الفقيه المحدث المتكلم الأديب الشاعر عبد الله بن محمد بن عامر الشبراوى الشافعى . ولد سنة اثنتين وتسعين وألف . وهو من بيت علم انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعى فى حياة كبار العلماء الذين حضر عليهم .

ولم يزل يرقى فى الأحوال والأطوار ويفيد ويستفيد، ويملى ويدرس حتى صار أعظم الأعظم جاها ومنزله فى الدولة ، وأقبل عليه الأمراء ، وهادوه بأنفس ما عندهم . وبني دارا عظيمة بركة الأزبكية قرب الجهة التى يقال لها الرويسى . وكان طلبة العلم فى أيامه على جانب عظيم من الأدب وسمو الأخلاق . ومن مؤلفاته :

« كتاب مفتاح الألفاظ فى مدائح الأشراف » ، و « شرح الصدر فى غزوة بدر » .

وله ديوان شعر يحتوى على غزليات مشهورة بأيدى الناس . وكانت وفاته سنة إحدى وسبعين ومائة وألف — أى قبل ابن الصلاحى بتسع سنين .

ابتعد الشيخ الشبراوى مرة فى بعض أسفاره عن مصر فقال متشوقا لها وللنيل :

أعدت ذكر مصر إن قلبى مولع
بمصر ومن لى أن ترى مقلتى مصرا

— ١٧٣ —

وكرر على سمى أحاديث نيلها
 فقد ردت الأمواج سائله نهرا
 بلادها مدّ السباح جناحه
 وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
 رويدا إذا حدثتني عن ربوعها
 فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
 إذا صاح شحور على غصن بانه
 تذكرت فيها اللحظ والصعدة السمر
 صى نخوها سلوى الزمان مطي
 وأشهد بعد الكسر من نيلها جبرا
 لقد كان لي فيها معاهد لذة
 تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسرى

وقال في السيد عبد القادر نقيب الأشراف الذي حضر من البلاد
 الرومية وبعد أن بات ليلة واحدة وجد مذبوحا في فراشه :

أيها القوم ويحكم قد هدمتم
 بنية الله واتهمتم عباده
 وذبحتم هذا المذهب غدرا
 وقطعتم بقلظة أوراده
 ثم نحتم عليه زورا ولكن
 ذاك أمر قضى الإله نقاده

— ١٧٤ —

أيها النائحون مهلا فن ذا
 نال من دهره الخثون مراده
 لا تطيلوا على النقيب نحيبا
 فهو بالذبح نال أعلى سماده
 كم نبي وصالح وولى مات قتلا ونال أجر الشهادة
 هذه سنة الأماجد قدما كحسنيين وسعد بن عبادة
 حاز هذا الشريف لظفا من الله
 وسأوى في حوزة أجاده
 لوفور الأجور والرتبة العا
 يا وحسنى من ربنا وزيادة
 يا خيلي لا تأسفن وأرخ
 قدر الله قتله وأراده

٣٠٤ ٦٠٦ ٥٣٥ ٢١٧

لعل ذلك العصر كان عصر فتن ومؤامرات ، وذلك فضلا عن أنه
 كان عصر ظلام وجهالات ، ولعله بسبب ذلك لم يدم للأدب رواج. ومن
 ثم لم نستطع أن نقف بهذا العصر مثلبا ووقفنا بالعصرين السابقين له .

وهكذا نجد لمدرسة البهاء زهير تلاميذ وأتباعا في العصر العثماني
 لهم بعض رفته ، وفي شعرهم مسحة من فنه . أما مدرسة البديع —
 وزعيمها القاضي الفاضل — فلها تلاميذ في العصر العثماني . ولكن

الفرق كبير بينهم وبين شعراء البديع في العصر الأيوبي والمملوكي .
وقد أتى هنا الفرق من اختلاف هذه العصور من حيث الثقافة ومن
حيث الحضارة . والمتأمل في تاريخ الفنون ومنها الشعر يرى أن هذه
الفنون تتأثر تأثراً عميقاً بالحضارة التي تعيش فيها .

والأدب من بين هذه الفنون يتأثر تأثراً عميقاً بالثقافة التي تحيط
به ، ومعنى ذلك باختصار أن البديع لا يوجد إلا في ظل ثقافة واسعة
ومتنوعة ، وأنه يسوء في ظل ثقافة ضيقة وغير متعمقة . ومن هنا كان
البديع الذي ازدهر في الأدب العباسي أو الفاطمي أو الأيوبي أو
المملوكي مخالفاً للبديع الذي تكلفه الأدباء في العصر العثماني .

ولذلك أيها القارئ ، مثلاً واحداً من أمثلة البديع في العصر العثماني ،
وهذا المثل مأخوذ من مقامة للشيخ الإدكاري موضوعها المدح . وقد
توخى فيها الإدكاري لونا من ألوان العبث اللفظي يقوم على التصحيف
وفيه يقول في المدوح :

قائل فأنك أغرّ أعزّ حسنه جيشه كثير كبير
ساحر ساخر تجنى تحنى شائق سائق منير مبير

والعبث اللفظي هنا قائم كما قلنا على مجرد نقل النقط بين الحروف
فالنقطة على (العين) في (أغر) ترحزح إلى الحرف الذي يليه فيصبح
(أعز) وهكذا . وهو نوع سخيف من التصحيف ، يدل على الإفلاس
الفني لا أكثر ولا أقل .

الكتاب الثالث

في فن الكتابة

الفصل الأول

الكتابة الديوانية

تنوعت أغراض الكتابة في مصر في العصور التي تؤرخ لها . فكان الكتابة الديوانية ، والكتابة الإخوانية ، والكتابة الشعبية الهزلية ، والكتب التاريخية (ومنها السير على اختلافها) .

ونريد أن نعرض لهذه الأنواع الكتابية كلها مبتدئين بنثر الرسائل وانية . . وهنا نلاحظ ملاحظة فيها شيء من الغرابة . وخلاصتها الجهد الفني الذي بذله الكتاب في الرسائل الديوانية كان أكثر الجهد الفني الذي بذله الشعراء في القصائد الشعرية .

والظاهر أن السبب في ذلك يرجع في أكثره إلى أن كاتب الرسالة وانية كشاعر المدح لا بد له من توخي الجزالة في اللفظ والفضامة لعنى . وذلك بما يتفق ومكاته المدوح وعلو منزلته بين الناس ، صة إذا كان هذا المدوح هو السلطان أو الخليفة .

والرسالة الديوانية — وخاصة في عهد الحروب الصليبية — كانت توجه إلى مقام الخليفة العباسي في بغداد ، وكان يكتبها أديب ع مثل القاضي الفاضل أو العباد الأصفهاني في العهد الأيوبي ، محي الدين بن عبد الظاهر في العهد المملوكي . ومعنى ذلك أنه كان لا بد

لهذه الرسالة الديوانية من أن تتوفر فيها من القيم الفنية ما لا يمكن توفره في أى فن من الفنون الأدبية الأخرى .

ثم إن هذه الرسالة الديوانية كانت تشبه من قريب أو بعيد أنشودة النصر التي يعبر بها الكاتب عن مشاعر الجماهير ، فلا بد أن يكون تعبيراً قوياً مفعماً بالحياة . وأنت أيها القارئ حين تقف أحياناً عند لوحة فنية في معرض من المعارض تقول عنها إنها مملوءة بالحياة ، أو إنها قليلة الحظ من الحركة والحياة ، وتزنها في نفسك بهذا الميزان . وكذلك ينبغي أن تفعل بالقطعة الفنية اثرية كانت أم شعرية ، فهي لا بد أن تكون (محاكاة) دقيقة للموقف الذي تصوره . على هذا النحو كان القدماء يفهمون الأدب . وبهذا المقياس ينبغي لنا دائماً أن نقيس ما خلفوه لنا من أدب . ومنه هذه الرسالة الفاضلية :

رسالة للفاضل الفاضل إلى الخليفة العباسي

يبشره فيها بفتح القدس

قال الفاضل بعد مقدمة طويلة اشتملت على دعاء طويل للخليفة تمشياً في ذلك مع التقاليد المرعية في ذلك العصر :

« كتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققاً (١) ، وطارت فرقه فرقاً (٢) وفُـلَّ سيفه فصار عصاً (٣) »

(١) تشظت تطايرت منها الشظايا . والقناه الرمح . وشققا جمع شقة وهي القطعة .

(٢) طارت فرقه فرقاً — أى هربت من الفرق بفتح الراء وهو الخوف .

(٣) وفـل سيفه أى كل وأصبح لافرق بينه وبين العصا .

وصَدَعَتْ حصاته وكان الأكثر عدداً وحصى^(١) . فكلَّست حملاته
 وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان^(٢) ، عقوبةً من الله ليس
 لصاحب يد بها يدان . وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة .
 وغضَّست عيونه وكانت عيون السيوف بها كسيفة . ونام جفن سيفه
 وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون . وجدعت أنوف
 رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى راعفة بالمتون^(٣) . وأصبحت الأرض
 المقدسة الطاهرة وكانت الطامث^(٤) ، والرب المعبود الواحد ،
 وكان عندهم الثالث ،

دخل الفاضل في موضوع الرسالة — وهو هنا وصف الحرب
 التي انتهت بظفر المسلمين ببيت المقدس فقال :

الآن أظفر الله المسلمين بذلك العدو ، وقد تطايرت شظايا
 رماحه من الخوف ، وفرت جموعه من الذعر ، وكلَّست سيوفه فأصبحت
 كالعصى^٣ . وتناقص عدده وكان أكثر عدداً من المسلمين . ورأى
 المسلمون بأعينهم كيف تصرف قدرة الله تعالى في ذلك العدو ، وكيف
 أنزلت به من العقاب مالا يقوى على رفعه أحد من البشر ، وكيف
 زلزلت أقدامه وكانت ثابتة كل الثبات على الأرض ، وكيف أغمضت

(١) الحصاة الحجر الصغير لا يكسر لصلابته وصغره . والمعنى تفرق جيش
 العدو وتبدد .

(٢) عنان الدابة لجامها . والعيان بكسر العين الرؤية .

(٣) راعفة من الرعاف وهو الدم يخرج من الأنف .

(٤) المرأه الطامث هي الحائض .

عينه من الذل ، وكان شجعان المسلمين أنفسهم لا يستطيعون النظر إليها ، وكيف نام سيفه وكانت يقظته تذود عنهم النوم ، وكيف انكسر رمحهم وكان شامخاً بالأمانى وراعفاً بدماء المسلمين في الحرب . وبذلك أصبحت الأرض المقدسة طاهرة من الدنس ، وأصبحت تقول بوحداية الله تعالى بعد القول بالتثليث على مذهب النصارى .

ومضى الفاضل في وصف آثار الموقعة فقال :

« فيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة ببذل المطامع الوافية لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة ولا في فناء الألفية لهم نصرة . وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبذل الله مكان السيئة الحسنة . ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة . »

يقول الفاضل إذن في عبارته المتقدمة : إن بيوت المشركين أصبحت مهتومة ، وإن نيوبهم (وهى كناية عن قوتهم) أصبحت متكسرة ، وقد أجمعت جيوشهم على تسليم البلاد ، وأذعنوا لكل ما طمع المسلمون فيه من شروط أملوها عليهم حينذاك . فلم تتجههم سيوفهم ، ولا وسعتهم دورهم وأفنيتهم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة .

أما الفن الفاضلى فقد بلغ في الفقرتين السابقتين ذروته . فانظر إلى المقابلة بين السيف والعصا ، وبين المنى والمنون ، وبين ذلة الكافرين وعزة المسلمين . ثم انظر إلى الجناس بين « فرقه » بمعنى جموعه (وفرقا) بفتح الراء بمعنى خوفاً ، وبين « العنان » بمعنى اللجام

و « العيان » بمعنى الرؤية . ثم انظر بعد كل ذلك إلى ما هو أهم من كل ذلك . انظر إلى السيوف والرماح كيف جعل الكاتب لها عيوناً تكسف بالهزيمة . وكيف جعل لهذه العيون جفوناً نامت وكانت من قبل تزدود النوم عن عيون المسلمين . وكيف جعل للسيوف أنوفاً جدعت ، وكانت تشمخ دائماً بالأمل في الظفر على أولئك المسلمين وترعف بالدماء التي تقطر من أجسادهم في ميدان الحرب . ثم انظر إلى قوله كذلك : « ونيوب الكفر مهتومة » كيف جعل من الكفر شخصاً له أنياب . وهذه الأنياب أصبحت مهتومة بعد الهزيمة .

ويعمى الكاتب في وصف الموقعة فيقول :

« وقدم المنجنىقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالسها ، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ولا يفارق سهامها نصالها . فصالحوا السور بأكتافهم (١) . فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك . وقدم النصر نسرأ من المنجنىق يُخلد لإخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماء . فشجَّ مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها (٢) فأخلى السور من السيارة . والحرب من النظارة . فأمكن النقب أن يسفر للحرب النقب (٣) ، وأن يعيد الحجر سيرته من التراب . فتقدم إلى الصخر ففضخ سرده (٤) بأنياب معوله ، وحلَّ عُقده بضربه الآخرق (٥) »

(١) أكتاف الطائر أجنحته وأكتاف السور جوانبه .

(٢) شجج بمعنى كسر . ومرادع السور فتحاته . والعجيج الصياح والمجاج الغبار

(٣) النقب هو الرجل الذي ينقب السور .

(٤) السرد هو الثقب .

(٥) الآخرق الطائش .

الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمُقبله^(١) وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض ، وفتح من السور باب سَدَّ من نجاتهم أبواباً ، وأخذ نقب في حجره قال الكافر عنده ياليتني كنت تراباً . فحينئذ يثس الكفار من أصحاب القبور . وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور . .

في الفقرة السابقة وصف الكاتب عمل المنجنقات في الموقعة . فقد أخذت هذه المنجنقات تضرب في جوانب السور . كما أخذت سهامها تتخلل شرفاته كما يتخلل السواك ثانياً الفم . وكان المنجنق في أثناء ذلك كله يعلو في السماء حيناً ، وينخفض إلى الأرض حيناً كأنه النسر ، واستطاع المنجنق كذلك أن يشق فتحات الأبراج التي تتخلل الأسوار وأن يجعلها تن و يعلوها الغبار . وهكذا حتى خلت الأسوار جميعها من الناس كما خلا ميدان القتال نفسه من الجند . أما النصابون فقد استطاعوا أن يكشفوا النقاب عن هذه الحرب الزبون ، وأن يدكروا هذه الحصون حتى عادت سيرتها الأولى من الحجارة والطوب ، ثم عاد المنجنق إلى تلك الصخور التي أمامه فطحنها بمعوله طحناً ، وما زال يضربها ضرباً حتى لم يعد لها أثر .

وسمعت الصخرة الشريفة لتلك الصخور وأنينها واستغاثتها وحنينها ، فرقت لها ، وعجبت لخرابها . وعاد النصابون ففتحوا أبواباً أخرى

(١) مقابلة موضع التقييل منه .

في السور أياست العدو من النجاة وصاح الكافر عندها واحسرتاه .
 أما الفن الفاضلي في هذه الفقرة فكان كسابقه في الرفع والدقة ،
 فانظر إلى المنجنىقات كيف جعل الكاتب من سهامها مساويك تدخل
 في ثنايا الشرفات الممتدة على طول السور من أوله إلى آخره . وانظر
 إلى هذه المنجنىقات كيف حلقت فوق الأسوار وهبطت عليها في حركة
 تشبه حركة النسر . ثم انظر إلى معاول النقاين كيف جعل منها الكاتب
 أنيابا تمضغ الصخر . وانظر إلى الصخر كيف يئن من وقع هذه المعاول
 التي تضربه ، وكيف علا أنينه حتى سمعته الصخرة المقدسة بالمسجد الأقصى
 فرثت له .

ثم انظر بعد هذا كله إلى تلك الصخور التي سحقها المعاول سحقاً
 كيف تبرأ بعضها من بعض ، وإلى الخراب الذي حل بها كيف حلف
 بأنه لن يبرح الأرض !

وبهذه الخطوط الأخيرة أتم لنا القاضي الفاضل رسم لوحة رائدة
 لهذه الموقعة الفاصلة التي انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين ،
 وهي موقعة حطين ، وكان في أثناء ذلك كله يستخدم ألفاظاً قرآنية
 يدمجها في رسالته الديوانية فكانها جزء من كلامه في هذه الرسالة
 الديوانية .

وفي العصر المملوكي نبغ كتاب كثيرون في فن الرسائل الديوانية
 وعلى رأسهم الكاتب المعروف باسم :

محي الدين بن عبد الظاهر

وهو عبد الله بن عبد الظاهر المصري . ولد سنة ٦٢٠ هـ وتوفي سنة ٦٩٢ هـ . وكان في طريقته الكتابية تليذاً مخلصاً للقاضي الفاضل . يلتزم السجع ويكلف بالطباق والمقابلات وغير ذلك من المحسنات البديعية ، وأهمها التورية . وكان محي الدين هذا رئيساً لديوان الإنشاء في عهد الظاهر بيبرس . وقيل إنه وضع كثيراً من اصطلاحات الإنشاء ، ومن النظم الديوانية التي ظل معمولاً بها في مصر والشام إلى الفتح العثماني .

نموذج من كتابته

كتب محي الدين بن عبد الظاهر عن السلطان الملك المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن يبشره بفتح مدينة يقال لها : « صافيتا » قال : « فمن ذلك حصن الأكراد الذي تاه بعطفه (١) على الممالك والحصون ، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون (٢) وغدا بجاذباً بضبع (٣) الشام ، وأخذاً بمخائق بلاد الإسلام ، وشلا في يد البلاد ، وشجا في صدر العباد . تنقض من عشه صقور الأعداء الكاسرة ، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة . وتربض بأرباضه آساد تحمي تلك

(١) عطفه بكسر العين جنبه . والمعنى أن الحصن كان يفتخر بقوة ومنعته على الحصون الأخرى .

(٢) الحرب الزبون التي يدفع المقاتلون فيها بعضهم بعضاً لكثرتهم .

(٣) ضبع الشام أي عضد الشام .

الآجام (١) . وتُفَوَّق من قسِيَّه سهام تصمى (٢) مفوَّقات السهام تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون . ويصطنى كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون . كم شككت منه (حماء) فله الإنصاف . وكم خافته (معرة) وما من معرة خاف . ما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه . تشكو من جور جواره تلك الحصون والصياصي (٣) وتبكي بدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بدمع العاصي (٤) .

والكاتب في الفقرة السابقة يصف لنا منعة الحصن الذي فتحه الماليك ، وهو حصن صافيتا . ويتبع في ذلك الطريقة التي عرفناها عند القاضي الفاضل فهو يقول عنه إنه حصن من حصون الأكراد طالما اقتخر على غيره من الحصون بمنعته وقوته ، وشمخ بأنفه على الأبطال والجنود فلم يجرؤ أحدهم أن يثير الحرب من حوله . وذلك بالرغم من أن هذا الحصن المنيع من حصون الأكراد ظل قابضاً على الشام ، آخذاً بخناق غيره من بلاد الإسلام ، يصيب هذه البلاد كلها بالشلل ، ويبدو وهو شجاً في حلق أهلها طول الزمن . منه تنقّض صقور الأعداء الكاسرة ومن سطوته ومهابته تفزع قلوب الجيوش القاهرة . وفي أرضه تقيم أسود تحمى عرينه ، وتنبعث سهام تعلو على بقية السهام ، وتصيب حاملها

(١) الأرباض النواحي . والآجام جمع الأجمة وهي الغابة .

(٢) تصمى تميت .

(٣) الصياصي الحصون المنيع .

(٤) العاصي اسم نهر من أنهار سورية تقع عليه جملة مدن منها حماه وغيرها

بالموت الزؤام . الملوك تدفع له الجزية عن يد وهم صاغرون .
وأصحاب هذا الحصن يختارون من أموال هؤلاء الملوك أكرمها
وأحسنها ، ويقتصبونها من أولئك الملوك وهم صابرون ، لا باختيارهم
ولكن رغم أنوفهم . أما البلاد الواقعة بالقرب من هذا الحصن المنيع
فطالما شكت منه الجور والظلم . فهذه (حماه) تقول إنها لم تذق معة طعم
العدل أو الراحة . وهذه (المعرة) لم تجد من العار عليها أن تظهر
خوفها من جواره . وهكذا أجمعت المدن كلها على كراهيته والدعاء
عليه ، رغم أنها من المدن المنيعه ، ذات الحصون القوية المريعة . وهي
مع عصيانها وتمردا تبكى بدمع كالنهر من شدة تأثرها منه . وما ظلمك
بدموع الغيظ من العدو .. الخ ،

أما الفن البديعي الذى يطلع علينا من ثنايا هذا الجزء من أجزاء
الرسالة فهو — كما سبق أن قلنا — يذكرنا دائماً بفن القاضى الفاضل .
حرص على السجع من أول العبارة إلى آخرها . وميل إلى
(التشخيص) أو التحدث إلى الجمادات على أنها أشخاص تشعر وتحس ،
وتأتى من السلوك ما يأتى به الشخص . فهذا الحصن الذى يصفه
الكاتب له جنب يميل به من الفخر ، وله أنف يشمخ به من الدخول فى
الحرب ، وله يد يقبض بها على الشام ، ويمسك بها فى خناق الإسلام .
بل إن الحصن ليشبه ملكا كبير السطوة تأتى إليه الملوك لدفع الجزية
وهم خاضعون ، ويختار من أموال أولئك الملوك ما يريد ، ويدع لهم
مالا يريد . ثم إن هذا الحصن لا يقف به الأمر عند هذا الحد . بل إنه
يعتبر مصدر خوف دائم لجميع البلاد والحصون المحاورة . فهذه (حماه)

لا تستطيع أن تحمى نفسها من جورهِ ، وهذه (المعرة) لا تجد من المعرة عليها أن تظهر الخوف منه . وفي هذه العبارة الأخيرة (جناس) بالاشتقاق — وهو جناس تام بين (المعرة) اسماً لبلد (والمعرة) مصدراً ميمياً من العار .

ثم انظر إلى (التورية) البليغة في قوله (وناهيك بمدمع العاصي) . فالعاصي هنا لفظ أريد به معنيان : أحدهما قريب وهو اسم النهر المعروف في سورية . والآخر بعيد وهو اسم للعاصي ضد المطيع أو الخاضع .

و نعود إلى رسالة محي الدين بن عبد الظاهر فنراه يقول بعد ذلك :
 « حتى نبّه الله الحافظ سيوف الإسلام من جفونها ، ووفى النصرة ما وجب من ديونها . وذاك بأننا قصدنا فسيح ربعة ، ونزلنا ونازلنا محسبي^١ صُقعهُ ، ونختمنا بنضالنا على قلبه وسمعه ، وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهي كالأنامل ، وتكاد بروحه تُرى كالمطايا المقطرة^(١) وهي فيها بمنزلة الزوامل^(٢) . ما نخيّمنا به حتى استبحنا محسبي^٢ تلك المدائن المكنى عنها بالآرباض . وأسحنا بساحاتها بحراً من الحديد ما اندفع حتى فاض . وأخذنا الثقوب في أسوار لا تُنقض ولا ينقض بنيانها المرصوص ، ولا تقرأ المساوِل ما لخواتم أبراجها من نقوش الفصوص . ونصبنا عليها عدّة مجانيق حملت في شواهِق الجبال على

(١) المطايا المقطرة : الإبل التي يتبع بعضها بعضها كأنها قطار .

(٢) الزوامل جمع زاملة وهي الدابة التي يحمل عليها كالإبل وغيرها .

رءوس الأبطال . فتغيّطت السمهرية^(١) أن الذى تقوم به هذه تلك به لا تقوم ، وإن منها إلا له من الأيدى والرءوس مقام معلوم . وصار يرى بها كل كى مختلس ، وأروع منتبس^(٢) إلى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام بجانبه تميل من العُجب فصارت تميد من العجب . .

فى الفقرة السابقة يحكى الكاتب قصة النصر والغلبة على هذا الحصن فيقول : إن سيوف الإسلام ما كادت تصحو من نومها وتخرج من أغمدتها حتى جاءها النصر الذى وعدها الله به . ذلك إنه ما كاد جنودنا يصلون بجموعهم إلى ربوع هذا الحصن الفسيحة حتى نزلوها وصارعوها وختموا بسيوفهم على قلبها وسمعها .

ثم وصف الكاتب هذا الحصن كما رآه جند الممالك فقال :

وحول هذا الحصن مدن خمس تتصل به كما تتصل الأصابع الخمس براحة الكف، وله أبراج كثيرة متقاربة يلحق بعضها ببعض كما تتلاحق الإبل فى القافلة الواحدة ، وتسير هذه الإبل تباعا خلف الناقة المتقدمة .

ثم واتى الجند الممالك إلى هذا الحصن فاستباحوا حماه . وأسألوا به نهرا من الحديد ، وأخذوا يثقبون أسواره وإن كانت أسواره تعز على الثقب أو النقب ، وكانت المعاول تصل فى ثقب هذه الأبراج العالية بسرعة بالغة فلم تتمكن من النظر فيما عليها من نقوش . أما المجانيق فكان

(١) السمهرية : الرماح .

(٢) منتبس من نهسته الحية مثل نهشته وزنا ومعنى .

لها دور كبير وخطير . فقد نصبت على رؤوس الجبال فصار منها
الرماح والسيوف ، واستيقنت من نفسها العجز عن أن تقوم بما تقوم
به هذه المنجنيقات من جلائل الأعمال ، وعرفت هذه الرماح والسيوف
مكانها من ميدان القتال ، وأن لها عملا لا تستطيع أن تتناول به على
المجانيق بحال من الأحوال .

وهذه المجانيق تصيب من جنود الأعداء كل يقظ يتحين الفرص ،
وكل نهس يحاول يذكائه أن ينهز وقتا يكون فيه المماليك غافلين .
وما زال أبطالنا على هذه الحال من القتال حتى وقعت الأسوار وكأنها
جشت على ركبها من الخضوع ، ومالت رماحها وسيوفها وبجانيقها من
العجب والدهش بعد أن كانت تميل من الزهو والمرح .

وأما الفن في هذه الفقرة السابقة ففضلا عن اعتماده على التشخيص
فإنه يعتمد كذلك على التجنيس كما في قول (أسحنا بساحاتها) و (نزلنا
ونازلنا) و (تسنقض وينقض) و (العجب والعجب)
وفي العبارة من الصور البيانية الرائعة مالا يخفى كذلك على
القارئ ومنها :

صورة السيوف لها الحافظ تستيقظ من جفونها . وصورة الحصن
وحوله مدن خمس تتصل به كاتصال الأصابع الخمس براحة الكف .
وصورة الأبراج المتلاحقة كتلاحق الإبل في القافلة . وصورة المعاول
لا تستطيع أن تقرأ ما على نخواتم الأبراج وفصوصها من الكتابة .
وصورة الرماح وهي تغار من المجانيق كل هذه الغيرة . ثم صورة الأسوار

— ١٩٢ —

والأبراج وهي تجشو على ركبها وتبدي عجبها بعد أن كانت تبدي عجبها الخ .

وكل ذلك على مذهب فاضلي في الكتابة لا يحيد عنه الكاتب ولا يؤثر عليه مذهبا آخر ، أو يزاوج بينهما بطريقة من الطرق .

هذه نماذج من الرسائل الديوانية التي خلفتها لنا تلك العصور التي نؤرخ لها . كتبت في إبان الحروب الصليبية وهي الحروب التي استغرقت حياة الدولة الأيوبية وجزءا غير قليل من دولة المماليك البحرية .

أما في العصر العثماني فلم تكن هناك بواعث قوية لإجادة الكتابة ، وكان سلاطين آل عثمان لا يفهمون العربية ، وكان ذلك أدعى للكتاب لكي لا يفكر أحدهم في كتابة الرسائل الديوانية بهذه الطريقة أو تلك من طرق الكتابة العربية المعروفة . ومن ثم خلا العصر العثماني كله من رسالة واحدة من مثل هذه الرسائل .

الفصل الثاني

الكتابة الهزلية

نقصد بالكتابة الهزلية كل ما صدر عن الكتاب والأدباء في ذلك الوقت من الكتب الفكاهية والآثار الهزلية التي يتلها بها الخاصة والعامة ، ويتسلون بها كما نتسلى نحن في أيامنا هذه بقراءة بعض الصحف أو المجلات التي من هذا النوع .

ومعلوم أن هذه الكتب كثيرا ما كان يلجأ كتابها ومؤلفوها إلى اصطناع العامية بدل العربية وذلك حتى يتوفر لها الطابع المحلي الذي لاغنى عنه في مثل هذه الكتب أو القصص .

وليس عندنا من الأمثلة على هذه الكتب الهزلية منسوبة إلى تلك الفترة التي نؤرخ لها غير طائفة يسيرة من الكتب أهمها مايلي :

الأول : كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن بمان .

والثاني : كتاب رسائل الوهراني لمؤلفه الوهراني .

والثالث : كتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » ،
ليوسف الشربيني .

والكتابان الأولان منسوبان إلى العصر الأيوبي . وأما الكتاب
الآخر فمأثر من آثار العصر العثماني .

١ — كتاب الفاشوش في حكم قراقوش

مؤلف الكتاب : هو الأسعد بن بمانى . انحدر من أسرة قبطية
من أعرق أسر الصعيد . وكان ميلاده حوالى سنة ٤٤٤ هـ للهجرة
بمدينة أسيوط .

وبمانى (بتشديد الميم الثانية) اسم لجده الرابع . وقد سمي ذلك الجد
بهذا الاسم لحادثة صحيحة ذكرها التاريخ . هى أن جماعة كبيرة حدثت
بمصر عقب انخفاض النيل ، عزت فيها الأقوات ؛ حتى لم يجد الناس
ما يأكلونه غير القبط والكلاب . وكان (بمانى) فى أول هذه الجماعة من
كبار الأغنياء ، ومن يملكون أقواتا كثيرة ، فكان الأطفال الصغار
بالمدينة يذهبون إلى بيته ، ويقفون صفوفًا هناك ، ويصيحون بصاحب
البيت : بمانى ! بمانى ! يريدون : أمى ! أمى ! فيخرج الرجل إليهم ويوزع
عليهم الأقوات ولا يتركهم حتى يشعروا بالشبع .

وكان بمانى هذا فوق كرمه وعطفه رجلاً بارزاً فى المجتمع المصرى .
فقد تولى بعض المناصب العالية فى الدولة الفاطمية . وأما والد الكاتب
نفسه فاسمه (الخطير) كان على رأس ديوان الجيش بمصر فى العصر
الفاطمى . وفى أيام صلاح الدين الأيوبي أعلن إسلامه ، وتبعه أولاده
فى ذلك . فسر بهم صلاح الدين وعينهم فى مناصب كبيرة

أما (الأسعد) بن ممتق وهو واضع هذا الكتاب الذى نحن بصدده الآن ، فقد خلف أباه (المهذب) على ديوان الجيش ، وبقى رئيسا له مدة طويلة . ثم أضيف إليه فى أيام صلاح الدين وابنه العزيز ديوان المال . وبقى رئيسا له مدة كبيرة .

واشتهر الأسعد بالأدب وتقرب من زعيم الحركة الأدبية فى زمانه وهو القاضى الفاضل . وكان هذا يحبه ويطلق عليه اسم « بلبل المجلس » .

وبقى الأسعد على هذه المنزلة الرفيعة فى عالم الحكم وعالم الأدب حتى حدث حادث خطير فى عهد الدولة الأيوبية . وهو انتقال الدولة من أيدي أولاد صلاح الدين إلى أيدي أولاد أخيه الملك العادل أبى بكر ابن أيوب . وإذ ذاك تبدلت الحال غير الحال وأصبح الأمر كله فى يد وزير آخر غير القاضى الفاضل . وهذا الوزير الجديد الذى حل محله هو (صنى الدين بن شكر) . وكانت بينه وبين الأسعد بن ممتق إحنة وبغضاء . فلما جلس (ابن شكر) فى دست الوزارة فكر فى الانتقام لنفسه من الأسعد بن ممتق . فنسكه نكبة هائلة وصادر أمواله الكثيرة وعلقه على باب داره بمصر على ظهر الطريق إحسدى عشرة مرة فى يوم واحد !!

ومات الأسعد بن ممتق فى حلب سنة ٦٠٦ للهجرة ودفن بظاهرها . ندرك بما تقدم أن الأسعد هذا نشأ فى بيت غنى وجاء . وأن أسرته كانت من أشهر أسر الصعيد فى مصر الفاطمية . وأنها دخلت الإسلام على يد صلاح الدين الأيوبي ، فزادها الإسلام قوة على قوة ، وتعرض الأسعد بسبب ذلك لحسد الحاسدين وتقمة الناقمين .

كتاب الفاشوش :

أما كتاب (الفاشوش في حكم قراقوش) فهو عبارة عن حكايات صغيرة وضعها الكاتب للثيل من شخصية كبيرة من شخصيات العصر الأيوبي — هي شخصية بهاء الدين قراقوش ، ذى السيرة المعروفة في تاريخنا المصرى الوسيط . وسنأتى على أطراف من هذه السيرة بعد أن نفرغ من عرض الكتاب الذى وضع فى التشهير بها والسخرية منها .

افتتح ابن ممتى كتابه هذا بقوله :

« إتنى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخزّمة فاشوش (١) قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة . لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم . الشكّية عنده لمن سبق ولا يهتدى لمن صدق . ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يردّ كلمته . يشتاط اشتياط الشيطان ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان . صنعت هذا الكتاب لصالح الدين عسى أن يريح منه المسلمين . ثم ساق الكاتب اثنتين وعشرين حكاية منها على سبيل المثال :

(١) المحزّمة هي الحزمة . والفاشوش الأحمق أو الحق نفسه . والمعنى أن عقل قراقوش لا يحتوى على أكثر من الحق والغباء الخ .

الحكاية الأولى

كان قراقوش رجلاً صقلياً يميل إلى البيض ويكره السود . واضطرته الظروف في يوم ما إلى الحكم بين امرأة حجازية ، وجارية لها تركية . وكانت هذه أول مرة يحكم فيها .

قالت الحجازية لقراقوش :

إن هذه جاريته قد أساءت الأدب عليّ . فنظر قراقوش إلى بياض الجارية التركية وسواد الحجازية وقال للحجازية .

ويلك - أخلق الله جارية تركية لجارية سوداء حجازية ! ما أنا بأحق أو مفعل . يا غلمان : ودوا هذه الحجازية الحجرة !

ومكثت الحجازية شهراً . وما لبثت أن عادت تقول :

إنني قد اعتقتها لوجه الله تعالى !

فقال لها قراقوش :

يا سبحان الله ! إنها هي التي تعتقك فإنك أنت جاريته وإن أرادت أن تبيعك فإنها تبيعك . وإن أرادت أن تعتقك فإنها تعتقك .

فقالت الحجازية للتركية :

اعمل معي مثل ما عملت معك .

قالت التركية :

وما تريد مني ؟

قالت الحجازية :

اذهي إلى قراقوش وقولي له : إنك تعتقيني لوجه الله تعالى .
 فذهبت التركية إلى قراقوش وقالت له : إني عتقت سيدتي الحجازية
 لوجه الله تعالى :

فقال قراقوش : جزاك الله خيراً . وخرجت الحجازية من السجن .

الحكاية الثانية

جاء إلى قراقوش ثلاثة رجال . أحدهم أجروء ليس له لحية ولا
 شارب . والآخران لسكل منهما لحية وشارب . وقد تعدى الأجروء على كل
 منهما وبتف ذقنه من جذورها . فذهب الرجلان إلى قراقوش وقالوا له :
 « يا مولانا بهاء الدين . خذ لنا حقنا من هذا الأجروء . فقد نتف
 ذقوتنا ومزق ثيابنا . فنظر قراقوش إلى الأجروء وقال لصاحبيه : ويلكم
 تتفم ذقن هذا الصبي . وجهتم تشكون إلى . يا غلمان : ودّوها إلى
 الحبس ، ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الصبي !

الحكاية الثالثة

قيل إن قراقوش سابق رجلاً بفرس له . فسبقه الرجل بفرسه
 فخلف قراقوش أنه لا يعلف فرسه ثلاثة أيام . فقال له السابق :

يا مولاي أخشى أن يموت الفرس !

فقال قراقوش :

احلف لي أنك إذا علفته يا هذا لا تعلمه أنتي دريت بذلك .

فخلف له الرجل وأعطى العلف للفرس !

— ١٩٩ —

الحكاية الرابعة

قيل إن غلاماً لقراقوش كان يشتغل (ركاب دار) أى صاحب الركاب . وإن هذا الغلام قتل نفساً . فقال قراقوش : اشنقوه ! فقيل له : إنه حدادك الذى ينعل لك الفرس . فإن شنقته خسرتَه ولم تجد غيره . فنظر قراقوش ناحية بابَه فوجد رجلاً قفاصاً (أى صانع أقفاص) . فقال : ليس لنا بهذا القفاص حاجة . فلما أتوه به قال : اشنقوا القفاص . وسيبوا الركاب دار الحداد لكي ينعل لنا الفرس !

الحكاية الخامسة

حكى عن قراقوش أنه نشر قيصره . فوقع القيصر من على الجبل . فلما بلغه ذلك تصدق بألف درهم وقال : الحمد لله - لو كنت لابسا هذا القيصر وقت وقوعه لانكسرت !

الحكاية السادسة

حكى أن شخصاً شكى إلى الأمير بهاء الدين قراقوش بماطلة غريمه فذهب المدين إلى الأمير وقال له : يا مولانا - إني رجل فقير . وكلما حاولت أن أحصل للدائن على شيء لم أجده . فإذا صرفت هذا الشيء جاء الدائن وطلبني . فقال قراقوش :

— ٢٠٠ —

احبسوا صاحب الحق حتى يصير المديون إذا حصل على شيء . يجحد
لصاحب الحق موضعاً معلوماً يذهب إليه فيه ويدفع الحق .
فقال صاحب الحق :

تركت أجرى على الله . ومضى !

الحكاية السابعة

حكى أن جماعة من الفلاحين جاءوا إلى قراقوش . وشكوا إليه
خراج القطن وقالوا له : يامولانا السلطان : البرد شوش على القطن
هذه السنة . وأنت تفرج عنا وتساعدنا من بعض المال .

فكان من جوابه لهم بعد سكوت طويل :

لأى شيء أسأخ في بعض المال ؟

لما رأيتم البرد اشتد كان عليكم أن تزرعوا مع القطن صوف لأجل
ما يدفعه ! ! ولكنكم استهنتم بالحكومة وبالزراعة . ولم تفتحوا أعينكم
لخدمة أستاذكم . أين المشاعلى يضرب أعناق الجميع !

فلم يقدر أحد من جلسائه أن ينقم عليه ذلك !

* * *

تلك أمثلة من حكايات ابن ممتى التي اخترعها اختراعاً ليضحك الناس
بها من عقل الأمير بهاء الدين قراقوش ، وليصوره لهم بصورة الرجل
المجنون أو المعتوه أو المخبول أو الشاذ في سلوكه وتصرفاته إلى الحد الذي

— ٢٠١ —

لا يستطيع التفرقة معه بين الحق والباطل ، ولا بين الأبيض والأسود ،
ولا بين المظلوم والظالم ، ولا بين النافع والضار ، ولا بين الجائز من
الأمور وغير الجائز منها .

ومن سخر الكاتب بهذه الطريقة ؟

سخر الكاتب بهذه الطريقة من أعظم شخصية عرفها العصر
الأيوبي . وهى شخصية :

الأمير بهاء الدين قراقيرى

وهو الرجل الذى خدم فى بلاط عماد الدين . وكان حارس العصر
الفاطمى فى أول عهد السلطان صلاح الدين . وكان واحداً من رجالات
الدولة الأيوبية الذين اعتمدت عليهم هذه الدولة فى كثير من أعمالها
المخالدة . ومنها المنشآت الضخمة التى احتاج إليها السلطان صلاح الدين
الأيوبى مثل (قلعة الجبل) و (قلعة المقمس) وغيرهما من القلاع
التي أصبحت جزءاً من سور كبير كان يحيط بمدينة القاهرة . وكان
السلطان بحاجة شديدة إليه فى الدفاع عن مصر ضد غارات الفرنج
فى أثناء الحروب الصليبية المعروفة فى التاريخ الوسيط .

وقلعة الجبل هى التى سكنها صلاح الدين وأولاده من بعده واتخذوا
منها مقراً لدواوين الحكومة وبقيت كذلك إلى أن جاء محمد على
الكبير فاتخذ منها كذلك مقراً لدواوينه الكثيرة . ثم لم يكن إلا
فى عهد إسماعيل أن انتقلت دور الحكومة من قلعة الجبل إلى دور
أخرى فى وسط مدينة القاهرة .

وقراقوش هو الذى حوى عرش العزيز ابن السلطان صلاح الدين
وأُنقذه من قفنة كبيرة كادت تودى بملكه .

وقراقوش هو الذى أصبح فيما بعد وصيا على عرش المنصور بن
العزيز الذى مر ذكره . ولم يجد العزيز فى دولته رجلا أولى منه بهذا
المنصب الكبير ولا أشجع ولا أقدر منه على القيام بهذه المهمة .

فانظر إلى رجل هذا شأنه وتلك سيرته كيف أصبح له ذكر سىء
فى التاريخ . واسأل من المستوول عن كل ذلك . نجد أنه الأدب . فما أقدر
الأدباء فى كل زمان ومكان على أن يقبلوا الحق باطلا والباطل حقا .
وكم فى تاريخ البشر من رجال عظماء أهملهم الأدب ونهض بغيرهم
من لا يدانونهم فى العظمة الادبية أو العظمة الخلقية أو العظمة الحربية .

ولقد تنوعت طرق السخرية عند الخاصة والعامة ولكن الفرق عظيم
بين طرق هؤلاء وأولئك .

وإن الناظر فى هذه الحكايات الصغيرة التى اشتمل عليها كتاب ابن
مماق يرى لأول وهلة أنها شبيهة بنوادر الخلق والمغفلين ، وهى النوادر
التي غصت بها كتب الأدب العربى . ومن ثم فأدب ابن مماق هو من هذا
الضرب المسمى فى فن السخرية باسم « الهزل » أو « الفكاهة » ، والذى
لا يصدر فى الغالب إلا عن العامة من الناس الذين لا هم لهم الا تزجية
أوقات الفراغ .

ونظرة أخرى إلى كتاب الفاشوش تدلنا كذلك على ان هذه النوادر
الصغيرة لم تكن من محفوظ العامة قبل أن يظهر هذا الكتاب ، وإنما

هى من تأليف ابن ممتى لغرض معين هدف إليه الكاتب؛ وهو النيل من شخصية رجل كبير لا يستطيع الناس النيل منه؛ وهو بهاء الدين قراقوش أو التشنيع على هذا الرجل وتشويه سمعته والعبث بحقيقته ومسوخ صورته فى أذهان الخاصة والعامة على السواء . ومن هنا كانت حكايات ابن ممتى «سخرية» تعجب الخاصة فضلا عن كونها «هزلا» و «مزاحا» يعجب العامة (١) .

* * *

رسائل الوهرانى

الوهرانى هو عبد الله محمد الوهرانى (نسبة إلى وهران فى بلاد المغرب) أحد الفضلاء الظرفاء . قدم الديار المصرية فى أيام صلاح الدين الأيوبي . فلما دخل البلاد ورأى فيها القاضى الفاضل ، والعماد الأصفهاني وابن سناء الملك وغيرهم من رجال تلك الحلبه علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ولا تتفق سلعتهم مع وجودهم . فعدل عن طريق الجدل وسلك طريق الهزل . وكتب رسائله المشهورة ، وتداولها الناس وطالعوا فيها خفة روحه ورقة حاشيته وتمام ظرفه . ويظهر أن المغاربة الذين منهم الوهرانى كانوا يلقون الإكرام من جانب الخلفاء الفاطميين الذين عاملوا بنى جنسهم من المغاربة معاملة ممتازة . ولذا حقق المصريون عليهم بعد زوال العهد الفاطمى ، وطفقوا يتكلمون بهم فى العصر الأيوبي ويسوفون فى الضحك منهم حينذاك . ومن ذلك أن أهل مصر كانوا إذا

(١) للدؤل كتاب باسم (الفاشوش فى حكم قراقوش) فليتشه من أراد الريادة .

وصفوا رجلا بكثرة الكلام مع التكلف والادعاء والسفه والغلظة
والغباء سموه « بالمغربي » . ١

وقد الوهراني إلى مصر في طلب وظيفة من الوظائف بديوان
الإنشاء . فحبل بينه وبين ذلك . فطفق من جانبه يتهكم بعلماء مضر
وقضاة وفقهاء وكتّابا وشعراؤها وبعض وزرائها ، حتى لكان
الغرض الأول من كل ذلك هو أن يخافه هؤلاء ، ويحاولوا إسكاته
بوظيفة من تلك الوظائف .

نموذج من رسائل الوهراني

كتب الوهراني على لسان بغلته إلى الأمير عز الدين موسك أحد أمراء
الدولة الأيوبية ، وإليه ينسب شارع الموسيقى المشهور بمدينة القاهرة :

بسم الله الرحمن الرحيم

المملوكة (ربحانة) بغلة الوهراني تقبل الأرض بين يدي المولى
عز الدين حسام أمير المؤمنين . نجتاه الله من حر السعير ، وعطر
بذكره قوافل العير ، ورزقه من القرط والتبن والشعير وسق^(١) مائة
ألف بعير . واستجاب فيه صالح الأدعية من الجهم الغفير ، من الخيل
والبغال والحير . وينهى ما تقاسيه من مواصلة السير وسوء القيام ، والتعب
في الليل والدواب نيام . فتمد أشرفت مملوكته على التلف ، وصاحبها
لا يحتمل الكسلف ، ولا يوقن بالخلف . ولا يحلّ به البلاء العظيم ،
إلا في وقت حاجتها إلى القضييم . لأنه في بيته مثل المسك العبير

(١) وسق بسكون السين بمعنى حولة أو زنة أو سعة

والإطريفل^(١) الكبير . أقل من الأمانة في الأقباط ، والعقل في رأس
قاضي سنباط . فشعيه أبعد من الشعري العبور^(٢) . لا وصول إليه
ولا عبور . وقرطه أعز من قرط مارية . لا يخرج به بيع ولا هبة
ولا عارية . والتين أحب إليه من الابن . والجلبان^(٣) أعز من دهن
البان . والقضيم بمنزلة الدر النظيم والقضبة أجمل من سبائك الفضة .
وأما الفول فدونه ألف باب مقفول . فإيهون عليه أن يعلف الدواب
إلا بعيون الآداب ، والفقه اللباب ، والسؤال والجواب ، وما عند الله
من الثواب .

ومعلوم يا سيدي أن البهائم لا توصف بالعلوم ، ولا تعيش بسماع
العلوم . ولا تطرب إلى شعر أبي تمام . ولا تعرف الخارث بن همام .
ولا سيما البغال التي تشتغل في جميع الأشغال . شبكة من القصيل أحب
إليها من كتاب التحصيل . وقنصة من الدريس أشهى إليها من فقه
محمد بن إدريس . ولو أكل البغل كتاب المقامات مات . فإن لم يجد
إلا كتاب الرضاع ضاع . ولو قيل له أنت هالك ما لم تأكل موطأ ابن
مالك ما قبل ذلك . وكذلك الجمل لا يتغذى بأبيات الجمل . وحزمة
من الكلا أحب إليه من شعر أبي العلا . وإيس عنده بطيب شعر أبي
الطيب . وأما الخيل فلا تطرب إلا بسماع الكيكل . وإذا أكلت كتاب

(١) الإطريفل دواء من الأدوية المذكورة في تذكره داود وهو نوعان صغير
وكبير . ولكل منهما قائده في علاج الأمراض .

(٢) اسم نجم في السماء .

(٣) نوع من العلف تأكله البهائم

الذيل مات في النهار قبل الليل . والويل لها ثم الويل . ولا تستغنى
 إلا كاديش عن الحشيش بكل ما في الحناسة من شعر أبي الحريش . وإذا
 أطمعت الحمار شعر ابن عمار ، حل به الدمار . وأصبح منفوخا
 كالطبل على باب الإصطبل

وبعد هذا كله قد راح صاحبها إلى العلاف ، وعرض عليه مسائل
 الخلاف . وطلب من تبته خمس قفاف . فقام إليه بالخفاف . فخاطبه
 بالتعير ، وقرأ عليه آية العير ، وطلب منه وثبة شعير . فحمل على
 حباله ألف بعير . فانصرف الشيخ منكسر القلب ، مغتاظا من الثلب ،
 وهو أنحس من ابن بنت الكلب ، والتفت إلى المسكينة وقد سلبه
 الغيظ ثوب السكينة . وقال لها : إن شئت أن تكدي فكدي .
 لا ذقت شعيرا مادمت عندي !

فبقيت المملوكة حائرة ، لا قائمة ولا سائرة فقال لها العلاف :

لا تجزعي من حباله . ولا تلني على سباله . ولا تنظري إلى نفقته ،
 ولا يكن عندك أحس من عنقفته . هذا الأمير عز الدين ، سيف
 المجاهدين ، أندى من الغمام ، وأمضى من الحسام ، وأبهى من البدر
 ليلة تمام ، يرقى للحروب ، ويفتخر عن المسكروب ، وهو نبي بني
 أيوب . لا يرد قائلا ، ولا يخيب سائلا .

فلما سمعت المملوكة هذا الكلام جذبت الزمام ، ورفعت الغلام ،
 وقطعت اللجام ، وشقت الزحام ، حتى طرحت خدها على الأقدام .
 ورأيك العالی والسلام .

— ٢٠٧ —

نموذج آخر من رسائل الوهراني

كتب الوهراني يتهم برجال الدين وبكثرة ما يصلون ويأكلون في رمضان فقال :

« ... كلها ذكر الخادم تلك المواد الخسيسة وما يجري عليها من الخواطر المصيبة ، علم أن التخلف عنها هو المصيبة .

ولكنه إذا ذكر ما يأتي بعدها من القيام والقعود والركوع والسجود علم أن أجره ما يأكله في تلك الولاية نحو من عشرين تسليمة . كل لقمة بنقمة . ما تحصل له الشبعة إلا بأربعين ركعة . فتكون الدعوة عليه ، والحضور في الشرطة أحب إليه !

فزه الخادم حينئذ في الوصول ، وقنع بالمحصول . إذ ليس له من الدين ، ولا قوة اليقين ، ما يترك معه الراحة تحت المراويح إلى القيام بسنة التراويح . لأنه في ذلك على رأى القاضى النجيب الذى إذا دُعى إليها لا يجيب . فوعد الإلزام انقضاء شهر الصيام .

* * *

مقامات الوهراني

وللوهراى — فيما عدا ذلك — مقامات ومنامات من أهمها « المنام الكبير » . وفيه تخيل أنه رأى فيما يرى النائم كأن القيامة قامت . والمنادى ينادى : هلموا إلى العرض على الله . قلت : فخرجت من قبرى أيمم الداعى إلى أن بلغت أرض المحشر .

وهناك التقى الوهراني بأناس كثيرين ، قدامى ومحدثين . منهم الفقهاء ومنهم الأدباء ، ومنهم الشعراء ، ومنهم الفلاسفة ، ومنهم المتصوفة ، ومنهم الملوك والسلاطين . وذلك كله على نحو يذكرنا « برسالة الغفران » لأبي العلاء المعري .

واتخذ الوهراني من هذه الرسالة المنامية وسيلة إلى السخرية . هؤلاء الناس جميعاً . فسخر منهم بأسلوب يمتاز بالخفة والرشاقة . وذلك بالقياس إلى أسلوب المعري الذي امتاز بشيء من الجد والصرامة ، كما امتاز بميل إلى الغموض والغرابة وذلك في المعنى واللفظ جميعاً .

مثال أخير من «سخرية الوهراني

كتب الوهراني يقول :

سبعة أشياء من أبواب البر تسخط الله وترضى الشيطان وهي :

انقطاع ابن الصابوني إلى الله عز وجل في القراءة .

وتعصب الخبوشاني لقبر الإمام الشافعي .

وتنفل القاضي قبل صلاة الجمعة وبعدها .

وصلاة السيد الطيب التراويح في شهر رمضان . .

وبكاء الفقيه بهاء الدين على المنبر يوم الجمعة .

وسماع ابن عثمان لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمعة واحدة .

وحضور ابن ماتي لمجالس الوعظ في القراءة وبكاؤه عند قراءة

القرآن ... الخ .

ذكروا أن هذه الأعمال الصالحة لا يعبو الله بها . وهي أحب إلى
لمبليس من كبار الذنوب !

تلك أمثلة من رسائل الوهراني . لعل القارىء يلحظ فيها تنوعا
في الطريقة ، وبراعة في الفكاهة ، وقدرة على التسلية . وربما كانت
الطريقة الأخيرة من هذه الطرق تذكرنا ببعض ما تصنعه الصحف
السيارة في أيامنا هذه .

* * *

هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف :

في القرن العاشر الهجرى كان العثمانيون الأتراك قد ملكوا البلاد
المصرية . وكانت أسباب الهم والمجسوم قد اتسعت أكثر من ذي
قبل . وفي ذلك الوقت ظهر ميل الشعب المصرى إلى شرب القهوة ،
واخذوا لأنفسهم أما كن عامة يتناولون فيها هذا الشراب . وفي مكان
شرب القهوة كان يجتمع الشباب المصرى للنكات والمداعبات ، واسماع
« الشاعر » الذى يتمص عليهم القصص الشعبية المشهورة على نحو ما نشاهده
في بعض الأحياء الشعبية بمدينة القاهرة في أيامنا هذه .

وترك لنا ذلك العصر العثماني طائفة كبيرة من الفكاهات المصرية
العجيبة نكتفي منها بالصورة التي نجدها في كتاب « هز القحوف في شرح
قصيدة أبي شادوف » ... وهو كتاب ظريف موضوعه السخرية من
أهل الريف . يصف ما هم فيه من الفقر والفاقة والجهل والذل ، وهذه
الأمور التي هبطت بالفلاح المصرى في العصر العثماني إلى درجة البهائم .

وفى ذلك يقول مؤلف الكتاب :

لا تصحب الفلاح لو أنه ناجة أباها صاعدة (١)
 ثيرانهم قد عبرت عنهم بأنهم من طينة واحدة ١١
 زعم المؤلف فى كتابه هذا أن رجلا من رجال الريف يدعى (أبا شادوف)
 نظم قصيدة فى وصف الفلاح . فشرح المؤلف هذه القصيدة باللغة العامية ،
 وبألف فى تصوير البؤس الذى يعانى به الفلاحون ووصف أكلهم وشربهم
 وطرائقهم فى النوم واللبس . وأتى على بعض عاداتهم فى الأفراح
 والمآتم والأعياد ونحو ذلك :

أما مؤلف الكتاب فرجل يقال له الشربيني ، نسبة إلى شربين
 إحدى قرى مصر . وقد جعل كتابه جزأين :
 أولهما — فى السخرية من الفلاح فى الريف .
 وثانيهما — فى شرح قصيدة أبى شادوف .

ولا يسع القارى لهذا الكتاب فى الحقيقة إلا أن يلحن الحكم
 العثماني البغيض الذى خلق فى المصريين ذلك الروح — ونعنى به
 الروح الذى أملى عليهم احتقار الفلاح ، وعمل الفلاح ، وخلق الفلاح
 مع أن الحكم العثماني ذاته هو السبب الحقيقى فى كل ما أصاب هذا
 المسكين من كوارث ، وما أحاط به من هموم وآفات ومظالم .
 ولا غرابة فى ذلك فقد كان هذا الفلاح بين (المطرقة والسندان)
 — كما تقول العامة . أما (المطرقة) فنظام الحكم . وأما

(١) الناجة الطيب . والمراد لا تقرب من الفلاح ولو كانت رائحته تصعد فى كل
 مكان كالطيب .

(السندان) فكشافه ، ومديروه ، وملأزموه وغيرهم ممن يجمعون
الضرائب حيناً ، ويخضعون الفلاح لنظام السخرة — أو العونة —
حيناً آخر .

نماذج من هز القحوف

أراد الشريبي هذا أن يصف لنا في كتابه صورة الجمل الذي خيم
على ريف مصر فأورد هذه الحكايات :

(١) حكى لنا أن رجلاً من الفلاحين سأل آخر بقوله : إيش
هجاك إبريق ؟

فأجابه بقوله : د ب ، ر ، ب ، ق ، و ، أ ،

فقال له الأول : د إيش عرفك أن فيها واو ، ؟

فأجاب : د النقطة اللي فوق الواو ، ا

فقال له الأول : صحيح أنت فصيح لأخوالك ، ا

(٢) وعطس رجل من الفلاحين فقال له فقيه من أهل الريف :

د يرحمك اللي عطسك . ولو شاء لفطسك ، وخرج العطسة من فراقير

اللي خلقك ، .

فقال له الفلاح :

د يافقي . لا عدت تنسانا من دى السورة تقرأها علينا فى المسا والصباح .

وأعطيك أيام المقات أربع بطيخات . وتقرأ السورة لأم معيكة .

وتهديها لأبو زعبل . لأنه مات من مدة شهرين ، . !!

فضحك منه الرجل ومضى إلى سبيله .

(٣) ودخل رجل منهم قرية على شاطئ النيل في يوم جمعة . فرأى الناس قاصدين إلى صلاة الجمعة . فاعتقد أنهم ذاهبون إلى ضيافة صنعها لهم أمير البلد . فذهب مع الناس إلى أن دخلوا المسجد . وجلس في بعض الصفوف . إلى أن أقبل الخطيب وصعد على المنبر . فصار الفلاح ينظر إليه وهو مرتاب وخائف ومتحير إلى أن فرغ من خطبته . ثم أقيمت الصلاة وسمع ضجيجهم بالتكبير والتهليل فاعتقد أنها هوجة ، وقعت بينهم ، وصاح : يآل سعد . . الحقوني ! الحقوني ! وسحب الثبوت وخرج هاربا وهو يقول : خذوك القوم يا بوكتيوت !

ولم يزل في خوف وكرب حتى وصل إلى الكففر .

(٤) ودخل عالم من علماء الريف مسجدا في القرية ليصلي صلاة الجمعة وتعجب حين رأى الفلاحين يدخلون المسجد للصلاة ويبد كل منهم قففة من خوص ، وفيها مغرفة ، وخشبة وستكين من حديد ، وفأرميت معلق من عنقه . وبعد قليل جاء خطيب المسجد في نفس الصورة التي دخل بها الفلاحون من قبله . فأقرب العالم من خطيب المسجد وسأله عن السبب في ذلك ؟ فأجابه الخطيب بأنه هو الذي أمر الفلاحين ، وأمر نفسه بذلك ، وإلا كانت الصلاة باطلة . فقال العالم للخطيب : لكن ما هي الحكمة في ذلك ؟ فقال الخطيب : إنه حديث قرأته في كتاب عندي يقول : حدثني فلان عن فلان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

لا تصح جمعة أحكم إلا ، بقفة ومعرفة وخشبة وسكينة وفار .
فطلب العالم منه الكتاب وقرأ الحديث فإذا هو : « لا تصح جمعة
أحكم إلا بعفة ومعرفة وخشبة ووقار .

أما غفلة الفلاح المصرى فقد أبان عنها مؤلف الكتاب فى كثير
من الحكايات الأخرى . ومنها : هذه الحكاية الطويلة التى حكها عن
فلاح مصرى ترك الكفر الذى يعيش فيه ، وجاء لزيارة المدينة . قال
مؤلف الكتاب :

(هـ) « اتفق لثلاث نسوة من أهل مصر أن خرجن يتفرجن فى أزقة
المدينة . فلقين رجلا من قحوف الريف وهو فى حالة رديئة . وعلى رأسه
قفص ملائكة من الفراخ يريد أن يبيعه ويسد بثمانها مال السلطان
فقال لحداهن للأخرى :

ما تقولى فى اللى ياخذ الفراخ من الفلاح ده ؟

فقال الأخرى : وأنا آخذ ثيابه .

وقالت الثالثة : كل ده ما هو شطارة . الشطارة فى اللى يبيعه
بيع العبيد .

ثم إن (الأولى) اللى التزمت بأخذ فراخه أقبلت عليه ورغبته
بزيادة فى الثمن . فمضى معها إلى أن وصلت إلى درب من دروب مصر
وبيت له بابان وقالت له :

اقعد هنا على الباب ده فإنه باب بيتى . واصبر حتى أجيء لك

بالفلوس . ثم أخذت القفص بالفراخ ومضت لحال سبيها من الباب الثاني . ولم يزل الفلاح جالسا على الباب الاول . ولم يأت أحد . فتحير في نفسه وسأل عن المرأة التي أخذت الفراخ . . فقال له الناس :

يا قليل العقل ، وسقيع الذقن ، البيت ده نافذ .
فصاح الفلاح ولطم على وجهه . وييتما هو على هذه الحال إذ أقبلت عليه (الثانية) وقالت له : إيش صابك ودهاك يا مسكين . أنت راجل غريب . وعليك مال السلطان . وضحكت عليك العاهرة وخذت منك الفراخ !

فقال لها : وحياة عيونك يامليحة ما معى غيرهم .
فقالت له : امشى معايا إلى بيتنا وأنا أعطيك شى من النقود صدقة عنى .

فقال لها الفلاح : الله يحزيكى خير . وأنا لاخر لما أروح الكفر أزورك بحزمة لحلاح ، وحزمة بصل ، وشوية فول . وتبقى صاحبتى . وإن شاء الله أجيب لك كان عشرين قرص جلته .

فأخذته وسارت إلى أن وصلت إلى بيت كبير على البنيان . فسألت عن صاحبه . فقالوا لها : هذا بيت الأمير فلان وقد خرج هو وبعض أصحابه إلى بعض المنتزهات . فدخلت البيت فلم تر فيه أحدا سوى رجل كبير يواب . ودخل الفلاح معها إلى وسط الدار فرأت فيه بئرا من الماء تملأ منه الحريم . فوقفت ونظرت في البئر ثم ولولت وصرخت وبكت بكاء شديدا . فقال لها الفلاح :

تبكى ليه يامليحة ؟

— ٢١٥ —

فقلت له : كعبك شؤم على . فقد وقعت أساوري الذهب في البئر .

قال لها : ما تخافيش يا مليحة . أنا أنزل وأجيهم لكي من البئر .

فقلت له : تعرف تغطس في المياه ؟

قال لها : دى صنعتي . وطول عمري في الهم والنهم .

ثم قال لها : أربطيني في جبل البكرة دى . ودليني في البئر .

ثم إنه خلع ثيابه . ودلته في البئر إلى أن وصل إلى الماء فأرخت

الحبل عليه . وأخذت ثيابه وذهبت إلى حال سبيلها .

هذا ما كان منها . وأما ما كان من الفلاح فإنه لم يزل يفوص في الماء

ويفتش في قعر البئر حتى كل ومل واسود جلده من البرد . وكانت أيام

شتاء . فلما اشتد الأمر صار يصيح وينادى المرأة ، فلم يجبه أحد .

فبينما هو في هذه الحالة إذ أقبل الأمير وأصحابه وسمعوا الفلاح

يصيح في البئر وينادى :

طلعيني يا صبية . طلعيني يا مليحة . دا ماهوش مليح منك . ده

عيب عليكى . أنا مت من السقيع والبرد .

فقال له الخدم : إنت لئسى أم جنى ؟

فقال لهم : أنا أبو زعبل بن حنجل من كفر

فقال بعضهم لبعض : ده عفريت من غير كلام !

فقال لهم الفلاح : والله يا وجوه الخير ما أنا عفريت . أنا راجل

فلاح . وحكى لهم قصته . فدلو له الحبل فتعلق فيه وطلع ، فلما رآه

الخدم علموا أنه إنسى ، ثم قال بعضهم لبعض : ده خرامى ووقع فى البير ،
فتزلوا عليه ضرب ، وطرده وراح يجرى وهو عريان بردان جعان
استمعان ، ولا يدري أين يذهب .

فأقبلت عليه (الثالثة) وهو فى هذه الحالة ، وقد صارت الأولاد
تضربه وتقول : المجنون ! المجنون ! فوضعت المرأة يدها على ظهره
ومسحت وجهه بمنديل كان معها ، وسترته بفوطة . وقالت له : أمرك
الله يا مسكين يا حزين . ضحكت عليك نسوان مصر . وخلوك فى دى
الحال . وأنت راجل غريب . وعليك مال السلطان . فبكى الفلاح
وشكا وقال لها :

يا مليحة : وحياة شلتهواك - خدوا فراخى وخدوا ثيابى .
وخدوا خرامى الليف ، وخدوا مشدى ومركوبى ، وما عدت أصدق
كلام النسوان أبداً . فقالت له : لا تظن يا فلاح أنى من نسوان مصر .
أنا عمرى ما خرجت من بيتى غير النهارده . ولما رأيتك فى دى الحالة
شفقت عليك . ومرادى أعمل معاك جميل وآخذك لبيتى . وألبسك
لبس مليح ، وأخليك شلبي ظريف . وأعملك مملوك ، وأحط لك
خنجر فى حزامك ، وأعليك الزكى وتبقى تقول : شندى بندى .

فقال لها الفلاح : أنا فى عرضك يا مليحة تعلمينى جندى ، وتعلمينى
التركى . وأنا على الحرام من أم شحير كل من عاذ يقول لى كانى مانى فى
زمانى قطعت رأسه ، ولو كان أبو عوكل شيخ الكفر .

فقال له : سير بنا على بركة الله .

فسار معها إل أن وصلت إلى منزلها . فأدخلته فيه . ووضعت بين يديه الطعام ، فأكل وشرب وارتاح في نفسه ، ثم أتته بماء ساخن ، وغسلته بالليفة والصابونة . وألبسته قميص وشخشير جوخ ، وقاووق قطيفة ، وشاش قصب . وحزمته بمزام وفيه خنجر . وحلقت لحيته وشاربه وجعلته يملك حليق . وقالت له :

إذا كلمك أحد فلا ترد عليه جواب . بس هز راسك . فإذا ألق عليك في الكلام بالحماقة وشدد عليك قول له : ذكرته هريف . يوك يمه (١) ولا تزد على ذلك . فإن الكلمة دى أصل التركي إذا عرفتها ما يمضى عليك شهر زمن إلا وأنت (سنجق) ويبقى لك طبل وزمر .

فقال لها الفلاح : أنا في عرضك يامليحة تخليني أبقى سنجق وتصير لى سطوة في الكفر وأبقى إن شاء الله أزورك بشوية كشك وعشر طورات كعك من اللى بتعمله أم شحير . وأعمل لك قاعة . وأكسيها لك بالوحل والجله . وأفرشها لك بالتبن والقصل . وتبتي تنامي فيها . ويبقوا يقولوا الجدعان :

أبو شحير طلع المدينة فلاح ورجع بجندى ، يقطع الروس يقول شندى بندى .

ثم إنها أخذته ونزلت به إلى سوق خان الخليلي وجلست في دكان من الدكاكين إلى تبيع أنواع الأقمشة والخز والأطلس والشاشات . فقالت للتاجر :

(١) عبارة قذف قرية من قولهم . أيها الرجل القذر ليس معي طعام لأمثالك

— ٢١٨ —

أريد كذا وكذا بما يساوي ألف دينار . فأحضر لها التاجر ما قاله عليه
وربطته في بقجة وقالت له :

ياسيدي يكون المملوك ده عندك رهن حتى أروح لبيت الأمير ،
وأعرض على حريمه القماش وأجيب لك الدراهم ، فقال لها التاجر :
توجهي على بركة الله .

فأخذت الحوائج وتركت الفلاح . ومضى نصف نهار ولم ترجع
المرأة إلى التاجر . فتضايق والتفت إلى الفلاح وقال له ستكبطت علينا .
فهر الفلاح رأسه كما أوجسته ولم ينطق بكلمه . فكرر عليه التاجر الكلام
فهر رأسه ولم يتكلم . فتضايق التاجر وقال لجيرانه التجار : ماهذه البلية
في هذا المملوك ؟ كلما كلمته هر رأسه كأنه مايعرف إلا بالتركي .

فبينما التاجر على هذه الحال . إذ أقبل عليه رجل 'عسكري' . فقال
له التاجر :

بالله عليك ياسيدي تكلم لنا هذا المملوك بالتركي . وعرفنا عن
حاله . فكلمه الجندي بالتركي فهر رأسه . فاغتاظ منه وسل عليه السيف
وأراد أن يضربه . فلما رآه الفلاح يريد ذلك صاح قائلاً :

« كرته هريف يوك به »

فلما سمع الجندي منه ذلك نزل عليه بالضرب .

فصاح الفلاح يتكلم ويصيح بكلام الفلاحين ويقول :

— ٢١٩ —

أنا في جيرتك يا بو زعبل .

فضحك عليه الجندي وبقية التجار واستخبروه فحكى لهم القصة من
أولها إلى آخرها . فعرفوا أنها حيلة عملت على التاجر والفلاح . فقام
التاجر وعراه وأخذ جميع ما عليه وباعه بعشرين ديناراً . ومكث الفلاح
سنة . ثم خلاص روحه وهرب إلى الكفر .



الفصل الثالث

الكتابة التاريخية

هناك نوع ثالث من النثر ، لاهو بالمبالغ فيه من ناحية الصياغة الفنية
كثرت الرسائل الديوانية ، ولا هو بالمكتوب بلغة قريبة من العامية
كالكتب الشعبية أو الهزلية . ولكنه بين بين . وتقتصد بهذا النثر الوسط
نثر الكتب العلمية .

غير أن أقرب هذه الكتابات العلمية إلى دائرة الأدب إنما هو
النثر التاريخي . وما زالت هذه الظاهرة سارية إلى وقتنا هذا . ففي كتب
التاريخ نجد مادة علمية لا شك فيها ، هي الحقائق التاريخية ذاتها . ويجد
هذه المادة مكتوبة بلغة راقية لا تخلو من الأناقة اللفظية أحيانا ،
أو الأناقة المعنوية أحيانا . وهي لغة تقع في وسط الطريق بين الأسلوب
العلمي والأسلوب الأدبي . على أن لكتب التاريخ العربي بوجه عام
ميزة كبيرة هي امتزاج الأدب في أكثرها بالتاريخ امتزاجا عظيما ،

والفترة التي تؤرخ لها نحن في هذا الكتاب تنقسم إلى عصور ثلاثة :
هي العصر الأيوبي ، والعصر المملوكي ، والعصر العثماني . وقد أرخ لكل
من هذه العصور الثلاثة ورخون كثيرون خدموا هذه العصور من نواح عدة .
ولولاهم لشق علينا أن نعرف الكثير عنها . فمنهم من كتبوا في السير

والتراجم بما في ذلك سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتراجم الملوك والسلطين ونحوها . ومنهم من كتب في تاريخ الدولة الإسلامية عامة . وإن كان هؤلاء بمصر قليلين بالقياس إلى أمثالهم في غير مصر من الأقطار الإسلامية الأخرى . ثم منهم من كتبوا في تاريخ الدول المصرية خاصة وهؤلاء هم الكثرة الغالبة من المؤرخين المنتمين إلى العصور الثلاثة التي نعتي بها . ومنهم من كتبوا في تاريخ البلاد والمدن الإسلامية الأخرى وهكذا .

مؤرخو العصر الأيوبي

كان لبعض المؤرخين في العصر الأيوبي عناية كبيرة بكتابة السيرة . والحق أنه كما كانت سيرة النبي صلوات الله عليه وسلامه تحتل مكانا ممتازا في الشعرين الأيوبي والمملوكي . فكذلك وجدنا هذه السيرة النبوية تحتل نفس المسكاة في كتب التاريخ المنسوبة إلى هذين العصرين . ومن اشتهروا بذلك في العصر الأيوبي :

أبو علي الجوالي المصري :

وهو شرف الدين أبو علي محمد الحسيني النسابة . كان نقيب الأشراف في الديار المصرية . واشتغل بالتصنيف في علم النسب . وهو فيه واحد . وله فيه تصانيف كثيرة . منها كتاب (طبقات الطالبين) . توفي سنة ثمان وثمانين وخمسة .

وله كذلك شجرة رسول الله في النسب النبوي . ومعها ملاحظات تاريخية قيمة . ويقال إن منه نسخة في مكتبة برلين .

تأتى بعد ذلك كتب التراجم عامة ، وهى كثيرة فى العصر الأيوبي .
وسنكتفى هنا بالكتب المنسوبة إلى كل من : العماد الأصفهاني ،
وابن شداد . وابن خلكان . والقفطي والأدفي .

العماد الأصفهاني :

نشأ بأصفهان . وأتى بغداد فى حدائقه . وتعلم بالمدرسة النظامية .
ثم انتقل إلى دمشق عام ٥٦٢ هـ ، ورحل مع صلاح الدين إلى مصر .
واستقر بمقامه بها . وله كتب كثيرة . منها كتاب بهذا العنوان :

الفتح القسى فى الفتح القدسى^(١)

وهو تاريخ لسبع سنوات فقط من حياة السلطان صلاح الدين
الأيوبي — أعنى من سنة ٥٧٦ إلى سنة ٥٨٣ للهجرة . وهى الستة
التي تم فيها لصلاح الدين فتح بيت المقدس . والقاضى الفاضل هو الذى
أطلق على الكتاب هذه التسمية . وذلك بسبب أن العماد الأصفهاني
توخى السجع فى كتابة هذا الكتاب من أوله إلى آخره . وهى طريقة
غريبة فى كتابة التاريخ . وربما أضرت بالحقائق التاريخية نفسها
مع ذلك . لأن هذه الحقائق تتعرض للضياع وسط هذا الزحام الشديد
من البديع بألوانه المختلفة كالسجع والجناس والطباق وما شاكل ذلك .
وهذا هو ما شعر به مؤرخ من مؤرخى العصر الأيوبي اسمه «أبوشامة»

(١) القسى نسبة إلى قس بن ساعدة الأيادي خطيب العرب فى الجاهلية . والقدسى
نسبه إلى القدس :

صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)
عندما اضطر إلى الرجوع إلى كتاب الفتح القسى هذا .

وللعلم الأصفهاني كتاب آخر في التراجم يزيد شهرته على الكتاب
الأول في الواقع . وهذا الكتاب الأخير هو كتاب :

خريدة القصر وجريدة العصر

وفيه تراجم أدباء القرن السادس الهجري خاصة . وهو حلقة من
سلسلة كتب عنيت بتراجم الأدباء . الحلقة الأولى كتاب (بقيمة الدهر)
للثعالبي . والحلقة الثانية كتاب (دمية القصر) للباخرزي . والحلقة
الثالثة كتاب العباد هذا (١) .

وللعلم الأصفهاني — غير ذلك — كتاب يمكن أن يعد من
كتب التراجم وعنوانه :

البرق الشامي

وقد صدره بترجمة لنفسه . ثم ذكر فيه بعض الفتوح الشامية .
وشبه أوقاته التي قضاه في الشام بالبرق الخاطف كناية عن طيبها وسرعة
انقضائها . ثم بسط أخبار صلاح الدين وفتوحه ، وأخبار بلاد الشام
في أيامه . وجعل ذلك كله في سبع مجلدات . وانتفع به المؤرخون من
بعده . ومن أولهم أبو شامة الذي تقدم ذكره ، وسبق أن قلنا إنه
اعتمد على الأصفهاني في كتابه المشهور باسم الروضتين في أخبار الدولتين
وللعلم كتب أخرى كذلك في تاريخ السلطنة لا تعبينا في هذه الفترة .

(١) الجزء الخاص بشعراء مصر من هذا الكتاب قام بنشره الأساتذة .

أحمد أمين ، شوقي ضيف ، إحسان عباس ، وذلك عام ١٩٥١ .

ابن شداد

أبو الحسن بهاء الدين بن شداد . ولد بالموصل سنة ٥٣٩ للهجرة ،
 ودرس بها . ثم رحل إلى بغداد وتعلم وأفاد . فقد عين هناك « معيدا »
 بالمدرسة « النظامية » . ثم صار أستاذاً بمدرسة الموصل الكبرى .
 ثم رحل إلى دمشق . وبها لقي صلاح الدين الأيوبي والتحق بخدمته
 ولما توفي السلطان صلاح الدين رحل ابن شداد إلى حلب وعين قاضياً بها .
 وكانت له منزلة رفيعة في عهد الظاهر والعزيم من أبناء السلطان صلاح الدين .
 والكتاب الذي ذكرنا من أجله ابن شداد على أنه من مؤرخي
 الدولة الأيوبية هو كتاب :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

وهو في سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي . ألفه عقب وفاته
 وجعله في قسمين .

الأول — في نشأة صلاح الدين وأخلاقه .

الثاني — في بعض وقائعه وغزواته .

وكانت له طريقة خاصة في كتابه هذا ، فهو إذا تكلم في صفة من
 صفات السلطان صلاح الدين كصفة العدل . بدأ الكلام بآية قرآنية ،
 أو حديث نبوي ، أو بهما معاً . ثم ذكر ما يعمله من تمسك السلطان
 بهذه الصفة ، وذكر طرفاً من نوادره في ذلك . ثم ختم الحديث في هذه
 الصفة من صفات السلطان بالدعاء له أن يرحمه الله رحمة واسعة .
 هذا ما كان من ابن شداد في القسم الأول من كتابه .

أما ما كان منه في القسم الثاني ، فإنه تحدث فيه عن وقائع السلطان حديثاً يختلف عن حديث غيره من المؤرخين في شيء هام ، هو أنه كان كثيراً ما يعتمد فيه على مشاهداته ومعلوماته الخاصة ، لا على الروايات التاريخية المختلفة التي اعتمد عليها مثل أبي شامة في كتابه (الروضتين) . واستطاع ابن شداد بهذه الطريقة أن يكشف لنا عن حوادث هامة في حياة صلاح الدين الأيوبي من الناحية الخلقية ومن الناحية السياسية ، بالقدر الذي لا نجد له نظيراً في المصادر التاريخية الأخرى .

ابن خلكان

قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس المعروف بابن خلكان . قيل إنه من بيت كبير في العراق ينسب إلى البرامكة . وُلِدَ سنة ٦٠٧ للهجرة في مدينة (إربل) . ودرس على علماء منهم ابن شداد الذي تقدم ذكره . ثم ذهب إلى القاهرة عام ٦٣٦ للهجرة . وشغل وظيفة قاضي القضاة في دمشق . ثم اشتغل بالتدريس لمدة سبع سنوات بالمدرسة الفخرية بالقاهرة . ثم درس بالمدرسة الأمينية بدمشق . وتوفي بها عام ٦٨١ هجرية . وله كتاب : (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) :

بدأ ابن خلكان كتابه هذا وهو بالقاهرة عام ٦٥٤ هجرية وما حولها ، ولكنه انقطع عنه في أثناء ولايته القضاء بدمشق . وفرغ منه بعد ذلك في عام ٦٧٢ هجرية .

وقد اعتمد ابن خلكان في كتابه هذا على مؤلفات قديمة ضاع

أكثرها ، أو فقدت كلها . ومن ثم أصبح كتابه هذا من أهم المصادر التي يعتمد عليها في كتابة التاريخ الأدبي إلى اليوم .

والكتاب عبارة عن معجم تاريخي ضخم . والظاهر أن مؤلفه لم يخلف غيره من الكتب . ولكنه يساوى في الواقع مئات من الكتب . فهو ذخيرة علمية وأدبية وتاريخية ولغوية في غاية الأهمية ، وعدد التراجم التي أتى بها ابن خلكان في كتابه هذا أربعت على ثلثمائة ترجمة . منها تراجم للعلماء والأدباء . - وهي الغالبية العظمى - ومنها تراجم للملوك والأمراء . - وهي الأقل . ولعل أهمية هذا الكتاب بالقياس إلى العصر الأيوبي بنوع خاص آتية من أن مؤلفه عاش الكثيرين من علماء الشطر الأخير من حياة الدولة الأيوبية وأدبائه وفضلائه ، وكانت له بهم علاقات متينة أتاحت له جمع هذه المعلومات الكثيرة عن كل واحد ممن ترجم لهم في كتابه .

وعبارة ابن خلكان في كتابه عبارة جيدة . ولعله كان أدبيا إلى جانب أنه مؤرخ . ومن هذه الناحية حسنت ألفاظه وتراكيبه ودنت من محيط الأدب .

القفطى :

وهو الوزير أبو الحسن علي بن يوسف المعروف بجمال الدين القفطى . ولد بمدينة من مدن صعيد مصر اسمها « قفط » وذلك عام ٥٦٨ للهجرة . وتلقى علومه بالقاهرة . ثم أتم دراسته ببيت المقدس .

وقضى نحوا من خمس عشرة سنة بهذه المدينة . ثم رحل بعدها إلى حلب،
وبها وصل إلى مرتبة الوزير وذلك في عام ٦٣٣ هجرية . وظل بها وزيرا
حتى مات سنة ٦٤٦ .

والكتاب الذى من أجله عرضنا لذكر القفطى هو :

(إخبار العلماء بأخبار الحكماء) .

وهو معجم تاريخى للفلاسفة والأطباء والعلماء من العرب وغيرهم
مرتبين على أحرف الألفبى . ويرينا هذا الكتاب صورة من علم العرب
بمؤلفات الإغريق . وفي نهاية الكتاب يرى القارىء فصلا يتحدث فيه
المؤلف عن حكماء تبتدىء أسماؤهم بالكفى، كأبي على بن سينا الفيلسوف
وغیره .

وكتاب القفطى هذا بالنوادر والطرائف أشبه منه بالكتاب
العلمى المنظم . مثال ذلك : أن القفطى عرض فى كتابه لذكر « هوميروس »
باسم « أوميروس » فقال :

« كان هذا الرجل من رجال يونان الذين عانوا فى الصناعة الشعرية
والمنطق وأجادوهما . وجاءه « أتايو » الماجن فقال :

اهجنى لأفتخر بهجائك ، إذ لم أكن أهلا لمديحك . فقال له : لست
فاعلا ذلك أبدا .

قال : فإنى أمضى إلى رؤساء اليونانيين . فأشعرهم بذلك . قال
أوميروس مرتجلا :

بلغنا أن كلبا حاول قتال أسد بجزيرة قبرص ، فامتنع عليه الأسد

أنفة منه ، فقال له الكلب : إني أمضى فأشعر السباع بضعفك . فقال له الأسد لأن تعيرني السباع بالنكول عن مباراتك أحب إلى من أن ألوث شاربي بدمك !

على هذا النحو يترجم القفطي شاعر كبير كهوميروس . وعلى هذا النحو لا تفهم حقيقة هذا الشاعر اليوناني ولا تفهم شعره ولا فلسفته !

إلا أن القفطي مع ذلك عني عناية تامة بالأطباء ، وعلماء الإلهيات ، وعلماء المنطق والأخلاق ، والفلك والتنجيم .

الإدقوى :

وهو كمال الدين جعفر بن ثعلب الإدقوى المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية كان فقيها لغويا . ولد عام ٦٨٥ هجرية بمدينة (إدقوى) من مدن الصعيد وعاش بقرية قريبة من القاهرة ومات بها .

وهو من كتاب التراجم إلا أنه قصر همه على تراجم المصريين خاصة . بل كان أكثر عصبية من هذا الحد . لأنه وضع كتابا في تراجم النابيين من صعيد مصر بوجه أخص . ولذا اشتهر بكتاب :

(الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد) : ترجم فيه لثلاثة وسبعين وخمسمائة رجل وامرأة من نجباء صعيد مصر وحده . ومهد لهذه التراجم بمقدمة في وصف هذا الإقليم - وهو الصعيد - وبيان حدوده ومحاسنه ، وغرائبه ، وأقسامه ، ومدنه ،

— ٢٢٩ —

وما به من ربط وزوايا ، وأماكن للعلم والعبادة وما به من أسواق
وحمامات وغير ذلك .

ولا يؤخذ على مؤلفه من الناحية العلمية الخاصة غير تعصبه لإقليم
ولد به تعصبا كبيرا يجب أن يتنبه إليه المؤرخ أو الباحث عندما يعتمد
إلى الاستفادة من هذا الكتاب .

* * *

هؤلاء جميعاً كتبوا في التراجم وفي السير . وهناك من الكتب
التاريخية ما كتب في تاريخ الدول المصرية . ومن اشتهروا بمثل هذه
الكتب الأخيرة رجلاً ، أحدهما أبو شامة والثاني ابن واصل :

أبو شامة :

هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الأصل المعروف بأبي شامة .
نشأ بدمشق ، وتعلم بالإسكندرية ثم رجع إلى القدس واشتغل هناك
بالتدريس والفتيا . واشتغل كذلك بالتأليف . ومن أشهر كتبه :
(كتاب الروضتين في أخبار الدولتين الثورية والصلاحية) .

وربما كان هذا الكتاب من أوسع المصادر العربية الإسلامية
لتاريخ الحروب الصليبية .

وقد سبق أن لاحظنا أن أكثر ما في هذا الكتاب من أخبار
مصر والشام مأخوذ من كتب العباد الأصفهاني . وذلك بعد تجريد هذه

الكتب من السجع وغيره من المحسنات اللفظية التي لا تتفق والأساليب المتبعة في كتب العلم .

ولكتاب الروضتين ميزة كبيرة عند علماء الأدب . وهي أن مؤلفه قد ضمنه طائفة كبيرة من شعر الشعراء وثر الكتاب . وأنه مزج الأدب بالتاريخ في كتابه هذا مزجا لطيفاً . وأمدنا لذلك بصورة واضحة للأدب الإسلامي في مصر والشام في حياة نور الدين بالبلاد الشامية ، وحياة صلاح الدين بالبلاد المصرية .

ولكتاب الروضتين — من هذه الناحية — ما لكتاب السيرة لابن هشام من القدرة على الإيجاء . فلا يقرأ أحد كتاب الروضتين إلا ويحس في قرارة نفسه بميل قوى إلى تأليف كتب في سيرة البطالين الإسلاميين نور الدين وصلاح الدين ربما لا تقل في روعتها عن الكتب التي ألفت في سيرة الرسول .

ابن واصل :

هو جمال الدين أبو عبد الله . كان في أول أمره مدرساً بمدرسة حماة . ثم استدعي إلى القاهرة عام ٦٥٩ للهجرة . وبعث به الملك الظاهر في مهمة إلى ملك صقلية . وهو يومئذ الملك منقرد Manfred . فكث عنده مدة طويلة . ثم عاد من صقلية ، فعين قاضياً للقضاة ، فدرساً بحماة ، وبها توفي عام ٦٩٧ للهجرة .

معنى ذلك إذن أن ابن واصل يعتبر من مخضرمي الدولتين الأيوبيه

والمملوكية ، وقد شهد بنفسه حوادث النصف الأخير من حياة بني
أيوب ، وكتابه المشهور :

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

وفيه قال عن نفسه في حوادث سنة ٦١٦ هـ إن عمره في تلك السنة
كان اثنتا عشرة سنة وإن والده كتب فيها نسخة اليمين التي استخلف بها
المنصور ملك حماة أهل هذه المدينة للملك المظفر تقي الدين محمود ، وفيها
— أى في تلك السنة — توفيت والددة الملك المظفر هذا — فحزن
عليها زوجها الملك المنصور ، وأمر أن يصعد أكابر (حماة) إلى القلعة
للصلاة عليها فاشترك في ذلك والد جمال الدين بن واصل . ثم أتى ابن
واصل بمراثي الشعراء التي قيلت في ذلك اليوم ، وعند ذلك انتهى الجزء
الأول من كتاب مفرج الكروب . وابن واصل في كتابة التاريخ
تليد لأبي شامة الذي مر ذكره ، فما قيل عن أبي شامة من أنه مزج في
كتابه التاريخ بالأدب مزجا قويا لطيفا يقال مثله في ابن واصل .

يضاف إلى هذا أن قارىء هذا الأخير يستطيع أن يلم إلماما عاما
بالنشاط الأدبي في البيئات الشهيرة في ذلك العصر : كبيئة حماة ، وبيئة
القدس ، وبيئة اليمن وهكذا .

غير أن ابن واصل من ناحية الأسلوب الكتابي ربما كان أقل
المؤرخين احتفالا باختيار اللفظ ، وعناية بتكلف البديع .

مؤرخو العصر المملوكى

وفى العصر المملوكى ظهر أكابر المؤرخين الذين أرخوا لمصر فى ذلك العصر ، وعنوان ذلك بالعصور التى سبقتة .
والحق لقد نعمت مصر فى عهد المماليك بطائفة من المؤرخين ، عددهم كبير ، وفضلهم على البلاد المصرية نفسها أكبر وأعظم .
وقد اخترنا الحديث عن خمسة فقط من أولئك المؤرخين الذين عاشوا فى العصر المملوكى . وهم على الترتيب : المقرئى ، وأبو المحاسن ، وابن إياس ، والسخاوى ، والسيوطى .
وأما النويرى فقد أشرنا إليه من قبل عند الكلام عن الحياة العلمية فى مصر .

المقرئى

حياته :

هو أحمد بن على المقرئى — ولد بالقاهرة عام ١٣٦٤ لىلاد وتوفى عام ١٤٤٢ لىلاد (فعمره إذن ثمان وسبعون سنة) . وجده لأمه — واسمه ابن الصابغ الحنفى — هو الذى تولى تربيته لضيق حال أبيه ، فنشأه على المذهب الحنفى حتى مات هذا الجد ، فترك المقرئى مذهب الحنفية إلى مذهب الشافعية .

ثم التحق المقرئى بديوان الإنشاء بالقلعة . وظل كاتباً به إلى سنة

١٣٦٨ ميلادية ، ثم عمل نائبا من نواب الحكم — أى قاضيا — عند قاضى القضاة الشافعية ، فإماماً لجامع الحاكم ، فمدرسا لعلم الحديث بالمدرسة المؤيدة . وفى سنة ١٣٩٨ ميلادية اختاره السلطان برقوق لوظيفة (محتسب القاهرة والوجه البحرى) ثم فى سنة ١٤٠٨ م انتقل إلى دمشق وقام فيها بتدريس الحديث . ثم عينه السلطان المملوكى (فرج بن برقوق) نائبا للحكم بدمشق . وأخيراً سُمّ المقرئى وظائف الحكومة على اختلافها ، ووجد عنده من الموارد ما أعفاه من تضييع وقته فى كسب العيش من طريق الدواوين .

ورجع الرجل إلى القاهرة حيث أمضى بقية حياته (بخارة برجوان) التى ولد فيها (١). واشتغل بالدوس والتأليف ، وبخاصة فى هذا العلم الذى أحبه من كل قلبه ، وهوا علم التاريخ .

مؤلفاته :

١ — بدأ المقرئى نشاطه العلمى بكتابه المسمى (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) . عنى فيه بدراسة الخطط حتى عرف الكتاب فيما بعد باسم (الخطط) . وكان تأليفه لهذا الكتاب بين عامى ١٤١٧ — ١٤٢٦ م .

وأراد المقرئى بعد ذلك أن يؤرخ لمصر تاريخا سياسيا كاملا منذ الفتح العربى إلى عصره الذى عاش فيه (وهو القرن التاسع الهجرى أو

(١) المقصود بالحارة الفندق أو الخان أو الوكالة على حد التعبير المصرى الوسيط ، أو العمارة الكبيرة على حد التعبير المصرى الحديث .

الخامس عشر الميلادى) . فقسم التاريخ المصرى الإسلامى عصوراً
ثلاثة وخص كل عصر منها بكتاب معين :

٢ - أما العصر الأول - وهو عصر التبعية للخلافة الإسلامية
فقد خصه المقرئى بكتاب (عقد جواهر الأسفاط فى أخبار
مدينة الفسطاط) .

٣ - وأما العصر الثانى - وهو عصر الخلفاء الفاطميين -
فقد خصه المؤلف بكتاب (انعاظ الخفا بذكر الأئمة الخلفاء) .

٤ - وأما العصر الثالث - وهو عصر بنى أيوب والمماليك -
فقد خصه بكتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) .^(١)

٥ - كتاب المقففى الكبير فى تراجم حكام مصر ورجالها منذ
أقدم العصور . قدر له المؤلف أن يكون ثمانين مجلداً ولكن لم يخرج
منها أكثر من ستة عشر .

٦ - كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، كان
الغرض منه أن يكون معجلاً لتراجم معاصريه ولكنه مع ذلك لم يتم .

٧ - كتاب بعنوان (النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى
هاشم) أرجع فيه أمر التنافس على الخلافة بين الأمويين والعباسيين

(١) والكتاب الأول من هذه الكتب الأخيرة مفقود ، والكتاب الثانى يعده
للنشر الدكتور جمال الدين الشيال أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة الاسكندرية
والكتاب الثالث ينشره الدكتور مصطفى زيادة أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة
القاهرة ، والمقرئى مؤلفات أخرى فوق ذلك منها :

إلى عصيات جاهلية قديمة . وكان في هذه الطريقة تليذا لابن خلدون .
 ٨ — للمقريزى — كتاب ثامن وأخير ، هو كتاب (إغاثه
 الأمة بكشف الغمة) أرخ فيه للجاعات التى نزلت بمصر من أقدم
 العصور إلى سنة ١٤٥٠ - وهى السنة التى ألف فيها الكتاب الأخير .
 وأدى به البحث إلى أن أسباب ما ينزل بالناس من المجاعات والأوبئة
 إنما تتلخص جميعها فى « سوء تدبير الزعماء والحكام والقادة وإغفالهم
 النظر فى مصالح الجمهور » . وهو تفسير اقتصادى تاريخى كان المقريزى
 فيه أيضا تليذا لابن خلدون . ولا غرو فى ذلك فقد كان المقريزى من
 المعجبين جدا بابن خلدون وبالمقدمة التى نسبت إليه . وقد وصف
 المقريزى هذه المقدمة بقوله :

« ولم يعمل مثالها . وإنه لعزير أن ينال بجتهد منالها . إذ هى زبدة
 المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم . توقف على كنه
 الأشياء . وتعرف حقيقة الحوادث والآباء . وتعبر عن حال الوجود
 وتنبئ عن أصل كل موجود » .

وهكذا كان جل اهتمام المقريزى بالتاريخ ، شغفه بهذا العلم حبا ،
 فاشتغل به ، وتجرد له ، وتوفر عليه .

كتاب الخطط :

عرفنا مما تقدم أن كتاب الخطط هو أول كتاب اشتغل
 المقريزى بتأليفه ، وجعل له مقدمة جغرافية تاريخية طويلة صدر فيها
 « عن شعور مبكر بالوطنية المصرية وإحساس عميق بهذه القومية .

فهو لم يؤلف كتابه هذا - كما كان يفعل المؤرخون الآخرون - ليعلم به خزانة ملك من الملوك ، أو ليجعله قرين يتقرب بها إلى أمير من الأمراء ، ولكن ألفه ليشتبع به عاطفة وطنية عنده . فهو يقول في المقدمة : « وكانت مصر هي مسقط رأسي ، وملعب أترابي وجمع ناسي ، ومغنى عشيرتي وموطن خاصتي الخ »

وقد تناول المؤلف في كتابه هذا وصف المدن والآثار المصرية قديما ووسيطها ، وما اكتشف هذه المدن المصرية من خطط وشوارع وحارات وأزقة وأسواق . وما فيها من دواوين ومن دور وقصور . وما كان يزينها من مساجد وكنائس وبيع . وما كان يتخللها من مدارس ومكتبات ، ودور للعلم أو الحكمة مبتدئا في كل ذلك بالإسكندرية ، ثم الفسطاط والقاهرة .

وقد جاء الجزء الثاني - وهو نصف الكتاب على وجه التقريب - سجلا زائرا بأحوال القاهرة وأخبارها وطرق المعيشة فيها وهكذا

وتعرض المؤرخ في أثناء ذلك كله لبعض الشخصيات التي شاركت في عمران هذه المدن أو إقامة هذه المنشآت . فترجم لهم ترجمات مفصلة حيناً وموجزة حيناً آخر . ولكنه حين أحس أن هذا التاريخ العمراني لمصر لا يشبع عاطفته الوطنية فكر في أن يؤرخ لمصر تاريخاً كاملاً على النحو الذي شرحناه آنفاً .

وليس الكتاب تاريخاً لمصر من هذه الناحية فقط بل إننا نعتمد عليه كذلك عندما نؤرخ للأدب المصري والعقل المصري والعقائد الدينية

— ٢٢٧ —

التي انتشرت في مصر ، والحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية ، وغير ذلك كله مما يتصل بمصر والمصريين .

غير أن طريقة المقرئى - وطريقة تلاميذه الذين من أشهرهم أبو المحاسن وابن إياس - ليست في شيء من التاريخ بمعناه الحديث . لأنها طريقة ناقصة تقطع تتابع الحوادث فجأة عند نهاية السنة أو المناسبة التي ذكرت من أجلها الحادثة .

والكتاب يقع في أربعة أجزاء لكل جزء منها فهرسه الخاصة التي تعين على الالتفات به .

حسبنا ذلك لننتقل إلى ثانی المؤرخين الذين اخترناهم وهو :

أبو المحاسن

جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ولد بالقاهرة سنة ٨١٣ هـ . وأبوم مملوك تركى للسلطان الملك الظاهر برفوق . وكان أميراً على حلب ودمشق وتوفي سنة ٨١٥ هـ . ونشأ ابنه جمال الدين يقيم الأيوبيين وتلقى العلم بالقاهرة على أساتذة منهم المقرئى وغيره . وقد احتل أبو المحاسن مركز الصدارة بين مؤرخى مصر بعد وفاة المقرئى .

واستطاع أبو المحاسن في حياته الطويلة التي قضى معظمها في البلاط السلطانى أن يكتب كثيراً من كتب التاريخ والتراجم بلغت اثني عشر كتاباً من أشهرها الكتاب المعروف باسم :

(النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) في سبعة مجلدات ضخمة

وكثيرا ما يشير أبو المحاسن في ثانيا هذا الكتاب إلى كتاب آخر سبق له أن ألفه ، واسم هذا الكتاب « المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي » . وهو كتاب حافل بتراجم الأعيان والناهين من سلاطين المماليك البحريةية والمماليك البرجية . ورتبه أبو المحاسن على حروف الأبجد . وجعله ذيلًا لكتاب الوافي بالوفيات للصفدى .

ونعود إلى كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة فنراه تاريخًا لمصر من الفتح الإسلامي إلى الدولة الأشرفية عام ٨٥٧ هجرية . وفيه استطرادات كثيرة عن البلاد المجاورة .

والكتاب مرتب بحسب السنين ، وذلك على طريقة كل من الطبرى وابن الأثير . ولكن الذى يمتاز به أبو المحاسن عن سابقيه أنه جعل مصر هى المحور الذى تدور عليه أحداث التاريخ بعد أن كانت مكة أو المدينة أو دمشق أو بغداد محورا عند سابقيه لهذا التاريخ . وفى ذلك تحقيق للشخصية المصرية فى كتابة التاريخ . ويضاف إلى ذلك عناية أبى المحاسن فى كتابه هذا بزيادة النيل وبنقصانه فى كل سنة من سنى هذا التاريخ . وعنايته بتراجم الرجال الذين ماتوا فى تلك السنة من المصريين خاصة .

وأظن أنه لا يطلب من المؤرخ المصرى أكثر من هذا الحد ليثبت به قوة هذه الشخصية المصرية التى كان لا بد لها من أن تظهر فى العلم كما ظهرت من قبل فى الأدب والبحث ، ونعنى به الشعر والنثر الفنى . وتوفى أبو المحاسن سنة ٨٧٤ للهجرة . فلنتقل منه إلى :

ابن إياس :

محمد بن أحمد بن إياس المصرى ثالث المؤرخين الذين تناوبوا الزعامة في كتابة التاريخ بعد المقرئى وأبى المحاسن . ولد بالقاهرة سنة ٨٥٣ هجرية . وهو يشبهه من حيث إن كلا منهما سليل أسرة مملوكية ، ولابن إياس جده يقال له (الخازندار) كان من أمراء المماليك البحرية . وأما جده المعروف (إياس) فقد كان من مماليك السلطان الظاهر برقوق . وتولى وظيفة (الدويدار) زمن السلطان فرج بن برقوق .

معنى ذلك أن ابن إياس هذا كان يمت بصلة قرابة ونسب إلى بعض رجال الدولة المملوكية . ومع هذا وذاك فلم يترجم له كثيرون من كتاب السير ، وبقى ابن إياس مستمتعا بإقطاع وافر فعاش في رخاء ويسر ، واشتغل بالكتابة والتأليف ، وتعلم الشعر والزجل والموشحات :

وكان ابن إياس يفتخر دائما بنسبته إلى الفرقة المسماة (أولاد الناس) وهى الفرقة الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك . وكان أبوه من مشاهير (أولاد الناس) هؤلاء . وحدث أن تأزمت أحوال السلطان الغورى واحتاج إلى المال اللازم للصرف على ممالكه . فعمد إلى إخراج (أولاد الناس) من الجيش وحرمانهم من إقطاعاتهم . وأصاب ابن إياس من ذلك ما أصاب غيره فذهب عنه إقطاعه . ثم شكأ أمره بعد سنوات إلى السلطان فرد إليه بعض إقطاعه . ومن أشهر كتب ابن إياس .

بدائع الزهور في وقائع الدهور :

جعله شاملا لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العصر العثماني . وجاء هذا الكتاب في أحد عشر جزءاً .

ثم من مؤلفات ابن إياس في التاريخ كذلك كتاب آخر بعنوان :
(عقود الجمان في وقائع الزمان) . وهو مختصر مستقل لتاريخ مصر .
وليست له علاقة ما بكتابه الأول .

على أن شهرة ابن إياس في التاريخ تستند إلى كتابه الأول . وبه
صار عمدة المؤرخين في أحوال دولة المماليك وأخبارها في الطور
الآخر من أطوار حياتها ، كما صار المرجع الرئيسى لحوادث الفتح
العثمانى لمصر .

وأما أسلوبه في الكتابة ونمط التأليف — فكما يقول المستشرق
الأوروبى مارجوليوث — « ينم كل منهما عن شخصية واستقلال في
الرأى قل أن يشاركه فيهما معظم المؤرخين من قبل . »

والظاهر أن ابن إياس كان ذا موهبة في النقد . فلم يقنع بسرد
الحوادث والوقائع ، بل تجاوز هذا كله إلى التعقيب والشرح . وطفق
يفلسف الأحداث مع شئ من القسوة في الحكم . شجعه على ذلك قربه
من البلاط ومعرفته بكثير من أخباره ورجاله .

السخاوى:

من تلاميذ أبى المحاسن رجل من أعظم المؤرخين المصريين هو
أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى ، نسبته إلى بلده (سخا)
مركز كفر الشيخ . ولد سنة ١٤٢٧ ميلادية بحارة بهاء الدين قرب باب
الفتوح القديم بالقاهرة . ودرس على ابن حجر الذى اختص به

وأحبه وآثره . وكانت بين ابن حجر ووالد السخاوى هذا صداقة
قديمة . وترجم السخاوى لنفسه فى كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن
التاسع) فى نحو ثلاثين صفحة من صفحات هذا الكتاب .

وتوفى أستاذه ابن حجر سنة ١٤٤٩ م فعزم السخاوى على الرحيل
من مصر إلى الشام ليتسلى عن موت أستاذه بالدرس والتحصيل . غير
أن أبويه حملاه على العدول عن ذلك فبقى بمصر يواصل دراسته الحديث
ويتنقل فى سبيل ذلك بين مدن دمياط ومنوف والمحلة الكبرى وسمنود
والإسكندرية وغيرها . وذهب للحج مع والديه سنة ١٤٥٢ ميلادية
وأقام بمكة بضع سنين . ثم عاد إلى مصر وأخذ يتنقل بينها وبين الشام
والحجاز . واتصل السخاوى بالأمير يشبك بن مهدى كاشف الوجه
القبلى . وكان هذا الأمير من أكبر رجال الدولة المملوكية فى عهد
السلطان قايتباى . وعن طريق هذا الأمير حصل السخاوى على إحدى
وظائف تدريس الحديث .

مؤلفات السخاوى

ذكر لنا السخاوى مؤلفاته الكبرى والصغرى فى أربع صفحات
كاملة من ترجمته لنفسه . ومنها فى التاريخ : كتاب التبر المسبوك فى
ذيل السلوك — فى أربعة أجزاء . وهو تكملة لتاريخ المقرئى الذى
سبق ذكره . وقال إنه ألف هذا الكتاب إجابة لرغبة الأمير يشبك .
أى أن السخاوى كتبته فى عهد السلطان قايتباى .

ثم كتاب وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الإسلام ، وهو تكملة
لكتاب الذهبي المؤرخ .

وكتاب الذيل المتناهي — تكملة لكتاب قضاة مصر لابن حجر .

وكتاب الذيل على طبقات القراء تكملة لكتاب الجزري .

والسحاوي كذلك :

كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .

وهو مقالة طويلة في قواعد الجرح والتعديل عند المؤرخين .

وكتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — وقد سبقت الإشارة إليه

وكتاب الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر .

وكتاب القول المنبى في ترجمة ابن عربي .

ولا شك أن أهم هذه الكتب جميعاً كتاب .

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع

وهو معجم كبير في اثني عشر مجلداً . واحد منها بأكمله خاص
بالنساء المسلمات . ولا عيب في هذا الكتاب الجامع غير أن مؤلفه لم
يتخلص من طبيعته التي ولد بها وهي التكبر والتعالى على الكبير والصغير
والميل إلى تجريح هؤلاء وهؤلاء كلها أمكن ذلك .

ومن أجل هذا ذكره ابن إياس في بعض كتبه فقال . « ألف
تاريخاً فيه كثير من المساوىء في حق الناس » . وقال عنه زميله السيوطي
في شيء من التندر والسخرية .

« ماترون في رجل ألف تاريخاً جمع فيه المساوى وثلب الأعراض وفوق فيه سهاماً على قدر أغراضه . والأغراض هي الأعراض . جعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه . واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه . ولم يفرق بين جليل وحقير ، إلى آخر ما قال . واشتدت الخصومة بين السخاوى والسيوطى . وتبادلا غير قليل من السباب والتهم . وبقياً على هذه الحال حتى فرق الموت بينهما . فقد مات السخاوى سنة ١٤٩٧ لليلاد . ومات السيوطى بعده بقليل .

السيوطى :

وهو جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطى ولد سنة ١٤٤٥ لليلاد بالقاهرة . وانحدر من أسرة ينتهى أصلها إلى شيخ من أهل الحقيقة والتصوف . جاء هذا الشيخ إلى أسىوط . وعاش بها زمن الدولة الأيوبية . وأنجبت هذه الأسرة رجالاً منهم القاضى والتاجر والمحتسب وصاحب المكرمات . أما أبوه عبد الرحمن السيوطى فهو آخر من أقام من أفراد هذه الأسرة بأسىوط . ثم رحل إلى القاهرة حيث تلقى العلم . واتصل بالأمير شيخو قتولى بسببه درس الفقه بالجامع الشيخونى . وخطب بجامع ابن طولون . وتوفى سنة ١٤٥١ وولده جلال الدين فى سن السادسة . وقد ترجم السيوطى لأبيه فى كتابه حسن المحاضرة . وحفظ السيوطى القرآن وأتمه وهو فى التاسعة . وحضر مجلس ابن حجر فى الحديث ، وكان موضع رعاية من علماء عصره إكراماً لوالده . ثم نجح فى أن يخلف والده فى الجامع الشيخونى بعد وفاته .

وبرع السيوطى فى فنون العلم على اختلافها عدا الحساب فإنه ثقل عليه لعدم ملأته لطبيعته ، وإلا المنطق فإنه عزف عنه كذلك . أما التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع والأصول والجدل والتصريف والإفشاء والترسل والفرائض والقراءات والطب والتاريخ فقد بلغ فيها الغاية فلم يترك ميदानاً من ميادين هذه العلوم دون أن يدرسه ويجرى فيه قلبه . وقال السيوطى عن نفسه إنه برع فى جميع العلوم المتقدمة ولكنه كان فى الستة الأولى منها يفوق أسيانهم . وقال عن نفسه إنه اخترع علم أصول اللغة . وإنه وصل إلى مرتبة الاجتهاد المطلق ، فى علم الحديث والفقه والعربية .

بلغ عبد الرحمن السيوطى هذه المكانة العليا من العلم . ولكنه أفسد ذلك بميله الشديد إلى التفاخر والمباهاة بهذه المكانة . وأحصى الشيوخ الذين حضر عليهم فإذا هم أكثر من ستائة ، وعد من البلاد التى رحل إليها فى طلب العلم دمياط والإسكندرية والمحلة الكبرى والفيوم ثم مكة والمدينة .

وتصدى السيوطى لتدريس الفقه بالجامع الشيوخى خلفاً لأبيه كما قلنا ، ثم تصدى للإفتاء وإملاء الحديث بجامع ابن طولون ، وأضيفت إليه وظيفة تدريس الحديث ووظيفة الإسماع بالخانقاه الشيوخية .

ومضى السيوطى يتولى جميع هذه الوظائف حتى جاوز الأربعين من العمر ، ثم تولى بعد ذلك مشيخة الخانقاه البيبرسية ، وكانت يومئذ من أكبر خوانق القاهرة وأوسعها أوقافاً بالديار المصرية ، ومنذ ذلك التاريخ انقطع السيوطى عن التدريس ، وتجرد للعبادة ، ثم أخذ يتوفر على

التأليف حتى أربت كتبه — فيما يقولون — على الخمسمائة ، وكانت كلها ذات طابع معين ، هو طابع الجمع لا طابع التأليف بالمعنى الصحيح . ولا غرابة في ذلك فإن عصر السيوطي — وهو الجزء الأخير من عصر الماليك — كان عصر جمع وتلخيص وتكميل لكتب الأقدمين ، ثم جاء العصر العثماني بعد ذلك ففضى في هذه الخطوة ، بل تجاوزها إلى الشروح والحواشي والتقارير على النحو الذي شرحناه في مواضع أخرى من هذا الكتاب ، من كتب السيوطي ما يلي :

كتاب تكملة تفسير القرآن للشيخ جلال الدين المحلى أنهاء في أربعين يوماً .

وكتاب طبقات الحفاظ — وهو تلخيص وتكملة للذهبي .
وكتاب لب الباب في تحرير الأنساب — وهو اختصار لعز الدين ابن الأثير (كتبه السيوطي فيما لا يزيد على عشرة أيام .)
ثم إن السيوطي كان كثيراً ما يخالف مألوف عصره ويغضب منهم وكانت كل غصبة من غضباته تكلفه رسالة طويلة يكتبها في يوم وليلة ، وكل هذه الرسائل محسوبة في مؤلفاته البالغ عددها خمسمائة !
على أن السيوطي بطريقته هذه استطاع أن يقرب كثيراً من العلوم إلى أهل عصره ، وأن يقرب كتباً كثيرة أيضاً من أيديهم بعد أن كان يهابها الناس لضخامتها حتى جاء هذا الرجل ولخصها وهذبها ، وانتشرت ملخصاته في جميع العالم الإسلامي من مراکش إلى الهند واليمن .

ثم تولى السيوطى وظيفة هامة من وظائف الدولة . هى وظيفة قاضى القضاة بمصر والشام وسائر الممالك الإسلامية المجاورة ، وأصبح بيده الولاية والعزل فيهم جميعاً ، وهى وظيفة كبيرة لم يظفر بها قط فى العالم الإسلامى سوى القاضى تاج الدين بن الأعز فى الدولة الأيوبية منذ أن صار لتلك الدولة سيادة على جميع بلاد الشرق الأدنى .

ثم عزل السيوطى من مشيخة الخاتكة البيهرسية بسبب أنه قطع أرزاق الصوفية بهذه الخاتكة بحجة أنهم خانوا طريقتهم ونسوا صوفيتهم ، قثاروا عليه ، وكادوا يقتلونه ، وانتهى الأمر بعزله كما رأينا واعتكف السيوطى فى بيت له بحزيرة الروضة ، وكتب فى ذلك رسالة عنوانها (تأخير الظلامه إلى يوم القيامة) .

وعرض عليه السلطان قانصوه الغورى منصب المشيخة بمدرسته فأبى وآثر العزلة ، وما زال السيوطى فى عزله حتى مات سنة ١٥٠٥ لليلاد .

يسير علينا بعد كل ذلك أن ندرك الفرق بين رجل كابن إياس ومن على شاكلته من المؤرخين الخالص ، ورجل كالسيوطى . فالأول - وهو ابن إياس - اكتفى بالتاريخ واتخذة قناً مفضلاً عنده وقف عليه جهده وقلبه .

أما الثانى - وهو السيوطى - فقد جال فى كل ميدان وهام فى كل واد وسبح فى كل لجة ووزع موهبته على علوم وفنون شتى .

مؤرخو العصر العثماني

أصاب التاريخ في هذا العصر ما أصاب سائر الآداب والعلوم من الضعف ، ومع هذا وذاك فقد ظهر في ذلك العصر عدد من المؤرخين كتبوا في فن التراجم والسير ، وكتبوا كذلك في تاريخ بعض البلاد والدول ، وإن كانت كتابة هؤلاء وهؤلاء لم ترق إلى كتابة من سبقوهم من مؤرخي العصور التي تقدمت ، لا نستثنى من هذه القاعدة غير واحد فقط هو الجبرتي .

ومن مؤرخي السير في العصر العثماني على سبيل المثال :

شمس الدين الشامي :

أبو عبد الله محمد بن يوسف الشامي ، رحل من الشام إلى مصر وأقام بها إلى أن توفي سنة ٩٤٢ هـ وهو معدود من المحدثين ، وله مع ذلك كتب في التاريخ منها :

١ — (كتاب السيرة النبوية) قال إنه جمعها من أكثر من ثلثمائة كتاب وتحصر فيها الصواب ، فجاءت في نحو سبعمائة باب .

٢ — (عقود الجمان في مناقب ابن حنيفة النعمان) دافع فيه عن أبي حنيفة ورد به على كتاب ظهر في تلك الأثناء طعننا على هذا الإمام

ابن طولون الصالحى :

محمد بن علي بن محمد بن طولون ولد بالشام وتربى في مصر ، وأقام

بها ، وألف بضعة وعشرين كتاباً منها :

- ١ — الغرف العلية في تراجم متأخرى الخنفية
- ٢ التمتع بالأقراق بين تراجم الشيوخ والأقران .
- ٣ ذخائر العصر في تراجم نبلاء مصر .
- ٤ إنباء الأمراء بأنباء الوزراء
- ٥ اللؤلؤ المنظوم في الوقوف على ما اشتغلت به من العلوم ،

وأخيراً نأتى إلى إمام المؤرخين في العصر العثماني غير مدافع ونعني به:

الجبرتي :

أجل — إذا ذكرنا المؤرخين في ذلك العصر العثماني فلا ينبغي لنا أن ننسى الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، فقد عاش جزءاً كبيراً من حياته في العصر العثماني ، وعاش الجزء الباقي من حياته في سنوات الحملة الفرنسية ، وبعض سنوات حكم محمد علي ، ولذا كان خير من أرخ لهذين العهدين وللعصر العثماني معاً ، وذلك في كتابه المشهور

عجائب الآثار في التراجم والأخبار

وهو كتاب في أربعة مجلدات أرخ فيه لمائة وثلاثين سنة (أى من سنة ١١٠٦ للهجرة إلى سنة ١٢٣٦) . ومعنى ذلك أنه أرخ لسبع ومائة سنة من سنوات العصر العثماني ، ثم أرخ لسنوات الحملة الفرنسية الثلاث ، ثم أرخ لعشرين سنة من تاريخ مصر بعد ذلك ، ومات في سنة ١٢٤١ هـ

ولتأليف هذا الكتاب قصة يرويها المؤرخون . فالقارى لكتاب (عجائب الآثار) يفهم من ثناياه أن تفكير الجبرقى فى كتابة هذا التاريخ جاء أصلا من الشيخ خليل المرادى الحسينى مفتى دمشق المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ ، فقد كان المرادى مشغولا بترجمة أعلام المائة الثانية عشرة ، وذلك فى كتابه (سلك الدر فى أعيان القرن الثانى عشر) فى أربعة أجزاء .

ولما كانت هذه الدراسة تتطلب مجهودا عنيفا تحتم عليه الاستعانة بغيره من علماء عصره ، فقد أرسل المرادى هذا فى سنة . ١٢٠ للهجرة إلى الشيخ أبى الفيض محمد مرتضى الزبيدى الذى سبق ذكره فى الفصل الثانى من فصول كتابنا هذا - وكان من أشهر علماء الوقت - يرجوه أن يساعده فى هذا العمل العلى الضخم . فاشتغل الزبيدى بذلك ، ثم رأى أن يستعين هو الآخر بتلميذه الجبرقى ، فدعاه فى عام ١٢٠٣ إلى الهجرة للاشتراك معه فى ذلك .

وبقيت الفكرة تحتل سنوات كثيرة فى فكر الجبرقى حتى توفى أستاذه الزبيدى واستطاع الحصول على ما ترك من أوراق وكراسات جمع فيه جزءا من هذا التاريخ ثم جاءت الحملة الفرنسية فرأينا الجبرقى يكتب كتابا آخر عرف باسم (مظهر النقدىس بذهاب دولة الفرنسىس) . وأخيرا ربط الجبرقى بين مذكراته القديمة فى تراجم المئة الثانية عشرة وهذا الكتاب الأخير فى تاريخ الحملة وتألف له من ذلك الربط كتابه المعروف (بعجائب الآثار فى التراجم والأخبار) .

ولكن متى كان الدافع النفسى القوى الذى دعا الجبرقى إلى تأليف كتابه هذا ؟

لقد بدأ الجبرقى كتابه تاريخه عام ١٢٢٠ للهجرة ، ومعنى ذلك فى جلاء تام أن هذا الدافع النفسى الذى نريد أن نتبينه إنما هو شعور الجبرقى بخيبة أمله فى الحكم العثمانى عند ما وازن بينه وبين الحكم الفرنسى . وقد ساء هذا الحكم العثمانى إلى درجة كبيرة بعد عودة الأتراك العثمانيين إلى مصر ونجاحهم فى طرد الفرنسيين منها ، فإذا ذلك أصبح الجبرقى - كما يقول بعض المؤرخين المحدثين - أكثر موضوعية وأقل عاطفية مما كان عليه من قبل حين كان يشتغل بتأليف كتابه مظهر التقديس الذى تقدم ذكره .

استهل الجبرقى كتابه بسنة ١١٠٦ وأجمل الأحداث إجمالاً إلى سنة ١١٢١ ، وشرع بعد ذلك يتابع السنين واحدة فواحدة ، يبسط أحداثها ، ويترجم لمن مات فيها ، وتوخى الإسهاب فى ذكر بعض العلماء - وخاصة الزبيدى - كما أسهب فى ترجمة كثير من الشعراء ومنهم البدرى الحجازى وابن الصلاحى ، وكان كثير الاستشهاد بشعر الأقدمين والمحدثين على السواء ، ولأنه عالم فلكى فقد ذكر الأحداث الفلكية ، ولأنه عالم حسابى فقد جعل يطيل الجدل فى النقود وسكها وما فيها من ذهب وفضة .

ولما وصل إلى عهد الحملة الفرنسية اكتفى بإثبات كتابه (مظهر التقديس) برمته بعد — حذف منه مقدمته والفصول التى كتبها صديقه الشيخ حسن العطار .

والحق أن الشيخ الجبرقى قد امتاز عن سبقه من المؤرخين بأمور

منها : عنايته بكل صغير وكبير مع الدقة البالغة والأمانة العلمية الكاملة قدر ما وسعه المجهود . ومنها - أنه كان برغم هذا كله يتأثر بنظرته الشخصية إلى الأحداث والأشخاص ، فإذا أحب شخصاً أسهب في مدحه ، وإذا أبغض شخصاً لم يكف عن ذمه ، وهو من هذه الناحية لم يستطع قط أن يرتفع عن مستوى عصره ، ومن ثم لم يذكر شيئاً عن الصلات التي كانت بين مصر وبقية الدول الأخرى فيما عدا تركيا .

أما أسلوبه في الكتابة فلم يكن جارياً على نمط واحد ، فهو مرة بليغ غير مسجوع وأخرى مسجوع ، وفي ثالثة يبدو قريباً من العامية ، وهذا يدل على أن تأليفه لم يكن في فترة واحدة من فترات حياته بل كان في فترات متباعدة من حياته .

كتب الجبرتي عن عهود ثلاثة هي : أواخر الحكم العثماني ، والحلة الفرنسية ، وأوائل حكم محمد علي . ولم يكن الجبرتي راضياً عن هذه العهود الثلاثة ، لأن عهد المماليك كان حافلاً بالدسائس والدم . وكان لا يأمن فيه أحد على حياته مهما أوتى من الحذر والحرص . وأما الحملة الفرنسية فحسبها أنها هزمت المسلمين ، ومن ثم وقف منها موقف الريبة والكره الشديد ، وإن لم يمنعه ذلك من الإعجاب ببعض الأعمال الإنشائية الكبيرة التي قاموا بها في مصر . وأما عهد محمد علي فإنه لم يشهد منه إلا « دور التحضير » وهو الدور الذي كان فيه محمد علي المحتكر الأول لكل شيء ، ثم هو العهد الذي كان فيه هذا الوالي مضطراً إلى اصطناع العسف والشدة والاستبداد بكل شيء . ولو امتد الأجل للجبرتي أكثر من ذلك لكان من المحتمل أن يغير رأيه وأن يدخل فيما دخل فيه أمثاله من

شيوخ الأزهري كالشيخ حسن العطار وغيره من مسايير النهضة التي بدأها محمد علي .

ولكن حسب الجبرتي أنه ترجم لهذا العدد الضخم من علماء مصر في ذلك الوقت ، ترجم في الجزء الأول من كتابه لمائة وستة وسبعين عالماً ، وفي الجزء الثاني لمائة وثلاثة وثلاثين عالماً ، أما الجزء الثالث والرابع فقد شغل فيهما الجبرتي بالأحداث الجسام .

ولا بأس من أن نورد هنا موجزاً بسيطاً لترجمة الجبرتي لو الله .

الشيخ حسن الجبرتي والد المؤلف :

ذكره المؤلف في وفيات سنة ١١٤٢ هـ وقال إنه حسن بن برهان الدين ابن محمد بن زين الدين بن عبد الرحمن الجبرتي ، نسبة إلى بلاد الجبرت بفتح الباء بأرض الحبشة ، وأسرته من الأقلية المسلمة هناك ، ولا تعرف من المذاهب غير مذهب الإمام أبي حنيفة ومذهب الإمام الشافعي ، ويقتضى نسبها إلى أسلم بن عقيل بن أبي طالب ، وكان أميرهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشي الذي آمن بالنبي وإن لم يره ، وصلى عليه النبي صلاة الغيبة ، وقال فيهم إنهم قوم يغلب عليهم الصلاح والتقشف ، وإذا قصدوا إلى الحج أتوا مشاة من بلادهم إلى بيت الله الحرام ، ولهم رواق بالمدينة ، ورواق بمكة ، ورواق بالأزهري ، وللقريزي مؤلف في تاريخ أخبار بلادهم وتفصيل أحوالهم ونسبهم ، ومنهم القطب الكبير الشيخ إسماعيل الجبرتي تلميذ ابن عربي ويسمى قطب اليمن ، ومنهم الشيخ عبد الله الجبرتي الذي ترجم له

السيوطي والذي كان يعتقد فيه الملك الظاهر برقوق حتى أوصى عند موته بأن يدفن تحت قدمه الخ؛ وما زال المؤلف يرقى بقومه وآله من الأجباش حتى ذكر منهم بلال بن رباح مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخازنه على بيت المال، وذكر كثيرين غيره على سبيل التباهي.

ثم قال المؤلف عن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي إنه الجدد السابع من أجداده، وإنه هو أول من ارتحل إلى مصر ماراً بمكة وجدة والمدينة وإنه دخل الجامع الأزهر وحضر القسمة على شيوخه، وتولى بعد ذلك مشيخة رواق الأجباش، وخلفه أولاده وأحفاده على قدم أسلافهم من الصلاح والعلم والتقوى حتى كان عهد هذه الأسرة بالشيخ حسن والد المؤلف. فذكر أن ولادته كانت في سنة ١١١٠ هجرية، وأن أباه توفي وهو رضيع فكفلته أمه. وأتم حفظ القرآن في عشر سنوات، وتخرج على كبار العلماء في عصره، وربط المؤلف بين هؤلاء العلماء وبين أبي حنيفة النعمان برباط مسلسل ثم قال: ومع اشتغاله بالعلم كان يعاني التجارة والبيع والشراء أو المشاركة والمقايضة ونحو ذلك.

أما المؤلف نفسه وهو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب كتاب (عجائب الآثار).

فقد نشأ في بيئة علمية عالية، وعلى رأس هذه البيئة والده الذي كان من كبار العلماء في زمانه، وتخرج الفتى على أبيه وأصدقاء أبيه من الشيوخ كالشيخ عبد ربه، والشيخ موسى الجناحي وغيرهما. وكان من عادة والده أن يقص على ولده كل يوم شيئاً من تاريخ آبائه وأجداده في الحبشة ومصر. فأثر ذلك في نفس الفتى وطبعه منذ الصغر

على حب التاريخ ، وبقى الفتى على هذه الحال حتى سلمه أبوه للشيخ عبد الرحمن العريشى شيخ الرواق الشامى بالجامع الأزهر فلقنه المذهب الحنفى .

وترك الشيخ حسن الجبرتى لابنه ثروة طائلة وخزانة حافلة ، وترك له ما هو أثنى من كل ذلك ؛ محبته لكثير من العلماء والفضلاء وصداقته لهم . ثم ما كانت تنتهى السنة التى مات فيها والده حتى قام برحلة طويلة إلى الوجه البحرى ماراً بكفر الزيات وطنطا وإيبار وفوه وإدكو ورشيد ودمياط والمنصورة وأبى قير والإسكندرية . ثم عاد الجبرتى إلى القاهرة واستأنف اختلافه إلى الأزهر وحضوره حلقات الدرس فيه . والاختلاط بالجناحى والصبان والكردى والطائى والصعيدى وأحمد الطهطاوى وعبد ربه وغيره من العلماء الذين أجازوه فى علوم شتى ، منها الفقه واللغة ، فأضاف هذا كله إلى ما سبق أن حصله باجتهاده من علوم الحساب والفلك والهندسة .

وبعد قليل غدا الجبرتى قائماً بالتدريس فى الجامع الأزهر ، وكان يجهد فى أن يحتذى طريقة أستاذه السيد المرتضى الزيندى فى تدريسه ، وكانت طريقة هذا الأخير تبدأ بالشعر الذى يعجب السامعين ويحببهم فى الاستماع إلى الدروس . وكان صيت هذا العالم قد ملا مصر وتجاوزها إلى غيرها من أقطار العالم الإسلامى . وترك هذا فى نفس الزيندى غروراً كثيراً وزهواً عظيماً حتى كتب لأحد الأمراء مدعياً أنه المهدي المنتظر ، وبقى الحب بين التليذ وأستاذه على أشده حتى مات الأستاذ الزيندى سنة ١٢٠٥ للهجرة ، واستمر

الجبرقى فى دروسه وتأليفه حتى أضر الإجهاد بصحته وتركه عصبى المزاج سريع الغضب إلى درجة كبيرة .

وأنت الحملة الفرنسية إلى مصر فتغيب الجبرقى أياماً عن القاهرة ثم عاد إليها فعرف أن عشرة من إخوانه العلماء عيّنهم بونا بورت أعضاء فى الديوان الذى أنشأ للنظر فى مصالح الرعية . وقبل خروج الفرنسيين بقليل وجدنا الجبرقى يشترك فى هذا الديوان الكبير ويصبح له رأى فى القضايا الكبرى كما يقول ، وقد ساعده ذلك على الاطلاع على المكاتبات والمراسلات ومحاضر الجلسات وفأعانه كل ذلك بطبيعة الحال على المضى فى تأليف كتابه عجائب الآثار .

(وبعد) فهذه حركة التاريخ ، وتلك جهود المؤرخين فى كتابة هذا التاريخ ، وهى جهود تزيّننا بوضوح كيف أن مصر وجدت من الذين عنوا بكتابة تاريخها من جميع نواحيه أكثر مما وجد غيرها من المراكز الإسلامية من هذه العناية التاريخية ، فدلّ هذا دلالة لا تقبل الشك على أن مصر كان لها من السلطان على قلوب أهلها فى تلك العصور أضعاف ما للأقاليم الإسلامية الأخرى من هذا السلطان على قلوب أهلها والمنتمين إليها .

ولا غرابة فى ذلك فصر خليفة بكل هذا المجهود الذى بذل فى كتابة تاريخها ، والمصريون من أهلى الشعوب إلى مثل هذه الجهود التى أثبتوا بها حبهم لبلادهم وإيثارهم لوطنهم على بقية الأوطان الأخرى .

الفصل الرابع

الأدب الشعبي في مصر

اختلف الباحثون في مدلول كلمة « الأدب الشعبي » ، ولكنهم متفقون على أنه الكلام الذي يعبر به الشعب — أفراداً وجماعات — عن مشاعرهم وأحاسيسهم . أو أنه نتاج الملايين من هؤلاء الأفراد والجماعات جيلاً بعد جيل . ومعنى ذلك أن الأدب الشعبي لا يمكن أن يكون ثمرة فرد بعينه في زمن بعينه مهما أوتي هذا الفرد من البراعة الفنية ما يجعله قادراً على تصور الحالات النفسية التي مرت بالشعب في الوطن الذي ينتسب إليه . ومعنى ذلك أيضاً أن الفنان الشعبي يتداخل فنه في فن المجموع ويصبح جزءاً منه . ولكن فنه مع هذا يظل محبباً إلى النفوس ، سريع الذيوع بين الجماعات .

وقد عرفت مصر في عصر المماليك — أو قبله بقليل — ألواناً من الأدب الشعبي وصلت إلينا ، وأعجب بها الأوروبيون إعجاباً عظيماً حين اطلعوا عليها . ومن هذه الألوان التي بين أيدينا الآن :

١ — قصص ألف ليلة وليلة ٢ — سيرة بني هلال ٣ — سيرة الظاهر بيبرس وسنعرض بإيجاز لكل واحد من هذه الألوان الثلاثة .

ألف ليلة وليلة

وهو مجموعة من القصص يختلف عددها كما يختلف ترتيبها باختلاف

النسخ التي لهذا الكتاب . وكلها تدور في إطار واحد . والظاهر أنها ليست لمؤلف واحد .

وقيل في أصل هذا الكتاب إنه ترجمة لكتاب هندي فارسي قديم بعنوان (هزار افسانه) ومعناه ألف خرافة . ثم ترجم إلى العربية في القرن الثامن الميلادي . ثم أضيفت إليه مجموعتان : إحداهما بغدادية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي . والآخرى مصرية في أوائل دولة المماليك - أو بعد زمن صلاح الدين بقليل . ثم ما زالت السنون تضيف إليه ما تضيف حتى إذا كان القرنان الرابع عشر والخامس عشر للميلاد اتخذ هذا الكتاب صورته الأخيرة - وهي الصورة التي وصلت إلى أيدينا بعد ذلك بسنوات قليلة^(١) .

معنى ذلك أن قصص ألف ليلة وليلة مرت بأطوار ثلاثة :

أولها - الطور الذي وجدت في أثنائه على السنة العامة ، ووعتها ذا كراتهم ، وتناقلتها أفواههم . وأصبحت بعد ذلك نوعاً من (الفلكلور) الشعبي بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

وثانيها - الطور الذي تهيأت فيه هذه القصص على أيدي الكتاب والأدباء لأن تصبح قصصاً مكتوبة في كتاب يقرؤه بعض الناس ويستمتع إليه بعضهم الآخر .

وثالثها - الطور الذي شهد قصص ألف ليلة وليلة محددة في مجاميع . منها المجموعة البغدادية ، ومنها المجموعة المصرية .

(١) قيل إن النسخة التي بأيدينا يرجع تاريخها إلى سنة ٩٤٣ للهجرة .

ومعنى ذلك إذن أن الوطن الذى ينسب إليه مؤلف الليالى موضع خلاف بين الباحثين إلى الآن . فبعضهم يقول إن الصورة الأخيرة لهذا الكتاب تدل على أنه كتب فى مصر . وبعضهم يقول إنها تدل كذلك على أنه كتب فى بغداد . وإن كانت الكثرة تميل إلى رأى القائل بأن هذا المؤلف المجهول مصرى البيئة . بل تقول إن هذا المؤلف شخصيتان وليس شخصاً واحداً فى الحقيقة . أحد هذين الشخصين وصف الحياة الاجتماعية فى مصر الإسلامية . والثانى يهودى أسلم وأدخل فى (الليالى) كثيراً من العناصر الإسرائيلية .

مهما يكن من شىء فكتاب ألف ليلة وليلة لا ينسب إلى بيئة واحدة ، أو وطن واحد ، أو كاتب بعينه ، أو قاص بذاته . وإن كنا لا ننكر أن الطابع المصرى عليه أغلب ، وأن الحياة المصرية فيه أظهر وأبين .

على أننا بعد هذا وذاك إن استطعنا أن ندل على أصل هذا الكتاب فإننا لا نستطيع أن نحدد تاريخ هذا الأصل إلى الآن . والمهم بعد ذلك أن نتعرف على الطابعين العراقى والمصرى فى كتاب ألف ليلة وليلة فنقول :

(أما بغداد) فأثرها فى الكتاب يتضح من أخبار الخلفاء ، وبلاط الخلفاء ، وقصور الخلفاء . ونخص بالذكر منهم هارون الرشيد . فقد وصفت (الليالى) بطريقتها القصصية اللطيفة أسلوب هذا الخليفة فى الحكم وحبه للرعية وحب الرعية له . ووصفت سيره

في ظلام الليل متذكراً ليتفقد أحوال الرعية ثم يحبرهم بها في صباح اليوم التالي . وبأختـ ار شديد كان اسم الرشيد في هذه القصص رمزاً للعصر الذهبي للأمة الإسلامية . وكان من السهل أن تحكى عنه الأعاجيب ، وتدور حوله الأساطير . وهو ما فعلته بالضبط قصص ألف ليلة وليلة . ثم لم تكتف الليالي بكل ذلك حتى أخذت تصف الرشيد بأنه إنسان متعدد الجوانب . فهو متدين كأقصى ما يكون المتدينون ، وهو محب لمباهج الحياة الدنيا كأشد ما يكون عليه المحبون للحياة الدنيا . (والليالي) في كل ذلك تتفق مع ما نقرأه في كتب الأدب العربي من أخبار قصار عن الرشيد في هذه النواحي .

وأما (البصرة) فقد كان لها هي الأخرى ظل في كتاب ألف ليلة وليلة . وظهر هذا الظل في بطش حكام البصرة بالرعية . وربما كان لهذا صلة ما بتاريخ هذه المدينة من مدن العراق . وإلا لما استطاع القاص أن يأتي بهذه الصورة التي اشتمل عليها الكتاب . .

وندع الطابع البصرى والطابع البغدادى جانباَ وننظر في الطابع المصرى كما يتضح لنا في كتاب ألف ليلة وليلة .

والحق لقد نضحت البيئة المصرية على (الليالي) بكل ما فيها . وكان أعظم ما تمتاز به تلك البيئة المصرية ملاح وأشياء :

فمن ملاح البيئة المصرية يومئذ السحر والطلاسم والرقى والتائم ونحو ذلك . ومن ملاح هذه البيئة المصرية كذلك التاجر المصرى بصورته المعروفة حتى إنك لتتظر في أيامنا هذه إلى هذا (التاجر المصرى)

فى جهة (الفورية) فلا تكاد ترى فرقا بينه وبين ذلك التاجر المصرى الذى يتحدث عنه كتاب ألف ليلة وليلة .

ومن ملاح تلك البيئة المصرية (الحمام) وهو ملتقى الخاصة والعامة فى العصور الوسطى ، ومكان التدابير الخفية ، والمؤامرات الغرامية التى تدبرها عجائز المدينة حينما وخدم السلطان حينما آخر .

ثم من ملاح تلك البيئة المصرية كذلك (سوق الرقيق) وهو مصدر حيوية دافقة فى قصص ألف ليلة وليلة . فى هذه السوق التقت طبقات الحكام ، وطبقات الصناع ، وطبقات التجار . ولكل طبقة تقاليدها وأخلاقها ، وعاداتها ، وأحكامها ، وقصصها ، وخيالها .

وصورت لنا (الليالى) كيف كان الفرق عظيمًا بين أخلاق الصناع وأخلاق التجار . فطبقة الصناع تكره الغريب ، وتنظر إليه على أنه جاء ينافسهم فى صناعتهم ، ويستأثر بها دونهم . على حين أن طبقة التجار على عكس ذلك . كانت تنظر إلى التاجر الغريب على أنه مصدر جديد من مصادر الثروة والتعاش للحركة التجارية فى المدينة . ومن هنا كانت تكرم الضيف وترحب به وتغلب على طباعها الرقة او الملاينة وحسن المعاملة

على أن خير ما صورته لنا (الليالى) فى الحقيقة جانب غريب من جوانب الحياة المصرية فى تلك العصور ونعنى به حياة (الشطار) . ويظهر لنا ذلك فى قصة علاء الدين أبى الشامات . وهى القصة التى تصف لنا مهارة الشطار فى الخطف والضحك من الناس . كما تصف لنا فى الوقت

نفسه مروءتهم وشهامتهم ؛ لأنهم سرعان ما يردون إلى الناس ما خطفوه منهم مكتفين بالضحك والتسليّة . وفي قصة علاء الدين أبي الشامات ، وقصة دليله المحتملة ، وقصة زينب النصابة ، وقصة الزييق المصرى ما يدل على هذا الجانب الفسك من جوانب الحياة المصرية .

من أجل ذلك لم يزن الشعب المصرى أعمال (الشطار) بميزان الأخلاق ، ولا نظر إليهم الولاة والمحكام على أنهم خطر على النظام أو الأمن العام ، وإنما نظر الجميع إلى هذه الأعمال التى تصدر عن الشطار على أنها من قبيل الألعاب البهلوانية ، والحركات التى يقصد بها إلى مجرد الضحك البرى . فهم — أى الشطار — لا يؤذون أحداً ، ولا يسفكون دما كما يفعل الطارئون على مصر من الأعراب الذين همهم القتل والسلب والإضرار بمن تصل إليه أيديهم من العباد .

ومن ثم كان الفرق عظيماً فى (الليالى) بين صورة رجل (كأحمد الدثف) وعصابته من الشطار وصورة الأعرابى الذى أتى للنهب والسلب والإيذاء : الصورة الأولى تنزع إعجاب العامة والخاصة ، والصورة الثانية لا تحظى منهم بغير السخط والسخرية .

الحق لقد أفلحت قصص ألف ليلة وليلة فى أن تمدنا بصورة دقيقة من الحياة المصرية الإسلامية فى العصر الوسيط بكل ما فى هذه الحياة نفسها من جد ولهو ، وعادات وأخلاق ، وطباع وخرافات . فوصفت لنا الأعياد والمواسم وفرح الشعب بالسلطان الجديد والمولود الجديد وكيف كان يقترن هذا كله بالعفو عن المسجونين ، ورفع المكوس عن

كواهل المصريين . كما وصفت لنا الليالي كيف كان المصريون يخافون
الحسد ، يأخذون أنفسهم بالتفاؤل والتشاؤم ونحو ذلك .
وأخيراً وجدنا قصص ألف ليلة وليلة يصف لنا عسف الحكام
وظلم الولاة بطريقة تتفق ومزاج المصريين ، بل تتفق وشخصيتهم التي
تكونت لهم منذ أقدم العصور .

فإذا كان عسف الحاكمين قد اتخذ في القصص البصري في ألف ليلة
وليلة صورة البطش من جانب الحاكم والسخط وحب الالتماس من جانب
المحكوم فإنه قد اتخذ في القصص المصري صورة السخرية والفكاهة من
الحاكم الذي صدر عنه هذا البطش . وذلك بالضبط كما نرى هذه الطريقة
في كتاب من كتب المصريين في العصر الأيوبي ، هو الكتاب الذي
ألفه ابن بمانى بعنوان (الفاشوش في حكم قراقوش) . فانظر كيف أن
هذه الطريقة لم تخطئ المصريين في كل عصر من عصورهم وحالة
من حالاتهم ؟

بقى أن نشير إشارة موجزة إلى .

طريقة تأليف الكتاب

ويقال في هذا إن طريقة تأليفه هندية خالصة . أى أنها طريقة تجعل
الحكايات سلسلة متماسكة الحلقات متعاقبة النسق والخطوات وذلك بأن
ترتبط جميع الحكايات في الكتاب بحكاية أصلية تأتي في أوله .
على نحو ما نرى في مثل كتاب « كيلة ودمنة » . أو بأن نرى القصص
والحكايات موزعة على عدة أبواب في الكتاب بحيث تكون الأقصوة

أو الحكاية في أى باب من هذه الأبواب مقدمة للحكاية أو الأقصوصة في الباب التالى له مباشرة . وذلك على نحو ما نرى في كتاب (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) لأحمد بن عربشاه الدمشقى .

والحكاية في ألف ليلة وليلة تجرى على جميع هذه الطرق : تجرى على الطريقة الهندية في الأقاصيص المتداخلة بعضها في بعض كحكايات البنات الثلاث ، والصعاليك الثلاثة ، وحكاية الخياط والأجرب والطبيب ، وحكاية ورد خان ونحوها .

كما تجرى الليالى على الطريقة الفارسية في الحكايات المفردة . لحكايات العشاق وما يجرى مجراها مبنية على نمط فارسي في اعتمادها على الحب الوهمى الذى يصيب ظرفاء الشباب عقب طيف للحبيب يزورهم في الكرى . ثم تجرى الليالى كذلك على طريقة عربية في الأقاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الأدب كحكاية حاتم الطائي ، وحكاية إبراهيم المهدى وحكاية خالد بن عبد الله القسرى .

وأما أسلوب الليالى فأدنى إلى العامية وإلى كثرة الحشو وكثرة التضمنين ، وإلى التصريح دون التلميح . وذلك كله فضلاً عن جريه مجرى السجع على طريقة ابن العميد والقاضى الفاضل . ويتظرف أحياناً بذكر مصطلحات العلوم النقلية ومنها النحو على سبيل التشبيه والتورية . كقوله في قصة قمر الزمان « وبتنا على ضم وعناق ، وأعمال حرف الجر باتفاق ، واتصال الصلة بالموصول وزوجها كستوين الإضافة معزول » الخ ومع هذا وذاك فإن خير ما يمتاز به أسلوب الليالى هو الوضوح والجرأة والصدق والصراحة وشدة الأسر .

والكتاب لهذه الصفات الأخيرة قد جذب إليه كثير من أدباء الغرب ففتتوا به ، ونقلوه منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادى إلى كل لغة . وقال عنه فولتير « إنه لم يزاوِل فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة » . وأما القصص الفرنسى إستندال فكان « يتمنى أن يحو الله من ذاكرته ألف ليلة وليلة حتى يعيد قراءته ليستعيد ذاكرته »

سيرة بنى هلال

من الآداب الشعبية التى عرفتها الديار المصرية — فيما خلا ألف ليلة وليلة — أدب السير ؛ مثل سيرة عنترة ، وسيف بن ذى يزن ، والوزير سالم ، وسيرة بنى هلال ، وسيرة الظاهر بيبرس . وغيرها .

وقد تسلبت مصر هذه السير جميعها بعد العصر الفاطمى . أو بعبارة أخرى بعد أن أصبح السلطان الفعلى فى يد غير العرب . أفلا يدل ذلك إذن على أن مصر بعد إذ تم إسلامها وتم استعراؤها أرادت أن تقف أمام الدول غير العربية موقف المؤمن بشخصيته ، الشاعر بذاتيته ، الحريص على التعبير عن كل ذلك ؟

بلى — وجدت مصر فى جميع هذه السير التى أشرنا إليها انتصاراً للعروبة ، واستمساكاً بها ، وإخلاصاً لها وللإسلام . أى أن مصر بعد أن استقرت من الناحية السياسية — وكان ذلك بعد مضى قرن أو قرنين من الزمان على الفتح — أصبحت لا تعنى بالعصية القبلية ، ولا بالفرقة بين عدنان وقحطان ، أو بين القيسية واليمانية ، وإنما قصرت عنايتها على العروبة من حيث هى . وكما أن مصر كانت تقبل

كل فاتح أجنبي عنها ما دامت تعرف أنه مسلم ، فكذلك حاولت مصر في القصر الشعبي أن تخلع على أبطالها وشجعانها صفة العروبة . فعلت ذلك بالظاهر ببيرس ، فأخرجته من الجنسية الجركسية التي ينتمى إليها وخلعت عليه صفة العروبة التي أرادت لها . وكذلك فعلت مصر في معظم القصر الشعبي الذي وصل إليها .

على أننا لا نستطيع هنا أن نتحدث عن جميع السير الشعبية التي مرت بالديار المصرية . بل نحن مضطرون إلى الاكتفاء منها بسيرتين فقط هما . ١ — سيرة بني هلال

٢ — وسيرة الظاهر بيبرس

فأما (سيرة بني هلال) فكما يتبين من اسمها ليست سيرة فرد بل جماعة . ومعظم أحداث هذه السيرة وقعت في غرب العالم الإسلامي لا في شرقه في الحقيقة . أي أن مسرح هذه الحوادث هو شمال إفريقيا، والتاريخ يحدثنا عن هذه البلاد أنها اضطربت عقب وفاة الفاتح العربي الأول (عقبة بن نافع) . فقد ارتدت قبائل البربر هناك عن الإسلام ، حتى إن الوليد بن عبد الملك اضطر إلى فتحها من جديد على يد (موسى بن نصير) . ومنذ يومئذ والعروبة والإسلام في كفاح دائم مع سكان تلك الجهات ، ولا شك أن سيرة بني هلال صورة من صور هذا الكفاح . وهي صورة رسمت بطريقة شعبية لا تاريخية . ومع هذا وذاك فإنها تعتبر وثيقة تاريخية لا تقل في أهميتها مطلقاً عن الروايات المدونة في أمهات الكتب . ثم هي في الوقت نفسه — كأغنية رولان

في الأدب الأوربي — تعبير صحيح لشعب كامل عن مشاعره الجماعية
لا الفردية .

مراحل السيرة الرمزية:

وتؤرخ سيرة بني هلال بطريقتها الشعبية لأجيال ثلاثة من أبناء الهلالية

فالجيل الأول

هو الجيل الذي نشأ في نجد منذ الجاهلية . وجاء الإسلام فاتصل
جدهم الأعلى (هلال بن عامر) برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى
عنه الرسول ، وأسكنه وادياً يقال له وادي العباس .

وولد لجدهم الأعلى ولد سماه « المنذر » . وتزوج المنذر هذا بامرأة
يقال لها « هذباء » لم تنجب منه ولداً . فحزن المنذر لذلك حزناً عظيماً
وسافر إلى بلاد السرو وغياذة . وهناك تزوج بأخرى يقال لها (هذباء)
وهي ابنة ملك السرو . ثم شاء القدر أن تنجب الزوجتان في ليلة واحدة
فرزقت هذباء (بجابر) . كما رزقت هذباء (بجبير) .

واستقر أولاد هذباء في نجد . كما استقر أولاد هذباء في السرو .

وكبر جابر وبلغ سن الزواج ، وأعقب أولاداً كثيرين منهم غلام
اسمه « رزق » . وحدث أن تزوج « رزق » هذا بعشر نساء لم ينجب منهن إلا ولداً
مشوه الخلقة . فحزن لذلك . وصم على الزواج من الحادية عشرة ، واسمها
« خضراء » . وهي ابنة شريف مكة . فولدت له فتاه تسمى « شبيحا »
وقتی أسود اللون يسمى « بركات » . والسبب في سواد لونه أن « خضراء

خرجت مع بعض النساء . فرأت طائراً أسود ينقض على جموع الطير كلها فيغلبها ، ويقتل جانباً عظيماً منها . فأعجبت به ، ورفعت يدها إلى السماء ، ودعت الله أن يرزقها غلاماً على شاكلته . فاستجاب الله لها . وغضب زوجها الأمير رزق ، وأنكر الغلام . وأشار عليه أصحابه في حفل (السبوع) أن يطلق (خضراء) ففعل ذلك على كره منه .

وخافت الأم أن ترجع إلى أيها بهذه التهمة . ومشيت في الصحراء حتى لقيها الأمير فضل الله بن يسم فعرفها ، واحترمها ، وأكرمها وترك ولدها « بركات » ينشأ مع ولديه نعيم ومنعم .

وتعلم بركات الفروسية وعلوماً كثيرة أخرى . ثم عرف بركات في يوم ما أن فضل بن يسم ليس أباه . وأما أبوه فقالت له أمه إنه قتل على يد أمير اسمه (رزق بن نائل) .

وكان هذا الأمير منذ فارق زوجته خضراء قد استبد به الأسى فاعتزل قومه في خيمة عاش بها . ثم حدث بعد ذلك أن هاجم الهلاليون بلاد الزحلان . وأظهر بركات في هذه الحرب الأخيرة كل ضروب الشجاعة ، ومن ثم أطلق عليه قومه اسم « سلامة » فأصبح من ذلك اليوم يعرف باسم « أبي زيد الهلالي سلامة » .

وأصرت القصة بعد ذلك على أن يقع أبوه في أسره ، وكل منهما لا يعرف الآخر ، وكاد الابن يقتل أباه بسيفه ، لولا أن أمه بادرت في هذه اللحظة بتعريف الابن حقيقة الأمر . إذ ذاك استرد الأب ولده وزوجته معا ، واعترف بنو هلال بمكان « بركات » وزوجوه بعد ذلك من ابنة أمير الزحلان واسمها « غصن البان » .

الجيل الثاني

ومن أبطال هذا الجيل أبو زيد بن رزق المعروف بأبي زيد الهلالي سلامة ، والحسن بن سرحان ، ودياب بن غانم .
وفي هذه المرحلة من مراحل القصة اضطر الهلالية إلى ترك نجد والجزيرة العربية إلى بلاد الغرب ، وذلك بسبب الجذب . وتطوع ثلاثة نفر من شباب القبيلة بارتياح الطريق . وهؤلاء الثلاثة هم مرعى بن نافلة ، ويحيى بن عمرة ، ويونس بن سروة . وتشكروا إذ ذاك في زى شعراء متجولين . وانتهى بهم المطاف إلى تونس ، وهناك وقع الجميع في قبضة صاحب هذه المدينة . ولم ينجح منهم إلا أبو زيد الهلالي سلامة الذي كان قد رافقهم في هذه الرحلة ، ثم عاد منها إلى بلاده ، وأخبر قومه بما رآه فأعدوا لكل شيء عدته ، وتهيئوا جميعاً للسير إلى بلاد المغرب .

وفي طريقهم إلى تلك البلاد التقوا بالمعجم تارة ، وبالمغول تارة أخرى ، وبالتركان تارة ثالثة ، ومروا في أثناء ذلك بحلب ، وحمص ، وحماة ، وبلبك ، ودمشق ، والقدس ، وغزة ، والعريش ، وقتلوا أميرها البردويل ، ودخلوا مصر ، وضربوا خيامهم بجهة بلبيس ، ثم فروا إلى صعيد مصر حيث لقيهم أمير عربي اسمه (الماضي) فأكرمهم وتزوج امرأة كانت تسيرهم وتحمسهم للقتال ، وكانت تسمى « الجارية » وبالرغم من زواجه بها فإنه تركها تعود مع قومها إلى مباشرة المهمة التي سارت معهم من أجلها .

ووصل الهلالية إلى تونس الخضراء ، وملكها يومئذ هو (خليفة

الزناتى) . و انتهى الأمر بقتل زناته هذا وفك أسرى الهلالية مرعى ويحيى ويونس ، وقسمت البلاد على كبار القواد : -

فأخذ الحسن بن سرحان بلاد (القيروان) . وأخذ دياب بن غانم (تونس) . وأخذ أبو زيد الهلالي سلامة (الأندلس) . وبعد ذلك تنتقل السيرة إلى .

الجيل الثالث

ويعرف هذا الجيل فى السيرة الهلالية (بالآيتام) إشارة إلى ما فعله دياب بن غانم الطاغية بآباء أولئك الآيتام . ومن ثم قام هذا الجيل كله على الأخذ بالثأر من هذا الطاغية وأصحابه .

وأعاد التاريخ نفسه فإذا (يزيدان) بن أبى زيد الهلالي سلامة يجمع العرب من الشام والحجاز ويلتقى بهم جميعاً فى صعيد مصر . ثم يسير بهم حتى يملكوا برقة وطرابلس . وكذلك يفعل الهلالية فى الأندلس ، يخرجون منها سراعاً ليشدوا الحناق على تونس . ويشترك الفريقان بعد ذلك فى فتح هذه القلعة المنيعه وفى قتل أميرها دياب بن غانم ثم يعاد تقسيم البلاد من جديد :

فيتنازل الهلالية عن تونس لابن خليفة الزناتى . ويبايع الهلالية كذلك ابن الحسن بن سرحان أميراً عليهم . ويصبح أبناء القاضى (بدير) قضاة كذلك فى المدينة . وتستقر كل عشيرة فى مكانها القديم من بلاد المغرب . ويعود زيدان بن أبى زيد الهلالي سلامة إلى صعيد مصر .

— ٢٧٠ —

ويعود الذين جاءوا من الأندلس — وهم أبناء أبي زيد الهلالي وأحفاده — إلى الأندلس .

على أن استقرار هذه القبائل خارج الجزيرة العربية لم ينسها ذكر نجد ولا غيرها من أجزاء هذه الجزيرة العربية .

وقد عثر (مرعي) عن هذا الحنين أو الحب بقسوله يخاطب (سعدة) بن خليفه الزناتي :

يا سعدة (نجد) العريضة مريّة ربيت بها أهلى وكل جدود
بلدى ولو جارت على مريّة وأهلى ولو شحنت على تعود

تلك سيرة بني هلال — وهى السيرة التى يقضى فى إنشادها المنشدون فى المقاهى البلدية وفى الريف ستة شهور أو تزيد . وقد تأثر الأدب الأوربي بهذه السيرة كتأثره بقصص ألف ليلة وليلة . وظهر هذا الأثر بوضوح فى شعراء (التروبادور) . كما ظهر كذلك فى قصة أوروبية تعرف باسم « أوكاسان ونيكوليت » .

الأطوار التى مرت بها السيرة

ومرت سيرة بني هلال فى طورين ظاهرين :

أولهما — الطور الغنائى . وكان قبل القرن السادس الهجرى — يؤيد ذلك شواهد لابن خلدون تدل على أن السيرة فى أول أمرها كانت عبارة عن قصائد غنائية توزعتها أجيال مختلفة وبيئات متعددة .

وثانيهما — الطور القصصى . وقد ظهرت أماراته أيام ابن خلدون كذلك في القرن الثامن الهجرى . وقد أورد ابن خلدون كذلك بعض نصوص عن خليفة الزناتى .

على أن هذا التطور الذى حدث للسيرة لم يحدث فجأة ، ولا تم طفرة وإنما استغرق من حياة الأمة العربية وقتا ليس بالقليل .
وثم سؤال يعرض للباحثين دائما فى سيرة بنى هلال وهو : هل من حق العرب أن ينظروا إلى هذه السيرة نظرة الأوربيين إلى الملاحم ؟ إن المستشرق نيكلسون يقول .

« إن الأدب العربى لم ينتج ملحمة شعرية . وكل الذى أنتجه فى الواقع عبارة عن قصص ثرية لها طابع قريب من الملاحم . فأولى بها إذن أن تسمى قصصاً تاريخية ،

أما الذين درسوا السيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة عنتر وغير ذلك من السير المعروفة فى تاريخ العرب فلا يوافقون على رأى نيكلسون ولهم فى هذه المخالفة حجج .

منها — أن هذه السير ليست من وضع فرد بعينه . ولكنها من وضع جماعة . ولا يمكن أن تنسب إلى جيل معين ، ولكنها منسوبة إلى أجيال وبيئات متعددة .

ثم منها — أن السيرة الظاهرية قائمة كلها على الشعر . والشعر فيها يقوم بوظيفة السرد ووصف مواقف الحب وغيره من العواطف البشرية . وبعض هذا الشعر فصيح والآخر عامى .

وفى السيرة الظاهرية — التى سأأتى شرحها بعد قليل — ثر . ولكنه

نثر مسجوع ومقفى . وفى هذا تختلف السيرة الظاهرية فى أسلوبها عن ألف ليلة وليلة فى أسلوبها كذلك .

وكذلك الشأن تماماً فى السيرة الهلالية . فالشعر فيها يستوعب جميع الأحداث . ومعنى ذلك أن الشعر هو الأصل الذى تقوم عليه السيرة فى الحقيقة . وما النثر فى السيرة الهلالية إلا "ترديد للشعر وشرح له لا أكثر ولا أقل . ثم إن النثر فى هذه السيرة يقوم بوظيفة أخرى لها أهميتها . وهى وصل القصائد الشعرية الطويلة والقصيرة فى سياق واحد . ولا تنس أن هذه القصائد الشعرية ظهرت فى فترات متباعدة وبيئات متباعدة أيضاً . وهنا تظهر أهمية العمل الذى يقوم به النثر فى السيرة الهلالية .

أليس فى ذلك كله إذن ما يدل على وجود الملاحم فى الأدب العربى ولكن بالصورة التى تتفق والذوق العربى ؟
و ثم ملاحظة جديدة بالذكر لا بد منها فى الحديث عن هذه السيرة .
وخلاصتها أن الحب فيها حب واقعى ؛ إذ هو حب الزوج لزوجته ، يحزن لفراقها ، ويفرح للقاءها . وهو حب متبادل بين الرجل والمرأة .

السيرة الهلالية فى مصر

ولكن ما هى الصفات التى ظهرت فى السيرة الهلالية وجاءت مسيطرة للتقاليد المصرية والشخصية المصرية ؟

هل هى صفة الفروسية ؟

هل هى عبادة البسالة ؟

هل هى المعجزات وخوارق العادات ؟

هل هي الآثار والعاديات ؟

— ليست هذه الصفات هي كل ما استهوى المصريين ، وحبيهم في هذه السيرة . بل إن الذى حبيهم فيها على الحقيقة إنما هو عروبة السيرة . وكما يقول بعض الباحثين :

« ولا شك أن بقاء الخطوط البارزة في السيرة الهلالية على حالها ، إنما يعنى مسaire هذه الخطوط للروح القومى المصرى ، وفلسفة الحياة التى درج عليها المصريون فى جميع عصورهم ، وملاءمتها للتقاليد القصصية المتوارثة فى هذه البيئة . ويبلغ هذا الروح القومى أوجه فى الجزء السابع من السيرة ، وهو الجزء الذى يتحدث عن صلة العرب الهلالية بالمصريين ، وهو المعروف بديوان مصر » .

وأقد صورت لنا السيرة كذلك كيف حكم بعض الهلاليين مصر ، وكيف أن منهم من طمع فى الاستقلال بها مثل دياب بن غانم . ولكن المصريين قد تعودوا السخرية من الحاكين . ولذا أجرت السيرة على بعض الشخصيات المصرية مثل هذه السكامة ؛ وهى قول هذه الشخصية « ... ولكن العرب لا يملئون أعين المصريين » . وفى هذه العبارة وأمثالها مسaire للذهنية المصرية والخلق المصرى .

وفى السيرة الهلالية انطباعات كثيرة من هذه الخلقية المصرية والمعتقدات المصرية . مثال ذلك قولهم « مصر محروسة من عدوها بالاقطاب الموكلين بالأرض » . ومثل تعظيمهم لرجال الدين إلى حد أنهم أجلسوا شيخ الأزهر على كرسى السلطنة فى قلعة الجبل . ومثل

اعتقادهم في الغيب عن طريق النجوم والرمل ونحو ذلك ، ولإيمانهم
بالقدر إيماناً لا حذله .

أما (المرأة) في سيرة بني هلال فهي المرأة المحجبة لأن الحجاب
كان هو الغالب على نساء مصر في تلك العصور وإلى عهد ليس ببعيد .
وأما (القاهرة) فلها طلالها الواضحة في سيرة بني هلال . وهي طلال
لا تقل عن مثيلاتها في قصص ألف ليلة وليلة . فالقاهرة تبدو في السيرة
الهلالية واضحة كل الوضوح بخططها وأسواقها وحماماتها ودكاكينها
ومساكنها ونحو ذلك .

وأكثر من هذا وذاك أن مصر استطاعت أن تطور العصبية
القبلية في هذه السيرة إلى عصبية وطنية ، وأن تطور النزاع القبلي إلى ما يشبه
النزاع السياسي . وفي هذا ما يكفي للدلالة على عظم الأثر الذي تركته
مصر في هذه السيرة . فلننتقل منها إلى :

سيرة الظاهر بيبرس

وهي قصة فريدة من قصص الفروسية العربية . جمعت بين الحقيقة
والخيال . وجاءت صورة دقيقة من عادات الشعوب التي تحدثت عنها
— وأخصها الشعب المصري — ومعتقدات هذه الشعوب وما نسب
لها من خرافات وخوارق العادات .

ولقد قام المستشرق لين Lane في كتابه (المصريون المحدثون)
بتلخيص هذه السيرة من أولها إلى آخرها . وهي سيرة طويلة تقع

في خمسين جزءاً . وقد وصلت القصتان الأخيرتان منها بتاريخ مصر إلى العصر الحاضر . ولهذه السيرة فوق ذلك خاتمة تجيش بالعاطفة الوطنية لا القبلية . وفي ذلك ما فيه من مساهمة هذه السيرة لمقتضيات الأحوال وتطور الحياة المصرية ذاتها عبر الأجيال .

وعلى الرغم من ذلك ذهب الباحثون إلى أن القدر لم يقيض لسيرة الظاهر بيبرس من المؤلفين البارعين ما قيضه للخليفة العباسي هارون الرشيد في قصص ألف ليلة وليلة . فكأن الموهبة القصصية أخذت تضمحل بعد ظهور هذا الكتاب الأخير ؛ وهو ألف ليلة وليلة .

وعلى هذا وذاك فهناك طائفة من القصص الطويلة في سيرة الظاهر بيبرس . ولكن من الصعب استخلاصها وروايتها منفصلة عن غيرها ،

أما التاريخ الذي ألفت فيه هذه السيرة ، والمؤرخون أو القصاص الذي اشتركوا في تأليفها جيلاً بعد آخر فمن الصعب كذلك أن ندلى بهما برأى . فقد نسبت هذه القصص تارة إلى (ابن الديناري) وإلى أصحاب له عاونوه في وضع بعض القصص . كما نسبت تارة أخرى إلى محمد بن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هجرية . وإن عرف عن هذا الأخير أنه كان مولعاً بالأغاني الشعبية كالأزجال والموالي أكثر من ولعه بالقصص . ثم نسبت السيرة إلى أشخاص آخرين وهكذا .

بيرس بين الواقع والخيال :

وقد لا يعنينا كل ذلك بقدر ما يعنينا أن نوازن بين صورة بيرس في التاريخ وصورته في الأدب الشعبي .

فقد سمي الظاهر بيرس في السيرة باسم (محمود) وجعل له نسب غريب . وخلعت عليه السيرة صفة العروبة ، ونزعت عنه صفة « الجركس » التي له في الحقيقة . وفي هذا كله ما يرضى الذوق المصرى والخيال المصرى كما سبق ذكر ذلك .

وتصور لنا السيرة كذلك كيف أن الظاهر وفد على مصر من حلب والتحق بخدمة الصالح نجم الدين أيوب . وكيف أن كل من كان يلقي (الظاهر) يتنبأ له بمستقبل حسن . وظاهرة التنبؤ تمثل جانباً من حياة المصريين كما يبدو ذلك من المثل الشائع بينهم ، وهو قولهم : « الديك الفصيص في البيضة يصيح » .

ويوصف الظاهر في التاريخ بأنه أسمر اللون وإحدى عينيه بياض . أما السيرة فلم تشر إلى هذا العيب ، وإنما وصفته بالذكاء والشجاعة والحسن ، وبأنه إذا غضب ظهرت في وجهه جذريات ، وبدا بين عينيه شبه سبع من اللحم . حتى إذا سكنت عنه الغضب ذهب كل أثر لهذه العلامات على اختلافها . وفي إخفاء عيوب الظاهر الجسدية ما يتفق وأذواق المصريين الذين يقربون بأبطالهم من مرتبة الرسل ، ويصفونهم بالسكالات التامة في الحلقة . وربما كان للحديث عن « الجذريات » التي تظهر في وجه بيرس عند الغضب صلة ما بالحديث عن « الحسنه »

و « الخال ، والعلامات المميزة لأجساد بعض الناس . بل ربما كانت له صلة كذلك بما تميز به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن له شامة أو علامة يعرف بها ، ولا نظير لها في أجساد سائر الخلق .

وقد أسند التاريخ إلى الظاهر بيبرس وظائف ، وأسندت السيرة إليه وظائف أخرى كذلك ، وهو في هذه الأخيرة — ونعني بها السيرة — رئيس لفرقة من المماليك اسمها الوجاقية . وهو وال على مصر من قبل الملك الصالح ، وهو كاشف للجيزة . ثم هو أمير للقدس . وكل هذه الوظائف أسندت إليه في السيرة قبل أن يستولى على مصر .

كما حرصت السيرة على أن تجعل في يده الحل والربط وبقى على هذا زمانا إلى أن أرادت له القصة وضعا آخر يخالف الوضع الأول . فقد أضعفت القصة بعد ذلك من شخصية الظاهر بيبرس ، وجعلته مجرد رمز للدولة لا عمل له إلا الذهاب إلى البلاد المفتوحة بعد الفراغ من فتحها ، والانتهاه من المعركة . وفي ذلك ما يدلنا على موقف المصريين من الحاكم ، وكيف أنه لا يبدو قريبا من نفوسهم ، ولا محببا إلى قلوبهم في معظم الأحيان .

أما صفات (الظاهر) النفسية فالتاريخ يحدثنا أنه كان سياسيا ماهرا يعتمد أحيانا إلى اصطناع الدس والمكيدة في سبيل الوصول إلى غايته . والسيرة تصفه لنا بالدهاء ، وتصف أعوانه بأنهم أشد منه دهاء ، وأوسع حيلة . تريد بذلك أن تقول إن الظاهر بيبرس رجل تغلب عليه (الطيبة) ولذا تنفى عنه صفة التآمر . ولكنها إن وصفته بهذه الصفة وضحت لنا أنه لا يتجح فيها كل النجاح . مع أن القارى لمصرع

تورانشاه أو قطز لا يسعه إلا أن يتهم الظاهر بيبرس بهذه الصفة الأخيرة التي هي صفة التآمر .

ثم إن السيرة أسبغت على الظاهر صفة الدين ، وجعلت منه ولياً من أولياء الله الصالحين . وهو ما يتفق كذلك وطبيعة المصريين وميول المصريين .

ولا تنس أن القصة أفلحت كذلك في وصف الظاهر بالشجاعة النادرة ، وهي الشجاعة التي استطاع بها التغلب على اللصوص وقطاع الطريق ، ثم هي الشجاعة التي اقترنت إلى جانب ذلك ببعض الصفات الخلقية العالية التي ارتقت بالظاهر إلى حد الأسطورة ، وأرضت بذلك خيال القاص وذوق هذا القاص .

وأخيراً تصرّ القصة على الصورة التي مات بها الظاهر بيبرس . فتجعله يموت شهيداً بعد أداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلوات الله عليه . وفكرة الشهادة نفسها تريح نفوس المصريين وتتفق وميولهم الدينية التي أشرنا إليها .

(والخلاصة) في سيرة الظاهر بيبرس أنها سيرة بطل يشاركه أبطال آخرون في محاربة الصليبيين . والأحداث كلها بعد ذلك كرت وكرت بين العرب المسلمين من جهة والصليبيين من جهة ثانية ؟

خاتمة الكتاب

خاتمة

- ١ -

تحدثنا في أول هذا الكتاب عن الشخصية المصرية في المجال السياسي والمجال العلمي ثم المجال الروحي والمجال الأدبي ، ورأينا كيف أن مصر أصبحت زعيمة العالم الإسلامي في العصور الثلاثة التي أرخنا لها . وكانت زعامتها أكثر وضوحاً في العصرين الأيوبي والمملوكي . وذلك لأنها دفعت الثمن غالياً في سبيل الحصول على هذه الزعامة . ففي العصر الأيوبي كانت مصر قطب الرحى من الحروب التي اشترك فيها المسلمون ضد الصليبيين . وفي العصر المملوكي استطاعت مصر أن تحمى العالم الإسلامي من خطر المغول

والحق لقد كان هذا الخطر الأخير سبباً في نهضة المصريين في عهد المماليك . فقد هبوا مدفعين بغيرتهم الشديدة على الإسلام وتراث الإسلام ، وشرعوا يستنقدون الثقافة الإسلامية من جميع أطرافها فجمعوا هذه الثقافة في موسوعات بعضها أدبي ، كما في نهاية الأرب ، وبعضها جغرافي كما في مسالك الأبصار ، وبعضها لغوي كما في المعاجم الكبيرة المعروفة مثل القاموس المحيط ولسان العرب ، وبعضها ديواني كما في صبح الأعشى . ولولا الخطر المفضو لي ما بادرت مصر إلى القيام بهذا الواجب الشاق نحو الثقافة الإسلامية وصيانتها من الضياع .

— ٢٨٢ —

— ٢ —

ومن السهل على قارئ هذا الكتاب أن يتعرف على بعض ملامح هذه الشخصية المصرية في الدين والأدب : (فأما من حيث الدين) فقد لاحظنا أن المصريين قوم متدينون بطبعهم . ومن ثم كانت بلادهم تربة صالحة للتصوف . حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أن التصوف مصرى النشأة . ومن أجل هذا أقبل الولاة والحكام على بناء الأماكن التي يقضى فيها المتصوفة أكثر حياتهم ، يفرغون فيها للعبادة ، ويشغلون في أثناء ذلك بتحصيل العلوم . وهكذا طفت الخوانق والمدارس في العصورين الأيوبي والمملوكي على الأزهر ودار الحكمة في العصر الفاطمي . وبقي الحال على ذلك حتى كان العصر العثماني فعاد للأزهر شيء من قديم مكانته . وعنى الولاة العثمانيون بأن يكون للأزهر « شيخ » أو رئيس على جميع العلماء . ومنذ يومئذ وللأزهر الفضل كل الفضل في أنه حمى الثقافة الإسلامية من الضياع إبان العصر العثماني بالرغم من أنه العصر الذي لم يستطع منافسة العصورين الأيوبي والمملوكي في مجالات الأدب والعلم .

وثمة تأثير آخر للدين في الحركة الفكرية ؛ وهو أنه صرف المصريين عن الفلسفة وبسبب ذلك لم تنتفع مصر في العصور التي أرخنا لها بفلسفة الإسكندرية قبل الإسلام ، ولا بالفلسفة الفاطمية بعد ظهور الإسلام .

— ٣ —

هذا كله من حيث الحركة العلمية . أما من حيث الحركة الأدبية

فقد وجدنا الشخصية المصرية في الآداب العامة الهزلية أوضح منها في الآداب الفصيحة أو الرسمية . كما وجدنا ديوان الشاعر الواحد من الشعراء ينقسم إلى قسمين : قسم للشعر الرسمي يصاغ فيه الشعر بالطرق التقليدية المعروفة عند المشاركة ، وقسم للشعر غير الرسمي ينطلق فيه الشاعر من كل قيد .

وهذا الذي يصدق على الشعراء يصدق مثله كذلك على الكتاب الأدباء . فكتابات هؤلاء تنقسم أيضاً إلى ديوانية جدية ، وهزلية أو عامة . فأما الديوانية فصورة من الأدب العربي كله في ذلك الوقت ، وهو الأدب الذي قطع مراحل عديدة تنقل في أثنائها من دور البساطة في التعبير على يد الجاحظ وابن المقفع ، إلى دور التعقيد والبديع على يد ابن العميد والصابي ونحوهما ، إلى دور الإغراب الشديد أو الإغراب الذي أضحت به الكتابة العربية نوعاً من الألفاظ والأحاجي على يد أبي العلاء ، ثم إلى دور التغالى في البديع والتفنن في ألوانه الكثيرة والوصول في كل ذلك إلى آخر الشوط على يد القاضي الفاضل ، وعند هذا الأخير ازدحم سيل من الزينة اللفظية والزينة المعنوية كان بعضه مصرى النشأة كما قلنا مثل التورية .

حتى إذا جاء العصر المملوكي رأينا محي الدين بن عبد الظاهر يسلك نفس الطريق وينجح في هذا السلوك .

أما في العصر العثماني فقد ضعف الكتاب والشعراء عن بلوغ هذه الغاية في مضمار البديع . وذلك أن الأدب الذي يبنى على البديع يحتاج في إتقانه إلى أمرين : أولهما ثقافة عريضة يعتمد عليها الكاتب

— ٢٨٤ —

أو الشاعر . وثانيهما حضارة عظيمة يكون النثر أو النظم صدى لها واستجابة لانطباعاتها . وهذا كله ما لم يتوافر للأدباء في العصر العثماني . ومن ثم ضعفوا عن اللحاق بإخوانهم الذين سبقوهم في العصرين الأيوبي والمملوكي . وقد استثنينا من هؤلاء بعض الشعراء كالبدري الحجازي وبعض العلماء الأدباء كالسيد مرتضى الزبيدي .

— ٤ —

ومرة أخرى ننظر نظرة عامة إلى الحركة العلمية التي نشطت في تلك العصور فنستطيع تسجيل بعض الظواهر التي تميزت بها هذه الحركة ومنها :
أن مصر كانت في العصر الأيوبي محصورة جهود علمائها وأدبائها في غاية واحدة ؛ هي نجاح المسلمين في الحروب الصليبية . فالعلماء والأدباء عليهم تعبئة الشعور العام خارج ميدان القتال وفي داخله ، والمؤرخون عليهم تسجيل الأحداث بدقة وأمانة بالغة . أما مصر في العصر المملوكي فتتشط نشاطا عظيماً في المحافظة على تراث المسلمين من علم وأدب على نحو ما شرحنا ، وأما مصر في العصر العثماني فتكتفى بعمل واحد فقط هو الشروح ، وشروح الشروح ، والخواشي والتقارير على نحو ما أوضحنا كذلك ، ولكن رجلاً واحداً فقط في العصر العثماني أمكن استثناءه من هذه القاعدة وهو (الزبيدي) — انحصر عمله في شرح القاموس المحيط فيما سماه (بتاج العروس في شرح القاموس) . ولكن هذا العمل نفسه يعتبر من نوع العمل الذي مارسه علماء العصر المملوكي قبله ، ونعني به تأليف (الموسوعات) .

وفي (كتابة التاريخ) لاحظنا أن الغالبية العظمى من المؤرخين في العصر العثماني ليسوا سوى ذبول لمؤرخين سابقين ، ومقلدين لهم في أساليب التاريخ . وربما كان ذلك لأنهم أرادوا بهذه الطريقة أن يستمدوا لأنفسهم شيئاً من شهرة السابقين ، ليعتمدوا عليها في رواج كتبهم التاريخية ، ولكننا نستثنى المقرئى من هذه القاعدة ، ومع ذلك فقد ذيل المقرئى على نفسه في كتابه (السلوك) وقال إنه كتبه ليكمل به سلسلة مؤلفاته في تاريخ مصر الإسلامية .

وعلى ذكر التاريخ والمؤرخين نحب أن ننبه القارىء هنا إلى أننا لم نكتب شيئاً عن (ابن خلدون) برغم أنه زار إمام مصر في عهد السلطان برقوق ، وقد أعرضنا عن الكتابة عن هذا المؤرخ الكبير لأنه يعتبر من الناحية العلمية أوثق صلة بالثقافة العربية الأندلسية المغربية . قدم ابن خلدون إلى مصر ، فعينه السلطان برقوق أستاذاً للفقهاء المالكيين بالمدرسة الكاملية . ثم عين قاضياً للمالكية ، ثم عزل عن منصبه بعد أن شغبت العامة عليه . واكتفى يومئذ بمنصب مدرس . وعاش هادئاً في ظل السلطان مدة من الزمان فأعانه ذلك على النظر في مؤلفاته . فنظر فيها وهذبها بقدر المستطاع ،

ومات السلطان برقوق وكان تيمورلنك يومئذ قد وصل الشام . وذلك في عام ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) فسار السلطان المصرى لملاقاته . وصحبه جمهور من العلماء والقضاة والصوفية فيهم ابن خلدون . ثم اضطر السلطان إلى العودة إلى مصر . لقيام فتنة هناك . واستطاع ابن خلدون بذلك

— ٢٨٦ —

وحيلته أن يحصل من تيمورلنك على إذن بعودة العلماء إلى مصر ،
ومات ابن خلدون سنة ٨٠٨ للهجرة .

والذى لا ريب فيه أن ابن خلدون ترك في البيئه المصرية العلمية أثرا
لا يمحي ، وأر — التاريخ ينظر إلى مؤرخي القرنين التاسع والعاشر
للهجرة على أنهم من تلامذته . وإن عجزوا عن أن يتأثروا بمنهجه في
كتابة (المقدمة) . ذلك أنه ليس عندنا دليل واحد على أن المؤرخين
المصريين ابتداء من المقرئى إلى الجبرتي قد تأثروا بفلسفة ابن خلدون
في المقدمة بالمعنى الصحيح . وليس عندنا دليل واحد كذلك على أنهم تابعوا
العلم الذى أنشأه ابن خلدون لإنشاء وهو علم (العمران) بنفس الروح .

نعم اتجه المؤرخون في العصر المملوكى إلى كتابة الموسوعات وكان
النويرى من أولئك المؤرخين الذين آثروا هذا الاتجاه . ومن المحقق
أن هذه الميول أعانت كثيرا على درس الشعوب : ومع هذا وذاك فإن
ابن خلدون يعتبر صاحب الفضل في الاهتمام إلى قوانين علم العمران
حتى يمكننا أن ننظر إليه على أنه أول فيلسوف مؤرخ اتخذ من المجتمع
موضوعا لهذا العلم الذى أشرنا إليه .

— ٦ —

(والخلاصة) أن الشخصية المصرية إنما تبلورت تبلورا تاما وأخذت
صورتها الأخيرة في عصر المماليك. وقد أشرنا إلى ظلال هذه الشخصية في الأدب
والعلم والنصوف . وفي التاريخ بنوع خاص ظهرت آثار هذه الشخصية
بكل قوتها ، ورأينا المؤرخين الأيوبيين يكتبون في سير الأشخاص تارة

— ٢٨٧ —

سير الدول تارة أخرى . والذين كتبوا في سيرة الدول من هؤلاء المؤرخين في العصر الأيوبي عنوا بمصر عنايتهم بالشام سواء بسواء . ولكن في العصر المملوكي وجدنا كبار المؤرخين يحصرون عنايتهم أو يكادون يحصرونها في مصر . ولا يكتفون بذلك بل يجعلون (مصر) مركز الدائرة من التاريخ العام ، وفي ذلك ما يخالف القاعدة التي كان يتبعها المؤرخون الأقدمون الذين جعلوا من (بغداد) مركزاً لهذه الدائرة . ثم لا يقف المؤرخون المصريون عند هذا الحد حتى يبدوا اهتماماً خاصاً بمقاييس النيل ويذكروا ارتفاعه وانخفاضه في حوادث كل سنة . فعلوا ذلك شعوراً منهم بأن النيل في مصر هو كل شيء . وفي ذلك ما يدل دلالة واضحة على النزعة المصرية الصميمة عندهم . فهم يكتبون ما يكتبون بذوق مصري ومزاج مصري ، وروح مصرية ، وذهنية مصرية .

وانقصى عصر الماليك وتبعه العصر العثماني فوجدنا من أبناء هذا العصر الأخير من تبع أسلافه في هذه الطريقة ، وكتب في تاريخ مصر وحدها وعنى بعلمائها وأدبائها وفضلائها أكثر من عنايته بأمرائها وحكامها . كما فعل المؤرخ الكبير المعروف (بالجهرتي) .

— ٧ —

ولئن كان صحيحاً أن الشخصية المصرية وجدت لها مجالا كبيراً للظهور في الأدب الهزلي أو العامى أكثر من الأدب الجدى أو الرسمي فأصبح من ذلك أن هذه الشخصية المصرية تجلت لنا بوضوح

في الأدب الشعبي الذي لم يكن له مؤلف معين ، وإنما كان نتاج الشعب العربي عامة والشعب المصري خاصة عبر العصور التي مرت بهما .

غير أن العصر المملوكي بنوع خاص هو العصر الذي تبلور فيه الأدب الشعبي أيضاً ، وسار هذا التبلور جنباً إلى جنب مع تبلور الشخصية المصرية برمتها . فلأمر ما إذن برز الأدب الشعبي في عصر المماليك . ولأمر ما كذلك ظهرت النسخة الكاملة من قصص ألف ليلة وليلة وأكثر الألوان الأخرى من الأدب الشعبي .

والحق - لقد كانت قصص ألف ليلة وليلة مرآة للشعب المصري في أخلاقه وعاداته وخیالاته وخرافاته ، وعقيدته الإسلامية التي ملكته عليه كل حواسه ، ونوع السخرية التي كان يسخر بها من حكمائه ونحو ذلك .

وهذا الذي حدث في ألف ليلة وليلة حدث مثله تماماً في سيرة بني هلال وسيرة الظاهر بيبرس . فقد جاءت هاتان السيرتان في كثير من المواضع كذلك صورة دقيقة من الحياة المصرية والذهن المصري . والقاص في هاتين السيرتين متفق مع القاص في ألف ليلة وليلة في وصف أبطال هذه القصص بالشجاعة والمهارة التي تذكر بمهارة (الشطار) وما ينسب إليهم من أعمال مخيفة للناس في أول الأمر ، مطمئنة لهم ومريحة لأعصابهم في نهايته .

وفي هذا كله ما ينهض دليلاً على تبلور الشخصية المصرية من جميع جوانبها بشكل نهائي في عصر المماليك أكثر من أي عصر من العصور السابقة له .

فهرس

الصفحة

المقدمة ٥

الكتاب الأول

في الحياة السياسية والعلمية والروحية في مصر
من قيام الدولة الأيوبية إلى الحملة الفرنسية ... ٩

الفصل الأول

الشخصية السياسية ١١
بم قويت مصر الأيوبية ومصر المملوكية ؟ ... ١٥
لم صغفت مصر العثمانية ؟ ... ١٧

الفصل الثاني

الشخصية العلمية ٢٢
اليثبات العلمية في العصرين الأيوبي والمملوكي ... ٢٥
الميول العلمية لسلطين الدولتين الأيوبية والمملوكية ... ٢٩
الحياة العلمية في العصر العثماني ... ٣١
السمات العلمية لكل عصر من هذه العصور التاريخية ... ٣٤
العصر العثماني عصر الفسروح والحواشي ... ٣٩

الفصل الثالث

الحياة الروحية ٤٦
الخطاها في مصر ٤٨

الصفحة

٥٠ المتصوفة في مصر

الكتاب الثاني

٥٥ في فن الشعر

الفصل الأول

٥٧ دواعي النهضة الأدبية في مصر

الفصل الثاني

٦٦ الشعر السياسي

٨٠ الشعر السياسي وخلفاء صلاح الدين

٩٢ حملة صليبية كبرى من أوروبا تسترجع بيت المقدس

الفصل الثالث

٩٧ الشعر الصوفي

الفصل الرابع

١٠٧ أساليب الشعر المصري في تلك الفترة

الفصل الخامس

١١٣ شعراء البديع

الفصل السادس

١٣٥ مدرسة المعاني في الأدب المصري

الكتاب الثالث

١٧٧ في فن الكتابة

- 491 -

الفصل الأول

الصفحة

الكتابة الديوانية

١٧٩

الفصل الثاني

الكتابة الهزلية ١٩٣

الفصل الثالث

[illegible]

الفصل الرابع

[illegible]

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤١٥٧ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6632 - 4

هذا الكتاب عن «الأدب المصرى» لأستاذنا الدكتور
عبد اللطيف حمزة، رحمه الله، يتم عمله فى كتابه:
«الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي
والمملوكى الأول»؛ الذى نشر لأول مرة عام ١٩٤٧م.
وشاغله فى الكتاين؛ ثم فى دراساته التالية؛ الأدبية ثم
الصحفية؛ يتمثل فى دراسة الشخصية المصرية، وتحديد
معالمها وخصائصها، وهل بقيت هذه المعالم واضحة فى
كل زمان؟ وهل ثبتت هذه الشخصية للأحداث؟

تصميم الغلاف: صبرى عبد الواحد

Bibliotheca Alexandrina



0296990

تاب

مطابع الهيئة

٦٧٥ قرشاً